http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وسبحانه وحد أيضاً في هذه الآية بين رضاء الله ورضاء الرسول ولم يقل : والله ورسوله أحق أن يرضوهما بظاهر الأسلوب في لغة البشر ، لكنه شاء أن يوحد الرضاء؛ لأنه يدور حول أمر واحد بطاعة واحدة ، وحول نهي واحد بانتهاء واحد .
{ ياأيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } [الأنفال : 20] .
وهذا الأمر بطاعة الله تعالى والرسول بلاغ من الله ، والبلاغ أول وسيلة له الأُذن ، لأن الأُذن أول وسيلة للإدراكات ، ولذلك فإنّ الرسول يبلغ الأوامر بالقول للناس ، ولم يبلغهم بالكتابة؛ لأن كل الناس لا تقرأ ، فأبلغ صلى الله عليه وسلم الناس قولاً كما أمر أن يكتب القرآن ليظل محفوظا .
ونعلم أن السماع هو الأصل في القراءة . وأنت لا تقرأ مكتوباً ، ولا تكتب مسموعاً إلا إذا عرفت القواعد ، وعرفت كيفية نطق الحروف .
والمعلم يعلم طالب المعرفة القراءة والكتابة عن طريق السماع أولاً ، إذن فالسماع مقدم في كل شيء ، ولن يستطيع واحد أن يقول في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم تبلغني الدعوة؛ لأن الدعوة أبلغت للناس بالسماع ، وقوله : { وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } تعطينا أن الإنسان إن لم تبلغه الدعوة ، فليس مناطاً للتكليف ، لأن ربنا سبحانه وتعالى هو القائل : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .
والمجتمعات التي تعيش في غفلة وليس عندهم رسول ولم يبلغهم المنهج ، لن يعذبهم الله ، وهذا أمر وارد الآن في البلاد النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهج الإسلام ، وبالسماع عن الإسلام؛ لأنهم ما سمعوا شيئاً عن الدين ولم يعرفوا منهجه . وهؤلاء ناجون من العذاب طبقاً لقول الله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] .
فثمرة بعث الرسول أن يبلغ الناس ، ولذلك أخذنا حكما هاماً من الأحكام من قوله الحق تبارك وتعالى :
{ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ } [الأنفال : 20] .
أخذنا من هذا القول أن من لم يبلغهم المنهج لا يحاسبون . ولكن أيكفي السماع في أن نعلم المنهج . لا ، لا يكفي في السماع أن نعلم أن هناك رسولاً جاء ليعقب على رسول سبق ، ولكن

عليك أن تبحث أنت . فإن كان في الأرض من لم يبلغه هذا فهو ناجٍ ، وإن كان قد بلغه خبر رسول ولم يبلغه المنهج الكامل فعليه أن يبحث بنفسه ، بدليل أن الإنسان يبحث عن أهون الأشياء بمجرد أن يسمع عنها ، ويشغل نفسه بالبحث .

ولنفرض أن إنساناً قال في قرية : إن الدولة ستغير بطاقة التموين ، ألا يتجه كل فرد في القرية ليسأل عن هذا الأمر ويهتم به كل الاهتمام؟ . إذن كان يكفي في وصول البلاغ أن يسمع الإنسان رسولاً في العرب قد جاء للناس كافة برسالة عامة ، وأن هذه الرسالة تعقب الرسالات السابقة ، ومن سمع هذا السماع كان عليه أن يعامل هذا الخبر معاملة المصالح الدنيوية الأساسية لأنه اذا كان أمر الدنيا هاماً فما بالنا بأمر صلاح الدنيا والآخرة؟ .

وجزء من التبعة في ذلك يقع على المسلمين الذين لم يجدُّوا ويبلغوا منهج الله ودين الله إلى غيرهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَلاَ تَكُونُواْ كالذين قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ }

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (21)

ففي هذه الآية الكريمة ينهانا الحق جل وعلا أن نكون مثل من قالوا : « سمعنا » وحكم الله بأنهم لا يسمعون ، وهؤلاء هم من أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا؛ لأن المراد بالسماع ليس أن تسمع فقط ، بل أن تؤدي مطلوب ما سمعت ، فإن لم تؤد مطلوب ما سمعت ، فكأنك لم تسمع . بل تكون شرّاً ممن لم يسمع؛ لأن الذي لم يسمع لم تبلغه دعوة ، أماَّ أنت فسمعت فبلغتك الدعوة ولكنك لك تستجب ولم تنفذ مطلوبها .

إذن قول الله تعالى :

{ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } [الأنفال : 21] .

يفسر لنا أن هذا السماع منهم كان مجرد انتقال الصوت من المتكلم إلى أذن السامع بالذبذبة التي تحدث ، ولم يأخذوا ما سمعوه مأخذاً جاداً ليكون له الأثر العميق في حياتهم . فإذا لم يتأثروا بالمنهج ، فكأنهم لم يسمعوا ، وياليتهم لم يسمعوا؛ لأنهم صاروا شرّا ممن لم يسمع .

{ وَلاَ تَكُونُواْ كالذين قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ } [الأنفال : 21] .

أو أن السمع يراد ويقصد به القبول ، مثلما نقول : اللهم اسمع دعاء فلان ، وأنت تعلم أن الله سميع الدعاء وإن لم تقل أنت ذلك ، لكنك تقول : اللهم اسمع دعاء فلان بمعنى « اللهم اقبله » ، فيكون المراد بالسمع القبول .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الصم البكم . . . }

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (22)

وكلمة « دابّة » تعني كل ما يدب على الأرض ، ولكنها خُصَّتَّ عرفاً بذوات الأربع . وجمع دابة دوابّ .

و « الدواب » كما نعلم هي القسم الثالث من الوجود ، لأن الوجود مرتقي إلى حلقات؛ أولها الجماد ، وثانيها النبات ، وثالثها الحيوان ، ورابعها الإنسان ، ويجمع هذه الأشياء الأربعة رباط واحد ، فنجد أن أعلى مرتبة في الأدنى ، هي أول مرتبة في الأعلى ، فالأدنى هو الجماد ، وفوقه النبات ، وأعلى شيء في الجماد ، يُمثل أول شيء في النبات ، مثل المرجانيات ، كأن الجماد نفسه له ارتقاءات في ذاته تتوقف عند مرحلة معينة لا يتعداها ، فلا ترتقي إلى أن تصير نباتاً ، أو أن يصبح النبات حيواناً ، لا ، إن كل قسم يظل مستقلا بذاته وفيه ارتقاءات تقف عند حد معين . وإذا كان أعلى شيء في الجماد يكاد أن يماثل أول شيء في النبات ، فهو لا يتحول نباتاً مثل ظاهرة نمو الشعاب المرجانية التي أخذت ظاهرة النبات ، لكنها لا تنتقل إلى نبات ، بل تظل أعلى قمة في الجماد . وكذلك النبات ، نجده يرتقي إلى أن ينتهي إلى أعلى مرحلة فيه . فالنبات مراحل ، وآخر مرحلة فيه أن يوجد نبات يُحسّ ، لأن الإحساس فرع الحياة ، وهذا ما نراه في نباتات الظل التي نشاهدها وهي تتجه بطبيعة تكوينها إلى نور النهار . وكأن فيها نوْعاً من الإحساس . وإن تغير مكان الضوء ، فإنها تُغيِّر اتجاهها إلى المكان الجديد .

وهناك نوع من النبات يذبل فور أن تلمسه . ونسمع عن نبات يسمى في الريف « الست المستحية » وهي تغلق أوراقها على ثمرها فور اللمس ، وأخذت أعلى مرتبة في النبات ، وهي أول مرتبة في الحيوان ، لكنها لا ترتقي إلى حيوان . بل تظل في حلقتها كنبات .

ونأتي إلى الحيوانات لنجدها ترتقي ، فهناك حيوانات تستأنس ، وحيوانات لا تستأنس ، بل تظل متوحشة ، وقد خلقها ربنا لحكمة ما . فالإنسان يستأنس الجمل ولا يستطيع أن يستأنس الثعبان ، ولا البرغوث ، كأن الله يريد بذلك أن يعلمنا أننا لم نستأنس الحيوانات التي نستأنسها بقدرتنا وبذكائنا؛ بل هو الذي جعلك تأنس بها ، فأنت أنست بالجمل ، وقد ترى البنت الصغيرة وهي تقوده ، وتأمره بالقيام والقعود ، بينما البرغوث الصغير قد يجعل الإنسان ساهراً طوال الليل لا يعرف كيف يصطاده . إذن هذه الأمور تعطينا حكمة أوجزها الحق تبارك وتعالى في قوله : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ } [يس : 71 – 72] .

ولو لم يذلل الحق تبارك وتعالى هذه المخلوقات ، لما استطاع الإنسان تذليلها ، ونرى المخلوق الصغير وقد عجز الإنسان أمام تذليله ، ليعرف أن المذلل ليس الإنسان ، بل المذلل هو الله سبحانه وتعالى .

وفي المستأنس من الحيوانات تجد نوعاً تُعوده على بعض الأشياء فيعتادها ويقوم بها مثل القرد الذي يقول له مدربه اعجن عجين الصبية ، أو العجوزة ، فيقلد القرد الصبية أو « العجوزة »؛ لأن فيه قابلية التقليد ، فهو يملك درجة من الفهم وهو أعلى مرتبة في الحيوان ، ويقف عندها ولا يتطور إلى خارجها ، بدليل أنك إن علمت قرداً كل شيء ، فهو يصنع ما تعلمه له من الحركات ويضحك الناس منه ، لكن القرد لا يستطيع أن يعلمها لبني جنسه . وكذلك نجد من يدرب الأسد والنمر ليؤدي فقرات ترفيهية في السيرك ، لكن الأسد لا يعلم أولاده من الأشبال ما تعلمه من مدرب السيرك .

إذن فالوجود بحلقاته الأربع؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وإنساناً لا ترتقي فيه حلقة إلى الأعلى منها؛ بل تقف عند حد معين ، وتلك هي الشبهة التي أصابت بعض المفكرين في أن يظنوا أن أصل الإنسان قرد؛ لأن المخلوقات حلقات يسلم بعضها لبعض ، وأدنى مرتبة في الأعلى لكل حلقة هي أعلى مرتبة في الأدنى وتقف في حدودها . والذي يهدم نظرية داروين من أولها هو هذا الفهم لطبيعة التطور : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } [الذاريات : **49**] .

أي أن كل الكائنات مخلوقة ابتداءً من الله ، ولا يوجد جنس قد نشأ من جنس آخر .

ونقدم هذا الدليل العقلي لغير المتدينين ، فنقول : لماذا لم تؤثر الظروف التي أثرت في القرد الأول ليصير إنساناً ، في بقية القرود لتكون أناساً؟

وهكذا تنهدم النظرية – نظرية داروين – من أولها لآخرها ، وعلماء الأجناس يهدمونها الآن .

والحق تبارك وتعالى أخبرنا أن هذه المخلوقات التي تقع في المرتبة تحت الإنسان ، لا تستطيع أن ترتب المقدمات ، وتأخذ منها النتائج . ولا تعرف البديلات في الاختيار ، والحيوان وهو أرقى الأجناس ليس عنده بديلات؛ إنه يتعلم مهمة واحدة وتنتهي المسألة؛ لأنها دواب لا تعقل ، لكن الإنسان يملك القدرة على الاختيار بين البديلات . وجرب أن تعاكس قطة فإنك تجدها تهاجمك وتجرحك بمخالبها إلا إن كنت أنت مستأنسها وتعرف أنك تداعبها . أمَّا المؤمن العاقل المكلف فهو يتصرف في المواقف بشكل مختلف . فإن قام إنسان بإيذائه فقد يعاقبه بمثل ما عوقب ، وقد يعفو عنه ، وقد يكظم غيظه . { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس } [آل عمران : **134**] .

إذن فأنت أيها المؤمن عندك بديلات كثيرة ، لكن الحيوان لا يملك مثل هذه البديلات .

ولذلك ضربنا من قبل المثل : لو أنك علفت حيواناً إلى أن أكل وشبع ثم جئت إليه بعد شبعه بشيء زائد من أشهى طعام عنده؛ تجده لا يأكله . بينما الإنسان إن شبع فقد لا يمانع أن يأكل فوق الشبع من صنف يحبه .

ومثال آخر : نرى في الريف أن الحمار حين يرى جدولاً من المياه ويكون اتساع الجدول فوق قدرته على أن يقفز عليه ليعبره ، نجد الحمار قد توقف رافضاً القفز أو المرور فوق هذا الجدول .

فهل قاس الحمار المسافة بنظره ووازنها بقدرته؟! إنه يقفز فوق الجداول التي في متناول قدرته ، لكنه يرفض ما فوق هذه القدرة ، رغم أننا نصف الحمار بالبلادة .

وهذا يبين لنا أن كل جنس يسير في ناموس تكوينه ليؤدي مهمته التي أرادها له الله . ولقائل أن يقول : كيف يقول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله } بينما الحيوانات كلها مسخرة؟ ونقول : إذا كنت أيها الإنسان تأخذ وظيفة الأدنى فأنت تختار أن تكون شرًا من الدابة؛ لأن الأدنى مسخر بقانونه ويفعل الأشياء بغرائزه لا بفكره ، فكأن فكر الاختيار بين البديلات غير موجود فيه ، لكنك أيها الإنسان ميزك الله بالعقل الذي يختار بين البديلات ، فإن أوقفت عقلك عن العمل ، وسلبت قدرتك على القبول لما تسمع من وحي ألا تكون شر الدواب؟

وحين نتأمل كلمة « شر وخير » نقرأ قول الحق تبارك وتعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7 – 8] .

فالخير يقابله الشر ، وحين يقابل الخير الشر ، فالإنسان يميز الخير ، لأنه نافع وحسن ، ويميز الشر؛ لأنه ضار وقبيح .

ولكن كلمة « خير » تستعمل أحياناً استعمالاً آخر لا يقابله الشر ، بل يقال : إن هذا الأمر خير من الثاني ، رغم أن الثاني أيضاً خير ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍ خير » .

إنّ كلاً منهما – أي المؤمن القوي والمؤمن الضعيف – فيه خير ، لكن في الخير ارتقاءات ، هناك خير يزيد عن خير ، ويخبر المولى في قوله تعالى : { إِنَّ شَرَّ الدوآب عِندَ الله الصم البكم الذين لاَ يَعْقِلُونَ } .

أي أن الكفار شر ما دبَّ على الأرض لأنهم قد افتقدوا وسيلة الهداية وهي السماع ، وبذلك صاروا بكماً أي لا ينطقون كلمة الهدى .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ . . . }

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

فهو سبحانه وتعالى قد علم أنه ليس فيهم خير ، فلم يسمعهم سماع الاستجابة .

والمولى سبحانه وتعالى منزه من أن يبتدئهم بعدم إسماعهم؛ لأنهم لم يوجد فيهم خير ، والخير هنا مقصود به الإيمان الأول بالرسول ، وهم لم يؤمنوا . فلم يستمعوا لنداء الهداية منه صلى الله عليه وسلم كمبلغ عن الله تعالى . إذن فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم ، وسبحانه وتعالى القائل : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264] .

وهم – إذن – سبقوا بالكفر فلم يهدهم الله . { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [البقرة :

. [258

وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله .

وسبحانه وتعالى القائل : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [المائدة : 108] .

وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله .

والله منزه عن الافتئات على بعض عباده ، فلم يسمعهم سماع الاستجابة لنداء رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ }

وعلم الله تعالى أزلي ، لكنه لا يحاكم عباده بما علم عنهم أزلاً . بل ينزل لهم حق الاختيار في التجربة الحياتية العملية . وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – تجد أباً يعاني من مأساة فشل ابنه في الدراسة أو في الاعتماد على نفسه في الحياة ، ويحيا الولد لاهياً غير مقدر لتبعات الحياة ، فيقول أصدقاء الوالد له : لماذا لا تقيم لابنك مشروعاً يشغله بدلاً من اللهو ، فيرد الأب : إنني أعرف هذا الولد ، سيأخذ المشروع ليبيعه ويصرف ثمنه على اللهو . والأب يقول ذلك بتجربته مع الابن . لكنْ ألا يُحتمل أن يكون هذا الابن قد ملَّ الانحراف واللهو وأراد أن يتوب ، أو على الأقل ليثبت للناس أن رأى والده فيه غير صحيح؟ لذلك نجد الأب يفتح لابنه مشروعاً ، لكن الولد يغلبه طبعه السيىء فيبيع المشروع ليصرف نقوده في الفساد .

هل حدث ذلك من نقص في تجربة الوالد؟ لا ، بل عرف الأب عدم الجد عن ابنه ، وسهولة انقياده لهواه . فما بالنا بالحق الأعلى العليم أزلاً بكل ما خفي وما ظهر من عباده؟ .

ولكنّه سبحانه وتعالى شاء ألا يحاسب عباده بما علمه أزلاً ، بل يحاسبهم سبحانه وتعالى بما يحدث منهم واقعاً ، فهو القائل : { وَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين آمَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين } [العنكبوت : 11] .

فسبحانه وتعالى العالم أزلاً ، لكنه شاء أن يعلم أيضاً علم الإقرار من العبد نفسه؛ لأن الله لو حكم على العباد بما علم أزلاً ، لقال العبد :كنت سأفعل ما يطلبه المنهج يا رب . لذلك يترك الحق الاختيار للبشر ليعلموا على ضوء اختياراتهم ويكون العمل إقراراً بما حدث منهم .

{ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ } [الأنفال : 23] .

وحتى لو أسمعهم الله عز وجل لتولوا هم عن السماع وأعرضوا عنه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم أنهم اختاروا أن يكونوا شرّاً من الدواب عنده ، وهو الصم الذين لا يسمعون دعوة هداية ، وبُكْم لا ينطقون كلمة توحيد ، ولا يعقلون فائدة المنهج الذي وضعه الله تعالى لصلاح دنياهم وأخراهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { يأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)

وهنا نقل المسألة من سماع إلى استجابة؛ لأن مهمة السماع أن تستجيب .

{ يأايها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ }

أي استجيبوا لله تعالى تشريعا ، وللرسول صلى الله عليه وسلم بلاغاً ، وغاية التشريع والبلاغ واحدة ، فلا بلاغ عن الرسول إلا بتشريع من الله عز وجل ، بل وللرسول صلى الله عليه وسلم تفويض بأن يشرع . ورسول الله لم يشرع من نفسة ، وإنما شرع بواسطة حكم من الله تعالى حيث يقول : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7] .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – : نسمع أن فلاناً قد فُصل لأنه غاب خمسة عشر يوماً عن عمله في وظيفته ، ويعود المحامي إلى الدستور الذي تتبعه البلد فلا يجد في مواد الدستور هذه الحكاية ، ويسمع من المحامي الأكثر خبرة أن هذا القانون مأخوذ من تفويض الدستور للهيئة التي تنظم العمل والعاملين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم مفوض من ربه بالبلاغ وبالتشريع .

{ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم } [الأنفال : 24] .

ونجد هنا أيضاً أن الحق تبارك وتعالى قال : { إِذَا دَعَاكُم } ولم يقل : إذا دعَوَاكُمْ ، وفي ذلك توحيد للغاية ، فلم يفصل بين حكم الله التشريعي وبلاغ الرسول لنا . ونعلم أن الأشياء التي حكم فيها الرسول صلى الله عليه وسلم حكماً ثم عدّل الله له فيها الحكم ، هذا التعديل نشأ من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم لم ينشىء حكماً عدّله الله تعالى إلا فيما لم يُنزِل الله فيه حكماً . وحين ينزل الله حكماً مخالفاً لحكم وضعه الرسول ، فمن عظمته صلى الله عليه وسلم أنه أبلغنا هذا التعديل ، وهكذا جاءت أحكامه صلى الله عليه وسلم إذا وافقت حقّاً فلا تعديل لها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو صلى الله عليه وسلم يعدل لنا . وبذلك تنتهي كل الأحكام إلى الله تعالى . فإذا قال قائل : كيف تقول إن قول الرسول يكون من الله؟ نجيب : إنه سبحانه القائل :

{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى } [النجم : 3-4] .

و « الهوى » – كما نعلم – أن تعلم حكماً ثم تميل عن الحكم إلى مقابله لتخدم هوًى في نفسك ، والرسول صلى الله عليه وسلم حينما عمد إلى أي حكم شرعه ولم يكن عنده حكم من الله عز وجل ، فإن جاءه تعديل أبلغنا . إذن ما ينطق عن الهوى . أي من كل ما لم ينزله الله ، وحكم فيه صلى الله عليه وسلم ببشريته ، ولم يكن له هوى يخدم أي حكم ، ونجد في قول الله تعالى :

{ يأايها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم } [الأنفال : 24] .

أنَّ كلمة « دعاكم » مفردة ، مثلها مثل كلمة « يرضوه » في قوله لكم :

{ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ } [التوبة : 62] .

ومثلها مثل الضمير في « عنه » في قوله تعالى : { أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ } [الأنفال : 20] .

وفي هذه الآيات الكريمة توحيد للضمير بعد المثنى ، وهذا التوحيد كان مثار شبهة عند المستشرقين ، فقالوا : كيف يخاطب اثنين ثم يوحدهما؟ ونقول لمن يقول ذلك : لأنك استقبلت القرآن بغير ملكة العربية . فلم تفهم ، ولو وجد الكفار في أسلوب القرآن ما يخالف اللغة لما سكتوا ، فهم المعاندون ، ولو كانوا جربوا في القرآن كلمة واحدة مخالفة لأعلنوا هذه المخالفة . وعدم إعلان الكفار عن هذه الشبهات التي يثيرها الأعداء ، يدل على أنهم فهموا مرمى ومعنى كل ما جاء بالقرآن ، وهم فهموا – على سبيل المثال – الآية التي يكرر المستشرقون الحديث عنها ليشككوا الناس في القرآن الكريم ، وهي قول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل وأقسطوا إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } [الحجرات : 9] .

وتساءل المستشرقون – مستنكرين – : كيف يتحدث القرآن عن طائفتين ، ثم يأتي الفعل الصادر منهما بصيغة الجمع؟ . ونقول : إن « طائفتان » هي مثنى طائفة ، والطائفة لا تطلق على الفرد ، إنما تطلق على جماعة ، مثلما نقول : المدْرَستان اجتمعوا؛ وصحيح أن المَدْرسة مفرد . لكن كل مدرسة بها تلاميذ كثيرون ، وكذلك « طائفتان » ، معناها أن كل طائفة مكونة من أفراد ، وحين يحدث القتال فهو قتال بين جمع وجمع؛ لذلك كان القرآن الكريم دقيقاً حين قال : { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا }

ولم يقل القرآن الكريم : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلا؛ لأن هذا القول لا يعبر بدقة عن موقف الاقتتال لأنهم كطائفتين ، إن انتهوا فيما بينهم إلى القتال . فساعة القتال لا يتحيز كل فرد لفرد ليقاتله ، وإنما كل فرد يقاتل في كل أفراد الطائفة الأخرى ، وهكذا يكون القتال بين جمع كبير من أفراد الطائفتين .

وبعد ذلك يواصل الحق تبارك وتعالى تصوير الموقف من الاقتتال بدقة فيقول سبحانه : { فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } [الحجرات : 9] .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : { فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا } ، ولم يقل : أصلحوا بينهم . وهكذا عدل عن الجمع الذي جاء في الاقتتال إلى المثنى؛ لأننا في الصلح إنما نصلح بين فئتين متحاربتين ، ونحن لا نأتي بكل فرد من الطائفة لنصلحه مع أفراد الطائفة الأخرى . ويمثل كل طائفة رؤساؤها أو وفد منها ، وهكذا استخدم الحق المثنى في مجاله ، واستخدم الجمع في مجاله ، وسبحانه وتعالى منزه عن الخطأ .

وهنا في الآية التي ما زلنا بصدد خواطرنا عنها وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى :
{ ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .

وفي أولها نداء من الله للمؤمنين ، والنداء يقتضي أولاً أن يكون المنادى حيّاً؛ لأنه سبحانه وتعالى القائل : { وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور } [فاطر : 22] .
إذن : كيف يقول سبحانه لمن يخاطبهم وهم أحياء : { دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } ؟ .
وهنا نقول : ما هي الحياة أولاً؟ . نحن نعلم أن الحياة تأخذ مظهرين ، مظهرَ الحسّ ومظهرَ الحركة ، ولا يتأتى ذلك إلا بعد أن توجد الروح في المادة فتتكون الحياة ، وهذه مسألة يتساوى فيها المؤمن والكافر . وثمرة الحياة أن يسعد فيها الإنسان ، لا أن يحيا في حرب وكراهية وتنغيص الآخرين له وتنغيصه للآخرين ، والحياة الحقيقية أن يوجد الحسّ والحركة ، شرط أن تكون حركة كل إنسان تسعده وتسعد من حوله ، وبذلك تتآزر الطاقات في زيادة الإصلاح في الأمور النافعة والمفيدة ، أما إذا تبددت الطاقات الناتجة من الحسّ والحركة وضاعت الحياة في معاندة البعض للبعض الآخر ، فهذه حياة التعب والمشقة ، حياة ليس فيها خير ولا راحة . وهذا ما يخالف ما أراده الحق سبحانه وتعالى للخلق ، فقد جعل الله عز وجل الإنسان خليفة له في الأرض ليصلح لا ليفسد ، وليزيد الصالح صلاحاً ، ولا تتعاند حركة الفرد مع غيره؛ لأن كل إنسان هو خليفة لله ، وما دمنا كلنا خلفاء لله تعالى في الأرض . فلماذا لا نجعل حركاتنا في الحياة متساندة غير متعاندة؟
وعلى سبيل المثال : إن أراد إنسان أن يخدم نفسه ومن حوله بحفر بئر ، هنا يجب أن يتعاون معه جميع من سوف يستفيدون من البئر؛ فمجموعة تحفر ، ومجموعة تحمل التراب بعيداً ، ليخرج الماء ويستفيد منه الجميع ، لكن أن يتسلل إنسان ليردم البئر ، فهذا يجعل حركة الحياة متعاندة لا متساندة .
وقد نزل المنهج من الله عز وجل ليجعل حركة الحياة متساندة؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .
والنداء هنا من الله للمؤمنين فقط ، فإذا قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لما آمنتم به؛ فهو لم يطلب أن تستجيب لمن لم تؤمن به ، بل يطلب منك الاستجابة إذا كنت قد دخلت في حظيرة الإيمان بالله ، واهتديت إلى ذلك بعقلك ، وبالأدلة الكونية واقتنعت بذلك ، وصرت تؤمن أنه إذا طلب منك شيئاً فهو لا يطلب منك عبثاً؛ بل طلب منك لأنك آمنت به تعالى إلهاً ، وربّاً ، وخالقاً ، ورازقاً ، وحكيماً ، وعادلاً .
حين يأمرك من له هذه الصفات ، فمن الواجب عليك أن تستجيب لما يدعوك إليه . ولله المثل

الأعلى؛ نجد في حياتنا الأب والأم يراعيان المصالح القريبة للغلام ، ويأمره الأب قائلا :
اسمع الكلام لأني والدك الذي يتعب من أجل أن تنعم أنت .

وتضيف الأم قائلة له : اسمع كلام والدك ، فليس غريباً عنك ، بل لك به صلة وهو ليس عدوّاً لك ، وتجربته معك أنه نافع لك ويحب لك الخير ، هنا يستجيب الابن . وكلنا عيال الله ، فإذا ما قال الله : يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول المبلغ عن الله لأنه سيدعوكم لما يحييكم فعلينا أن نستجيب للدعوة .
الداعي – إذن – هو الله تعالى وقد سبقت نعمه عليك قبل أن يكلفك ، وهو سبحانه قد أرسل رسولاً مؤيداً بمعجزة لا يستطيع واحد أن يأتي بها ، ويدعو كل إنسان إلى ما فيه الخير ، ولا يمنع الإنسان من الاستجابة لهذا الدعاء إلا أن يكون غبيا .
ونلحظ في حياتنا اليومية أن الإنسان المريض ، المصاب في أعز وأثمن شيء عنده وهو عافيته وصحته ، وهو يحاول التماس الشفاء من هذا المرض ويسأل عن الطبيب المتخصص فيما يشكو منه ، وهناك لكل جزء من الجسم طبيب متخصص ، فإذا كان له علم بالأطباء فهو يذهب إلى الطبيب المعين ، وإن لم يكن له علم فهو يسأل إلى أن يعرف الطبيب المناسب ، وبذلك يكون قد أدى مهمة العقل في الوصول إلى من يأمنه على صحته . فإذا ما ذهب إلى الطبيب وشخص له الداء وكتب الدواء ، في هذه اللحظة لن يقول المريض : أنا لا أشرب الدواء إلا إن أقنعتني بحكمته وفائدته وماذا سيفعل في جسمي؛ لأن الطبيب قد يقول للمريض : إن أردت أن تعرف حكمة هذا الدواء ، اذهب إلى كلية الطب لتتعلم مثلما تعلمت . وطبعاً لن يفعل مريض ذلك؛ لأن المسألة متعلقة بعافيته ، وهو سيذهب إلى الصيدلية ويشتري الدواء ويسأل عن كيفية تناوله ، والمريض حين يفعل ذلك إنما يفعله لصالحه لا لصالح الطبيب أو الصيدلي .
والرسول صلى الله عليه وسلم حين يدعونا لما يحيينا به ، إنما يفعل ذلك لأن الله تعالى أوكل له البلاغ بالمنهج الذي يصلح حالنا ، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة ، بعد أن تأتي الروح في المادة ، يواجه الإنسان ظروف الحياة من بعد ذلك إلى الممات . وهذه حياة للمؤمن والكافر .
وقد يكون في الحياة منغصات وتمتلىء بالحركات المتعاندة ، وقد يمتلىء البيت الواحد بالخلافات بين الأولاد وبين الجيران ، ويقول الإنسان : هذه حياة صعبة وقاسية . والموت أحسن منها .
والشاعر يقول :
كفى بك داء أن ترى الموت شافياً ... وشاعر آخر يقول :
ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحِمام
والحِمام هو الموت ، وكأن الموت –كما يراه الشاعر – أخف من الحياة المليئة بالمنغصات . إذن فليس مجرد الحياة الأولى هو المطلوب ، بل المطلوب حياة خليفة يأتي في مجتمع خلفاء الله في

الأرض . وكل منا موكل بالتعاون وإصلاح المجال الذي يخصه . ولا يصح للوكلاء أن يتعاندوا مع بعضهم البعض ، بل عليهم أن يتفقوا؛ لأنهم وكلاء لواحد أحد .

كذلك خلف الله الإنسان ، خلفه خليفة له في الأرض وأنجب الخليفة خلفاء؛ ليؤدوا الخلافة بشكل متساند لا متعاند .
إننا – على سبيل المثال – حين نرغب في تفصيل جلباب واحد ، نجد الفلاح يزرع القطن ، والغزّال يغزله ، والنسّاج ينسجه ، ومن بعد ذلك نشتريه لنذهب به إلى الخيّاط الذي يأخذ المقاسات المناسبة للجسم ، ثم يقوم بحياكة الجلباب على آلة اشتراها بعد أن صنعها آخرون .
إذن فجلباب واحد يحتاج إلى تعاون بين كثير من البشر ، هكذا تتعاضد الحياة .
وإذا نظرنا إلى العالم الذي نحيا فيه نجده مليئاً بالتعب ، خصوصاً الأمم المتخلفة ، وأيضاً نجد التعب في الأمم المتقدمة؛ لأننا نجد صعاليك من أية دولة يصعدون إلى طائرة تتبع دولة كبرى ويهددون بتفجير الطائرة بمن فيها ويفرضون الشروط ، وَيُزِلُّون الدولة الكبرى .
إذن فالحياة حتى في الدول الراقية متعبة .
وعلى سبيل المثال : الحروب التي قامت في منطقتنا منذ عام **1948** مع إسرائيل واستمرت كل هذه المدة الطويلة ، ثم الحرب الأهلية في لبنان ، ثم الحرب التي دارت بين العراق وإيران؛ هذه الحروب تكلفت المليارات التي لو استخدمت في وجه آخر لرفعت من شأن تقدم بلادنا .
إذن الذي يتعب العالم هو الحركة المتعاندة ، والحق سبحانه وتعالى أنزل لنا المنهج القويم ليجعل حركة حياتنا متساندة . فإن اتبعنا المنهج صرنا نأخذ الأوامر من إله واحد ، وصار كل منا مكلفاً بالتعاون مع غيره ، وهذا لن يحدث إلا إذا استجبنا لما يدعونا الله تشريعاً والرسول بلاغاً ، وبهذا تتساند الحياة وتصبح حياة لها طعم . وينطبق عليها قول الحق تبارك وتعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل : **97**] .
أمَّا من يحيا بغير منهج فتكون حالته كما يبينها قول الله تعالى : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى } [طه : **124**] .
وعلى هذا : فالعقاب على عدم اتباع المنهج الإلهي لا يتأخر إلى يوم القيامة ، ولكن الحياة في الدنيا تكون مرهقة ، والمعيشة ضنكا .
إذن إياكم أن تفهموا أن المنهج الديني لله غايته الآخرة فقط ، لا . بل إن اتباع المنهج الديني لله جزاؤه في الآخرة ، وأما ثمرته ففي الدنيا . فمن يوفق في هذه الدنيا ، وحركته متساندة مع غيره ، يعطي له الله الجزاء في الحياة المستريحة في الدنيا بالإضافة إلى جزاء الآخرة . وهكذا نفهم أن موضوع الدين هو الدنيا ، أما الآخرة فهي جزاء على هذا الاختبار الدنيوي .

وقوله سبحانه وتعالى :
{ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .
أي يعطيكم منهجاً من إله واحد؛ لا يعود بالخير عليه ولا على المبلغ عنه وهو الرسول ، وإنما يعود بالخير عليكم أنتم ، وتلك هي حيثيات الاستجابة ، ومن لا يستجيب لهذه فهو الأحمق .
{ استجيبوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .

إذن فالخير يأتي من أمر إله واحد؛ فلا يجعل كل منا إلهه هواه ، حتى لا تتعدد الأهواء : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ } [المؤمنون : 71] .
ولذلك لا يتعرض التشريع من الله سبحانه وتعالى إلا ما للأهواء فيه مدخل ، أمَّا الشيء الذي ليس للأهواء فيه مدخل فهو يترك الإنسان ليواجهه بملكاته التي خلقها الله له ، والشرع يتدخل فقط فيما يمكن أن يخضع للهوى ، أما الأمور التي لا تخضع للهوى فألد الأعداء يتفقون فيها .
والحياة الآن فيها موجة ارتقاء طموحي علمي ، وهذا الطموح العلمي نشأ عن التجربة في المعمل حيث يجلس العلماء الوقت الطويل ليخترعوا ويطوروا ، مثال ذلك : « أديسون » الذي قضى وقتاً طويلاً ليخترع المصباح الكهربي ، وغيره من العلماء طوروا مخترعاته وجاءوا باختراعات جديدة ، ولم ندر عنهم شيئاً إلا أننا نفاجأ بمخترع قد أتى منهم ، والعالِمُ من هؤلاء تجده أشعث أغبر ، لا يفكر في العناية بحسن مظهره وقد لا يأكل ولا يشرب ، ولا تدري أنت به إلا إذا الثمرة من عمله واختراعه جاءت ، ويقال : فلان اخترع الشيء « الفلاني » . وتنتفع أنت بما اخترع رغم أنك لم تَشْقَ شقاءَه حين أخذت الخير الناتج منه .
ونرى المعسكرات المتضادة في عالمنا المعاصر تحاول أن تسرق تجارب غيرها في العلوم ، وهذه المعسكرات تختلف فقط في الأهواء ، فذلك شيوعي ، وآخر رأسمالي ، وثالث وجودي . الخلاف – إذن – في الأهواء غير المحكومة بالمادة أو بالتجربة . ومن المؤسف حقًا أن ما اتفقنا عليه كالعلوم المادية الكونية التي هي وليدة التجربة ، هذه المخترعات نستعملها في فرض ما نختلف فيه ، وهكذا تجد أن التعب في العالم إنما يأتي من الطموح الأهوائي لا الطموح المادي العلمي؛ لذلك يتدخل الشرع في الأهواء ويحسمها؛ ليكون كل منا عبداً لله تعالى ، وكل منَّا حر أمام غيره .

والرسول صلى الله عليه وسلم بمنهجه الذي جاء به من الله يدعو الحيّ – صاحب الحس والحركة – إلى أن تكون حياته حياة طيبة ليس فيها ضنك؛ هذا إن نظرنا إلى كيفية الحياة . فإن قسنا الحياة بعمر الآخرة ، فهي لا تساوي إلا القليل؛ لأن ما لا نختلف فيه كأفراد في الخلافة يجب أن يكون غاية للخلفاء ، فربنا قد يخلق واحدا ليموت في بطن أمه ، وواحدا يموت بعد ساعة من مولده ، وثالثا يموت بعد شهر من ميلاده ، ومنا من يعمر مائة سنة ، ولا يمكن أن يكونَ الأمر

المُخْتَلَف فيه غاية للمتحدين في الجنس ، فالغاية أن نعمر الدنيا بالعمل الصالح لنسعد بها ، ونعبر منها إلى ما هو أجمل وهي الآخرة ، ومأمون فيها أننا لا نموت ، ومأمون فيها أننا لن نتعب أبداً ، لأنه كلما اشتهيت شيئاً ستجده أمامك . وهذه قمة الحياة الطيبة .

وعلى فرض أنك ستتعب في سبيل منهج الله حين تبلغه للناس ، دفاعاً عنه بالحرب والقتال وبالتضحية بالأموال ، فأنت رابح لحياة طيبة أبدية ، ويبين القرآن الكريم لنا هذه الحياة في قول الحق تبارك وتعالى :

{ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

فالدار الآخرة ليست مجرد حياة ، بل أكبر من حياة؛ لأن حياتك الدنيا موقوتة ومحددة ، ونعيمك فيها على قدر إمكانياتك وتصوراتك ، ولكن الحياة الأخرى ليست موقوته بل ممتدة ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات خالقك المنعم القادر . وهكذا نتأكد أنه صلى الله عليه وسلم قد دعانا إلى ما يحيينا .

والحق سبحانه وتعالى حينما دعانا إلى الحياة الطيبة سمى المعيشة في منهجه حياة ، لأنها حياة سعيدة ، وتسلم إلى حياة خالدة . ولذلك سمى الحياة الأولى التي تأتي إذا نفخ الله الروح في المادة ، وقال عن آدم وكل بني آدم : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي } [ص : 72] .

وأعطى الله سبحانه وتعالى هذه الحياة للمؤمن والكافر . وسمى سبحانه وتعالى ما يحمل المنهج للناس وهو القرآن روحاً : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } [الشورى : 52] .

والمنهج - إذن - روح من أمر الله سبحانه وتعالى نزل به الروح الأمين ، وهذه هي الحياة المطلوبة لله سعادة ، وتسانداً ، وخلوداً في الجنة . ولذلك أنزل المنهج ليمنع التعاند والتعارض والتضاد بين المؤمنين ، وليحمي كل مؤمن نفسه من الزلل ، فيقاوم المعصية وهي صغيرة قبل أن تكبر وتستفحل .

ثم يقول المولى سبحانه وتعالى :

{ وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } [الأنفال : 24] .

وماذا يعني قوله تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ } ؟ .

وأقول : إياك أن تظن أن الكافر - على سبيل المثال - يعلن أن قلبه قد انعقد على الكفر؛ لأنه قد يجرب أن يخلع نفسه من هواه وينظر إلى حقيقة الإيمان فيقتنع به ، ولن يسيطر على هواه ، وقد انقلب أكثر من قلب شرير إلى قلب خير ، مثل صناديد قريش من الكفار الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كانت قلوبهم معقودة على الشر ، لكنها لم تستمر على الشر ، بل حال الحق بين كل إمرىء منهم وقلبه .

والقلب هو محل التمنيات والأماني ، وأول الأماني أن تطول حياة الإنسان ، خصوصاً وهو يرى

أن من في مثل عمره يموت ، ومن في مثل عمر والده يموت . وأن جده يموت ، ولأن الإنسان يحب أن تطول حياته ، يرغب في أن ينجب ولداً ليمتد ذكره ، إنه يريد الحياة ولو من غيره ، ما دام منسوباً له .

كما أن الإنسان يحب الآمال ، ويبني في أحلامه الكثير مما يريد أن يحققه ، والواجب عليه ألاَّ ينسى أن لهذا الكون إلهاً قادراً ، قد ينهى حياة أي منا رغم أن كل إنسان يحلم أن تطول حياته ، وقد يقف بين الإنسان وبين آماله التي يريد أن يحققها ، ولا أحد منا معزول عن خالقه ، وكل منا في يد الخالق ، وسبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ثم يترك النواميس لتعمل دون إرادته ، بل كل النواميس في يده .

وما دام الحق يحول بين المرء وتمنيات قلبه؛ استطالة حياة ، وتحقيق آمال ، وستراً للموت وأسبابه وزمنه ، كل ذلك لنتجه دائماً إلى فعل الخير لنحيا في ضوء المنهج وأنت لا تعرف متى ينتهي الأجل ، وإلى الله المصير .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ . . . } .

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (25)

ويأمرنا الحق عز وجل أن نتقي الفتن من بدئها قبل أن يستفحل شأنها . وأن يتجنب الإنسان المعصية ، وأن يضرب المجتمع على يد أي انحراف ، فمن يسرق الآن الخزائن قد بدأ أولا بسرقة اليسير ، سرق من أخيه أو من البيت ثم من الجيران ثم من البنك . ولو أن كل انحراف عوجل بالضرب على يد من فعله وهو صغير لما كبر المنحرف والانحراف . ولتم وأد الجرائم الكبيرة في مهدها؛ لأن من ارتكب الصغيرة قد عوقب . وإياكم أن يقول أحدكم ما دام مثل هذا الانحراف لا يمسني فليس لي به شأن؛ لأن الذي اجترأ على مثلك ، من السهل أن يجترىء عليك . ونحن نعرف جميعاً قصة الثيران الثلاثة؛ الأحمر والأبيض والأسود ، فقد هاجم الأسد الثور الأبيض فأكله ، ولم يدافع عنه الثور الأحمر أو الأسود . وهاجم الأسد الثور الأحمر بعد ذلك فقال الثور الأسود لنفسه : ما دام الأسد لم يأكلني فلا دخل لي بهذا الأمر . وجاء الأسد إلى الثور الأسود ، بينما هو يقترب منه قال : لقد أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض .

إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

{ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً } [الأنفال : 25] .

هذا القول يدلنا على أن اتقاء الفتنة يبدأ من الضرب على أيدي صانع الفتنة وهي في بدايتها .

وأضرب هذا المثل ليبقى في الذاكرة دائما؛ إن الأم التي قسمت الأكل بما فيه من لحم وخضر وفاكهة على الأبناء ، فأكل أحد الأبناء نصيبه ، ثم احتفظت الأم ببقية أنصبة إخوته في الثلاجة ، ومن بعد ذلك لاحظت الأم أن الابن الذي أكل نصيبه يأكل نصيب أحد إخوته من خلف

ظهرها ودون استئذانها ، وهنا يجب أن تؤنبه وتعاقبه على مثل هذا الفعل حتى لا يتمادى في ذلك .

كذلك إن دخل الابن بلعبة أو بشيء يفوق قدرة مصروف يده على الشراء ، فعلى الأب أن يضرب على يد الابن حتى لا يتمادى الولد في إفساد نفسه . ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى جعل الدية في القتل الخطأ على العاقلة وهم العصبة أي قرابة القاتل من جهة أبيه ، ويطلق عليهم العائلة – أي عائلة القاتل – لأن أفراد العائلة حين يرون أن كلاً منهم سوف يصيبه جزء من الغرم ، فإنه يضرب على يد من يتمادى في إرهاب الغير وتهديدهم إن كان من عائلته .

ولذلك ترى أن الناس إذا رأوا الظالم ثم لم يضربوا على يده فإن الله يعمهم بغضب من عنده؛ لأن الظالم يتمادى في ظلمه وطغيانه ويعربد في الآخرين . فيستشري الظلم في المجتمع ويحق على الجميع عقاب الله . ولذلك نجد سيدنا أبا بكر رضوان الله عليه – يقول ، يبين لنا ذلك فيما رواه عنه الإمام أحمد .

فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس أنتم تقرأون هذه الآية :

{ يأأيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم } وإنكم تضعونها على غير موضعها .

وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله – عز وجل – أن يعمهم بعقابه » .

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الطريق الفاصل في القضايا العقدية والحكمية ويأتي بمثال واضح يتفق عليه الكل ، فيقول صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه النعمان بن بشير :

« مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها . فكان الذين في أسفلها إذا استقوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم ، فقالوا لو أنّا خرقنا خرقاً في نصيبنا ولم نؤذ منْ فَوْقنا . فإن يَتْركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونَجَوْا جميعا » .

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب لنا المثل بقوم ركبوا سفينة ، وأجروا فيما بينهم القرعة لينقسموا إلى جماعتين؛ جماعة تجلس في النصف الأعلى من السفينة أي على سطحها ، وجماعة تسكن في بطن السفينة ، حسب ما تأتي به قسمة القرعة وهي ما تسمى بالاستهام .

وهذا يدلنا على أنهم أناس طيبون ، ولا توجد فيهم جماعة قوية تفرض شيئاً على جماعة ضعيفة .

وكان الذين يسكنون أسفل السفينة حين يريدون الماء يصعدون إلى أعلى لينزلوا الأواني من فوق سطح السفينة إلى النهر .

ولو تُرك الذين في أسفل السفينة لتنفيذ رغبتهم في خرق السفينة ليأخذوا الماء من النهر لغرقت السفينة ، لكن إن ضرب الذين يعيشون فوق السفينة على يد من يريدون خرقها لنجوا جميعاً .
وهكذا يكون فهمنا لقول الحق تبارك وتعالى :
{ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً واعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : 25] .
ولسائل أن يسأل ويقول : إن العقاب يقع هنا على الظالم والمظلوم ، والظالم هو الذي يستحق العقاب على ما وقع منه من ظلم ، ولكن ما ذنب المظلوم؟ والجواب : أن المظلوم قد كان في مكنته أن يرد الظلم لكنه سكت عن ذلك فاستحق أن يشمله العقاب .
وإن لم تنتبه المجتمعات إلى مقاومة الفتن ، أنزل الله بها العقاب ، وعقاب الحق تبارك وتعالى أشد من عقاب الخلق .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { يأيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ . . . }

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (26)

وبعد كل ما حدث من وقائع ، يذكّر الحق عز وجل هنا صاحب الحال الأعلى بالماضي الأدنى ، ليثبت له : أن الذي نقلك من أدنى حياة إلى أعلى حياة ، موجود ولا يزال موجوداً ، وما دام قد شاءت قدرته أن ينقلك من الأدنى للأعلى ، فقدرته سبحانه وتعالى – إن شاءت – نقلتك من الأعلى إلى الأدنى . فإذا كنت في حال أعلى؛ إياك أن تنسى أنك كنت في حال أدنى . وعليك أن تعترف بجميل عطاء الخالق المنعم المتفضل وتقول : إن ربي القوي العظيم هو الذي وهبني ورفع مكانتي ولم أفعل ذلك بمهارتي ، وحتى إن كنت قد ارتقيت بالمهارة ، فالمهارة عطاء منه سبحانه وتعالى ، لذلك يقول المولى عز وجل هنا :
{ واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض } .
أي اجعلوا هذا الأمر على بالكم دائما وإياكم أن تخافوا أية قوة مهما بلغت هذه القوة ، ولكن أعدوا لكل قوة ما يناسبها من أسلوب المواجهة الكثير؛ لأنكم حملة دعوة ، ومن يحمل الدعوة قد يعاني من المصاعب والمتاعب والمشقات؛ لكن يجب ألاَّ يفت ذلك في عضدكم .
لقد كان المسلمون الأوائل قلة تعاني من إذلال واضطهاد الكافرين الأقوياء . وكان المسلم من الأوائل لا يجد أحياناً من يحميه من اضطهاد المتجبرين ، فيلجأ إلى كافر يتوسم فيه الرحمة ويقول له : أجرني من إخوانك الكفر . وحين بلغ الضعف بالمسلمين الأوائل أشده ، ولم يجدوا حامياً لهم من ظلم وتعذيب الكفار ، عرض عليهم صلى الله عليه وسلم أن يهاجروا إلى الحبشة؛ لأنَّ فيها

ملكاً لا يظلم عنده أحد . وكانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من قوة الخصوم ، ولم يظل حال المسلمين كذلك ، بل نصرهم الله لا بقوتهم ، ولكنه سبحانه وتعالى شاء لهم أن يأخذوا بأسباب منهجه فانتصروا وعلت كلمة الله عز وجل .

إننا نتخذ من هذه المسألة حجة ومثلاً نواجه به من يشككون في قدرة المسلمين على إدارة الحياة والارتقاء بها؛ لأن العالم كله قد شهد ألف عام كان المسلمون فيها هم قادة العلم والفكر والابتكار ، وكانت غالبية الدول تخضع لحكم دولة الإسلام .

لقد سبق أن قلت : إن هارون الرشيد الخليفة المسلم بعث لشارلمان ملك فرنسا بهدية هي ساعة دقاقة بالماء؛ تم تصميمها بدقة عالية تفوق طاقة خيال الناس في فرنسا ، ولحظة أن شاهدوها في فرنسا ظنوا أن الشياطين هي التي تحركها؛ لأن التقدم العلمي والتطبيقي في بغداد في ذلك الوقت فاق كل التصور الأوروبي حيث كانوا يعيشون في تخلف علمي شديد .

لكن المسألة انعكست في زماننا هذا وصرنا نعاني من تخلف في الأخذ بأسباب الله للاستفادة بالعلم ، فحين جاء « الراديو » وجاء « التليفزيون » إلى بعض البلاد الإسلامية ، وجدنا من يقول عن الراديو : إن بداخله شيطاناً يتكلم ويلوّن ويغير من صوته .

ولم يغير أصحاب هذا الرأي اندهاشهم ورفضهم لوجدوا محطة الإذاعة وأجهزة الاستقبال في بلادهم إلا بعد أن قلنا لهم : حرّكوا مؤشر الراديو وستجدونه يذيع القرآن الكريم ، وحين فعلوا ذلك استمعوا إلى صوت الشيخ محمد رفعت ، وكان يقرأ في سورة مريم ، وقلنا لأصحاب هذا الرأي : إن الشيطان لا يقرأ القرآن ، بل إن الإذاعة وأجهزة الاستقبال هي اختراعات علمية توصل إليها من أخذوا بأسباب الله في العلم التطبيقي .

وحين جاء اختراع « الميكروفون » وطالب الكثير بوضعه في المساجد وقت صلاة الجمعة ، وجدنا البعض يرفض دخول الميكروفون إلى المسجد ، متجاهلاً أن هناك مساجد كبيرة يحتاج إسماع الناس فيها لخطبة الجمعة وجود أكثر من « ميكروفون » . وقلت لواحد من هؤلاء : ليصلح الله حالك وبالك ، لماذا ترتدي نظارة طبية وتضعها على عينيك؟ أجابني : لأن نظري ضعيف والنظارة تكبر لي الكتابة . فقلت : وهكذا « الميكروفون » يكبر الصوت ليسمعه من يجلس بعيداً عن المنبر والإمام ، أثناء صلاة الجماعة وصلاة الجمعة .

فإذا كان بعض من الدول الإسلامية قد وصل بها الحال إلى هذا الحد من العجز في تقبل العلم ، فهذا تنبيه لنا لأن نعيد الأخذ بأسباب الله في الكون ، ولنطور العلوم ، ونخدم بها منهج الله ، بدلاً من أن نظل متخلفين رغم أن منهج الله يحضنا على الأخذ بالأسباب الموجودة في الكون ، وكلنا يعلم أن كون الله في يده والنواميس في يده ، يسخرها سبحانه وتعالى لمن يأخذ بالأسباب .

ويذكرنا الحق تبارك وتعالى بقوله :

{ واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس } [الأنفال : 26]
.

والخطف هو أخذ بسرعة ، أي أن يأخذ إنسان أو جماعة غير الحق ، وعرفنا من قبل أنَّ أخذ غير الحق له صُوَر متعددة ، والمثال : نجد تاجراً يعرض أيْ يفرش بضاعته من تمر أو تفاح ، ويأتي أحد المارة لينظر إلى البضاعة المعروضة والمفروشة وليس معه نُقُود يشتري بها فيخطف تفاحة أو بعضاً من التمر ويجري بسرعة ، ويحاول صاحب البضاعة أن يلحق به وحاول اللص أن يتخلص ويفلت منه؛ فهذا اسمه « غصب » ، أما السرقة ، فهي أخذ المال خفيةً من حرز وصاحبه غير موجود . ويختلف كل ذلك عن الاختلاس؛ لأن الاختلاس هو أن تأخذ مما في حوزتك وأنت مأمون عليه؛ إذن أخذ غير الحق له عدة صور هي : خطف ، أو غصب ، أو سرقة أو اختلاس .
والحق تبارك وتعالى يقول :
{ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ } [الأنفال : 26] .
أي يأخذونكم دون أن يدافع عنكم أحد . وها أنتم أولاء قد صرتم أقوياء باستقرار الإيمان في قلوبكم ، وبمدد من الله عز وجل؛ لذلك يجب أن تذكروه دائماً امتناناً وتقديرا وعبادة ، وشكراً ، وخشوعاً .

فهو سبحانه وتعالى قد أعطاكم الاستقرار في المأوى الجديد – المدينة المنورة – ورحب بكم مجتمع الإيمان في المدينة المنورة .
وعندما دخلتم إلى المدينة أقمتم المسجد وهو سمة استمرار النور من السماء هداية للأرض . كان هذا هو أول عمل لكم ولم تنشغلوا من قبله بأي عمل آخر . واعتبركم الأنصارُ إخوةً ، فصرتم أقوياء بأخوة الإيمان ، وصاروا هم أيضا أقوياء بهذه الأخوة بعد أن كان اليهود هناك يستفتحون عليهم بالرسول القادم ، جاء الرسول وكان في نصرة المستضعفين وصار منهجه قوة لكم وللأنصار ، وكان المهاجر منكم يجد الدعوة من الأنصارى إلى بيته ، لا للطعام ولا للشراب فقط ، بل للإقامة أيضاً .
ثم حدث الملحظ العجيب ، فالإنسان إذا أنعم الله عليه بنعم شتى ، فقد يحب أن يمتع صاحبه من هذه النعم ، إلا المرأة ، فالزوج يغار على نسائه . لكن الأنصاري من هؤلاء إن كان متزوجاً من اثنين ، يقول للمهاجر : لقد جئت من مكة إلى المدينة دون أهلك . فانظر إلى زوجتيَّ ، فأيهما تعجبك أطلقها وتتزوجها بعد انقضاء عدتها ، هذا هو الملظ العجيب ، وهي مسألة لا يمكن أن تمر على خيال العربي أبداً .
ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية الكريمة بقوله :
{ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الأنفال : 26]

وقد رزقهم المولى سبحانه وتعالى وأمدهم بالخيرات والأسلحة والنفائس وهزموا صناديد قريش ، ولم تكن الغنائم تحل لأحد من الأنبياء من قبل ، لكنها أحلت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فالذي صنع لكم كل ذلك حقيق أن يُذكر فلا ينسى وأن يشكر دائما .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (27)

والخيانة مقابلها الأمانة ، والأمانة هي الشيء يستودعه واحد عند آخر بدون وثيقة عليه ، ولا شهود . بل الأمر متروك إلى من عنده الأمانة ، إن شاء أقر بها وإن شاء أنكرها؛ لأن الأمانة ليس عليها صك ولا عليها شهود . ولا عليها « كمبيالة » ، وغير محكومة بأي شيء إلا بذمة من ائْتُمن ، والحق سبحانه تعالى يقول : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السموات والأرض والجبال فَأبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

وكل الأجناس التي في الوجود ودون الإنسان من حيوان ونبات وجماد ، كلها مُسخرة ، ولا تملك الاختيار في أن تفعل أو لا تفعل . الشمس ليس لها اختيار في أن تقول : سأشرق اليوم على هؤلاء الناس ، أو لن أشرق اليوم . والهواء لا يملك إرادة الاختيار ، كل الكائنات التي أوجدها الله في هذا الوجود ما عدا الإنسان مسخرة للمؤمن وللكافر . ورفضت هذه الكائنات أن تحمل أمانة الاختيار ، لكن الإنسان قال : أنا لي عقل يختار بين البديلات وأقبل تحمل الأمانة وسوف أؤدي كل مطلوبات الأمانة لأني أقدر على الاختيار .

لكن الإنسان ادّعى لنفسه القدرة على أداء الأمانة . وكأنه قد وثق من نفسه أنه سيؤديها ، وهو لا يعلم بأي شيء حكم ذلك الحكم على أمر غيبي مستقبلي .

صحيح أنه ساعة التحمل كان في نيته أن يؤدي الأمانة ، لكن ماذا عن ساعة الأداء؟ . وأنت لا تعرف ماذا تجيء به الأحداث والأغيار معك ، فقد يأتي لك ظرف تضطر أن تبدد فيه الأمانة؛ لذلك تجد العاقل هو من يقول : ابعد عني أمانة الاختيار ، لأني لا أعلم ماذا ماذا ستفعل بي الأغيار لحظة الأداء . وكل ما دون الإنسان أعلن عدم تحمل الأمانة وقبل التسخير ، أما الإنسان فأعلن قبول الأمانة وأنه سيؤديها . ووصفه القرآن الكريم بقوله : { إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

« ظلوماً » لنفسه لأنه حمّل نفسه شيئاً ليس في يده . و « جهولاً » لأنه قاس وقت التحمل ولم يذكر وقت الأداء . فلم يضع في الاعتبار ما سوف تفعل به الأغيار .

ويقول الحق عز وجل هنا :

{ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .

وكثير من التصرفات السلوكية للإنسان تكون مستترة عن أعين الخلق؛ لأن أعين الخلق حين ترى

جريمة ما ، فهي تستدعي رجال القانون ليأخذوا حق المجتمع من المجرم ، لكن ماذا عن الجرائم المستترة؟ .

نحن نعلم أن كل جريمة تطفو وتظهر واضحة إنما توجد تحتها جرائم مختفية؛ لأن الذي يقتل إنما يخفي جرائم أخرى؛ مثل شرائه السلاح بدون ترخيص ، وإن كان لا يملك نقوداً فقد يسرق ليشتري السلاح ، ثم يقوم بتجنيد غيره لمساعدته في القتل ، وكل ذلك جرائم مستترة ، وبالتأكيد هناك سلوكيات باطنة يأتي بعدها السلوك المقلق للمجتمع وهو الجريمة الظاهرة ، وقصارى قانون البشر أن يحرس المجتمع من الجرائم الظاهرة فقط ، لكن عين القانون لا ترى الجرائم الباطنة والخفية ، أما عين الدين فتختلف ، إنها ترشد الأعماق إلى الصواب؛ لأن الدين أمانة وضعها الحق – الذي خلق الخلق – في ضمير الإنسان .

فإياك أن تخون الأمانة في الأمور السرية التي لا يعرفها أحد سوى الله؛ لأن الأمور التي يعرفها الناس يمكن أن تدافع عنها أمام هؤلاء الناس ، بخلاف الأمور الباطنة وهي المهمة؛ لأنها هي التي تسيطر على إيجاد السلوك .

فإياك أن تخون الله والرسول ، وتخون الأمانة التي وضعت لك . ولا حجة لك – في ذلك – إلا اختيارك . إن شئت فعلت وإن شئت تركت ، وعلى الإنسان ألا يخون الأمانة التي بينه وبين ربه وإذا لم تتوافر الحراسة الإيمانية من ضميره على الأعمال الباطنة قد ينحرف؛ لأن كل جريمة ظاهرة إنما تتم بتبييت أمرٍ باطن .

وما دمت قد آمنت بالله تعالى ربّا بمحض اختيارك ، فالتزم بالأشياء التي جاء لك بها من آمنت به ، وأنت تعلم : أن الإيمان هو علة كل تكليف ، وعلى سبيل المثال؛ أنت تصلي خمسة فروض لأن المشرع أمرك بذلك؛ تصلي في الصبح ركعتين ، وفي الظهر أربع ركعات ، وفي العصر أربع ركعات ، وثلاث ركعات في المغرب ، وأربع ركعات في العشاء؛ لأن المشرع وهو المولى سبحانه وتعالى أمرك بذلك . وأنت تصوم لأن الله أمرك أن تصوم ، فإن أدركت من بعد الصيام أن فيه منافع لك ، فهذا موضوع آخر ، ومع ذلك تظل علة الصيام أن الله أمرك به ، وهكذا تكون علة كل حكم هي الإيمان بمن حكم بهذا الحكم .

{ يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول } [الأنفال : 27] .

وما الخيانة؟ . إن مادة الخيانة كلها الانتقاص؛ وضده التمام ، والكمال ، والوفاء . ويقابل كل ذلك الاختيان والغدر . فإذا كان الله يقول لنا : لا تخونوا الله والرسول ، فعلينا أن نلتزم؛ لأن التشريع وصلنا من الله بواسطة الرسول ، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله؛ لأن الله لم يخاطبنا مباشرة ، بل خاطب رسولاً اصطفاه من خلقه وأيده بمعجزة . وكل بلاغ وصلنا إنما كان بواسطة الرسول .

{ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول } .
فلا تخن الله فيما جاء في القرآن ، وجاء من الرسول المفوَّض من الله بأن يشرع . وتشريع الرسول واتباعه جاء في قوله تعالى : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا } [الحشر : 7] .
فلله أمانة فيما نص عليها قرآناً ، وللرسول أمانة فيما لم ينص عليه القرآن إلا بتفويض قائل القرآن للرسول بأن يشرع ، فإن أطعت هذا الرسول ، فقد أطعت الله .
وعرفنا أن الاختيانَ هو الانتقاص ، ومعنى الانتقاص هو الوقوف بعيداً عن الكمال والإتمام المطلوب . والإنسان حين آمن يصبح للإيمان في النفس أمانة .

فأنت قد آمنت أنه لا إله إلا الله ، وأمانة هذا الإيمان تقتضيك ألاَّ تجعل لمخلوق ولاية عليك ولا ولاء له إلا أن يكون هذا الولاء نابعاً من اتباع منهج الله تعالى . وهذه هي أمانة الشهادة ، أما أمانة الرسالة فهي الحرص على تطبيق كل ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه قدر الاستطاعة .
إذن فالأمانة مع الله تعالى أن تلتزم بكلمة الإيمان في أنه لا إله إلا الله ، وإياك أن تعتقد في أن أحدا يمكنه أن يتصرف فيك ، أو يملك لك ضرّاً أو نفعاً ، أو أن مصالحك ممكن أن تقضى بعيداً عن الله ، فكل شيء بيد الله سبحانه صاحب الحول والطول ولا إله إلا الله ، وإياك أن تفهم أن حكماً يجيء لك عن غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنك إن خرجت عن هذا الإطار تكون إنساناً لم يؤد أمانة الله ولا أمانة الرسول .
والقمة في الأمانة هي إيمان بالله ، وإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم . والله قد أمر بأحكام وحين تقبلها فلها أمانة ، وأمانتها هي أداؤها من غير نقص في شيء سواء كان عاماً أو خاصاً ، ولو في الحديث يجري أمامك ، وتمتد أمانة الإيمان إلى كل شيء ، مثل أمانة أي مجلس توجد فيه ، فلا يحق لك ان تنقل أسرار غيرك إلى هذا المجلس أو أسرار المجلس إلى آخرين .
ونعرف رجلاً من قادة العرب هو زياد بن أبيه وكان شديد الحزم ، فوشى واش بهمام بن عبد الله السلولي إلى زياد ، وتوقع القوم عقاباً صارماً بهمام؛ لأن زياداً كان يأخذ بالظن ، لكن الله ألهم همَّاماً كلمة ظلت دستوراً يطبق ، وحين استدعى زياد هماماً ، قال زياد : بلغني أنك هجوتني .
قال همام : كلا أصلحك الله . ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل . فقال : إن هذا الرجل – وأخرج الرجل من الخباء – أخبرني . فنظر همام إليه فوجده جليساً وصديقاً ومؤنساً ، فلما رآه كذلك أقبل عليه وقال : أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت ، وإما قلت قولاً بلا علم فأبت – رجعت – من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة الخيانة والإثم ، أي إما أنك خائن أو آثم ، فإن كنت قد ائتمنتك على كلمة نفست بها عن نفسي فأنت خائن ، وإن كنت اختلقتها عليّ فأنت كاذب ،

فأعجب زياد هذا المنطق ، وأقصى الواشي ولم يتقبل منه . ويقال إنه خلع همام الصلة والعطايا .
فكان همام حين يرى الواشي يقول له : هل لك في وشاية أخرى تغنيني؟!!
وفي سيرته صلى الله عليه وسلم وقائع حدثت في تاريخه حتى من بعض الصحابة ، وعلى سبيل المثال : نحن نعلم أنه حينما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، جعل عهداً بينه وبين اليهود ، فاستقام لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استقاموا للعهد ، فلما خالفوا هم العهد؛ أراد رسول الله أن يؤدبهم ، فأدبهم ، وكان أول ذلك في بني النضير وأوضح لهم أنه لن يقتلهم ، بل سيكتفي بإخراجهم من ديارهم وإبعادهم إلى الشام .

ثم حدثت خيانة من بني قريظة ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة من الزمن .
فبعثوا إلى رسول الله من يقول : يا رسول الله إن بني قريظة يريدون ان تصنع بهم ما صنعته مع بني النضير ، أي أن بني قريظة يعرضون ترك البلاد إلى الشام ، فرفض الرسول ذلك إلا بعد أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ ، وكان يحب بني قريظة وبينه وبينهم صلة ، وعرف بنو قريظة أن رسول الله يطمئن إلى حكم سعد بن معاذ فقالوا : لا ولكن أرسل لنا أولاً أبا لبابة ، وهذه كُنْيته ، أما اسمه فهو مروان بن عبد المنذر ، وكان ماله في يد اليهود يتاجرون له فيه ، أي أن بينه وبينهم صلةً مالية .
ذهب أبو لبابة إلى اليهود ، فاسْتَشاروه في الأمر متسائلين : أنرضى بحكم سعد بن معاذ؟ فماذا قال أبو لبابة؟ قال : إنه الذبح ، وأشار إلى حلقومه ، وبعد ذلك لام أبو لبابة نفسه وقال : والله ما جالت قدماي حتى تيقنت أني خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن انظروا إلى الإيمان ، ويقين الإيمان ، وترجيح أمر الآخرة على أمر الدنيا ، والنظر إلى أن افتضاح الإنسان في الدنيا أمر هين بالنسبة لافتضاحه في الآخره .
ذهب إلى سارية المسجد – أي عمود في وسط المسجد – على مرأى ومشهد من الناس ، وحكم على نفسه بأن يربط نفسه بالسارية بيده ، وظل لا يَطْعَم ولا يَشْرَب سبعة أيام ، حتى خارت قواه وغشي عليه وسقط ، فعطف الله عليه ، وأبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الله قد تاب عليه . فقالوا له : حل نفسك بنفسك لأنك أنت الذي ربطت نفسك ، فقال : والله لا أحلها حتى يحلني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحله من السارية .
لماذا فعل أبو لبابة ذلك بنفسه؟ لأنه شعر بأنه خان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه قال لليهود إنه الذبح .
وهناك صحابي آخر هو حاطب بن أبي بلتعة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جمع أمره لفتح مكة وأراد أن يستر مقدمه حتى تفاجأ قريش . وتكون المفاجأة سبباً في عدم تولد اللدد

وليتم الصلح . لذلك كتم الأمر ، وبعد ذلك جلس رسول الله بين صحابته وأعلمه الله أن حاطبا قد أرسل إلى قريش يخبرها . فانتدب علياً ومعه صحابيان وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يذهبوا إلى مكان حدَّده لهم في الطريق إلى مكة ليجدوا فتاةً معها كتاب إلى قريش ، فلما ذهبوا إلى المكان المحدد وجدوا الفتاة ، فقال لها الإمام عليّ : أخرجي ما معك ، فقالت : ليس معي شيء .

فمسك عليّ بن أبي طالب عقيصتها وأخرج الكتاب من المكان الذي تخبىء فيه أشياءها ، فوجد رسالة تحذير لقريش ، وعاد عليّ –كرّم الله وجهه – بالرسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل الرسول صلى الله عليه وسلم حاطبا : ما حملك على هذا يا حاطب؟
قال : والله يا رسول الله لقد علمت أن ذلك لا يضرك في شيء ، وأن الله ناصرك . . ناصرك ، ولكني أردت أن أتخذ لي يداً عند قريش ، لأنني رجل ضعيف ولا مال لي ولا أهل .
فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم أن هذا نوع من اختيان الرسول . ولكنْ عليك أن تعلم أن كل مخالفة لحكم قبلته من الله الذي آمنت به يعتبر خيانة للأمانة .
{ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنفال : 27] .
أي لا تخونوا الله والرسول في المنهج ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وأنتم تعلمون ، أي ألا يخون أحدكم قومه عن عمد ، ويؤخذ من هذا القول ثبوت المغفرة في حالة الخطأ والنسيان ، والممنوع أن تخون وأنت تعلم وتقصد ، لكن إن حدث أمر بسبب فلتة لسان ، فاعلم أن ربنا سبحانه وتعالى غفور رحيم ، وله فضل عظيم ، لا يأخذك بالسهو ، وأنتم تعلمون بالفطرة أن مثل هذا الفعل رذيلة لا يقبل عليها إنسان كريم ، ولو لم يكن متديناً ، وعليك أن تقيس الأمر بمقياس واضح هو : أتحب أن يفعل أحد معك نفس ما تفعله مع غيرك؟ . وهذا سؤال تكون إجابته دليل الفطرة . فإن عرفت أن الفطرة ترفض الفعل ولا تقبله ، فعليك ألا تفعله ، لأنه مناف لهذه الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها ، وعلى سبيل المثال : إن اللص لو تخيل نفسه مسروقاً لما رضي أن يسرق ، والمعتدي على العرض ، لو تخيل أن هناك من يعتدي على عرضه لما اقترف الاعتداء على عرض الغير بهدف تحقيق شهوة في النفس . وما لا ترضاه لنفسك يجب عليك ألا ترضاه لغيرك . أتحب أن يخونك أحد في حديث أو في أمانة؟ لا؛ لذلك عليك أن تقيس كل أمر لا من الطرف الآخر ، بل من طرفك أنت .
إذن فقول الحق تبارك وتعالى : { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي متعمدون ، غير ناسين أو ساهين ، أو جاء الأمر كفلتة لسان؛ لأنكم إذا كنتم تعلمون ، ففي ارتكاب هذه الأفعال خيانة والله ينهي عن ذلك فيقول :
{ يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله والرسول وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الأنفال : 27]

.

ونلحظ أن الخطاب هنا لجماعة المؤمنين ، وجاءت الأمانات أيضاً جماعة ، وأنت حين تُفصِّل الأمانات المجموعة على القوم المخاطبين بذلك ، تعلم أنَّ على كل إنسان تكليفاً محدوداً هو ألا يخون أمانته مثلما يقول الأستاذ للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم . فهذا أمر لجماعة التلاميذ بأن يخرج كل واحد قلمه .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { واعلموا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ }

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (28)

وإذا بحثنا عن علاقة هذه الآية بالآية السابقة عليها نجد أن العلاقة واضحة؛ لأن خيانة الله ، وخيانة الرسول ، وخيانة الأمانات إنما يكون لتحقيق شهوة أو نفع في النفس ، وعليك أن تقدر أنت على نفسك لأنك قد لا تقدر على غيرك ، ومثال ذلك : أنت قد لا تقدر على مطالب أولادك ، وقد لا يكفي دخلك لمطالبهم ، فهل يعني ذلك أن تأخذ من أمانة استودعها واحد عندك؟ لا .

هل يعني ذلك أن تخون في البيع والشراء لتحقيق مصلحة ما؟ لا .

هل تخون أمانات الناس من أجل مصالح أولادك أو لتصير غنيّاً؟ . لا .

وقد جاء الحق هنا بالأمرين ، والأولاد وأخبرنا أنهما فتنة ، والفتنة – كما علمنا من قبل – لا تذم ولا تمدح إلا بنتيجتها؛ فقد تكون ممدوحة إذا نجحت في الاختبار ، وتكون مذمومة حين ترسب في ذلك الاختبار المبين في تلك الآية الكريمة .

والمتتبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة؛ لذلك نجد من يتساءل : لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد؟ . ونقول : لأن كل واحد له مال ولو لم يكن له إلا ملبسه . وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد . ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج ، ومجيء الزوج ، يحتاج إلى المال؛ لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد .

وأساليب القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع بألوان مختلفة؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة } [آل عمران : **14**] .

وفي هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين . ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة . وعلينا أن ننتبه أنه سبحانه وتعالى جاء هنا بالقناطير المقنطرة ، وهي تأتي بعد تحقيق الشهوة الأولى؛ وهي النساء ، والزينة الثانية وهي الأبناء ، ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع في المزيد من المال ، فإن كانت الوحدة من

القناطير المقنطرة هي القنطار ، فمعنى ذلك أن الإنسان الذي يملك قنطاراً إنما يطمع في الزيادة مثلما يطمع من يملك ألف جنيه في أن يزيد ما يمتلكه ويصل إلى مليون جنيه ، وهكذا . إذن فالقناطير المقنطرة تعني الرغبة في المبالغة في الغنى .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

{ واعلموا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ } [الأنفال : **28**] .

ويقول في آية ثانية : { ياأيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم } [التغابن : **14**] .

وفي هذا القول نجد أن العداوة تأتي من الأزواج قبل الأولاد ، ونعلم أن الزوجة في بعض الأحيان هي التي تكره أولاً ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبه بها الأبناء ، وهذا كلام منطقي؛ لأن الذي يتكلم هو رب حكيم .

{ واعلموا أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ } .

وفي هذا القول تحذير واضح : إياكم أن ترسبوا في هذا الاختبار؛ فمن يجمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائن للأمانة ، وهذا له عقاب ، ولذلك يذكرنا الحق تبارك وتعالى في آخر هذه الآية بما يحبب إلينا النجاح في الاختبار فيقول سبحانه :

{ وَأَنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ } .

ونعلم أن النفس البشرية مولعة بحكم تكوينها الفطري من الله بحب النفع لنفسها ، ولكن المختلف فيه قيمة هذا النفع؛ وعمر هذا النفع؛ لأن الذي يسرق إنما يريد أن ينفع نفسه بجهد غيره ، ومن لا يسرق يريد أيضاً أن ينفع نفسه ليبارك الله له في المال وأن يعطيه الرزق الحلال . وهكذا تكون النفعية وراء كل عمل سواء أكان إيجاباً أم سلباً ،

والمثال الذي أضربه دائماً لذلك هو الطالب الذي يهمل في دروسه ، ويوقظه أهله كل صباح بصعوبة ، ثم يخرج من المنزل ليتسكع في الشوارع ، والطالب الثاني الذي استيقظ صباحاً وذهب إلى مدرسته وانكب على دروسه ، إنَّ كلاً من الطالبين قد أراد نفع نفسه ، الفاشل أراد النفع الأحمق ، والناجح أراد النفع في المستقبل . ونعرف أن النفع غاية مطلوبة لكل نفس . والمهم هو قيمة النفع ، وعمر النفع . فإذا كانت الخيانة ستؤدي لك نفعاً في أولادك أو أموالك؛ فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عز وجل ، وضع هذه في كفة ، وضع تلك في الكفة الأخرى ، وانظر أي كفة ترجح ، ولا بد أن ترجح كفة الأجر عند الله عز وجل .

ولذلك قال المتنبي :

أرى كلنا يبغي الحياةَ لنفسه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبًا

فحُبُّ الجبانِ النفسَ أوْرَده التقى ... وحُبُّ الشجاعِ النفسَ أوْرَده الحَرْبَا

فكلنا نحب الحياة؛ الجبان الخائف من الحرب يحب الحياة ، والشجاع الذ يحب نفسه ويعلم قيمتها عند خالقها يخوض الحرب رغبة في حياة الاستشهاد ، وهي حياة عند الله إلى أن تقوم الساعة ، ثم تتلوها حياة الجنة حيث يخلد فيها أبداً .

إذن فالمعيار الذي نقيس به النفع هو محل الاختلاف .

وفي عرف البشر نجد أن الأجر يساوي قيمة العمل ، لكن الأجر عند الله لا يساوي العمل فقط ، بل هو عظيم بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (29)

ويستهل الحق تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بنداء الإيمان ، ثم يضع شرطاً هو : { إِن تَتَّقُواْ الله } ، ويكون جواب الشرط أن يجعل لنا فرقاناً ، ويكفر عنا السيئات ، ويغفر لنا وسبحانه هو الكريم وصاحب الفضل العظيم .

والمراد بالتقوى هنا أن تكون التزاما بالأحكام؛ وقمة الالتزام بالأحكام هي الإيمان بالله عز وجل ، وإذا وجد الاثنان؛ الإيمان بالله والالتزام بالأحكام ، لا بد أن يتحقق وعد الله المتنثل في قوله تعالى

{ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله ذُو الفضل العظيم } [الأنفال : 29] .

والفرقان من مادة « فرق » « الفاء والراء والقاف » ، وتأتي دائماً للفصل بين شيئين ، مثلما ضرب موسى البحر بعصاه فكان كل فِرْق كالطود العظيم . وسبحانه وتعالى يقول : { وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر } [البقرة : 50] .

أي نزع الله سبحانه الاتصال بين متصلين فصار بينهما فرق كبير .

وافرض - على سبيل المثال - أنك أحضرت ثوباً من قماشٍ مُتَساوٍ في النسيج واللون ، ثم شققت من الثوب جزءاً منه؛ هنا لا يقال إنك فرقت بين القطعتين ، بل فصلت بينهما ، لكن لا يقال فِرْق إلا إذا كان الفصل يؤدي إلى فرقتين؛ فِرقة هنا ، وفِرقة هناك وهذه أشياء ومتعلقات ، وتلك لها أشياء ومتعلقات .

إذن فالفرق ليس هو الفصل بين متلاحمين فقط ، بل هو فصل يؤدي إلى أن يكون لكل فرقة منهج ، ومذهب ، ورأي .

و { يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً } أي يفصل بين شيئين لم يكن يوجد بينهما اتفاق؛ لأنه لو كان بينهما

اتفاق لصارا فرقة واحدة ، لكن لأنهما مختلفات لذلك لا بد من وجود تناقض بينهما . وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : إنه يجعل لكم فرقاناً ، مثال ذلك ، هناك من يهتدي ، وهناك من يضل . وبطبيعة الحال يوجد فرق بين الهدى وبين الضلال . فالله شرح صدر المتهدي للإسلام ، وجعل صدر الكافر ضيقاً حرجا؛ فيه غل وحقد وحسد ومكر ، وخديعة؛ لذلك يفصل ربنا بين من بقلبه طمأنينة الإيمان وبين من يمتلىء صدره بالضغينة ، فالمؤمن من فرقة تختلف عن فرقة أصحاب القلوب الحقودة .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً } [الأنفال : 29] .

أي أنه سبحانه وتعالى يفصل بينكم أو يفصل بين عموم الحق وعموم الباطل؛ لأنه يريد أن تكون حركة الحياة وحدة متكاملة منسجمة ، لا يسودها هوى جماعة ضد جماعة لها هوى آخر؛ لأنهم كلهم خلفاء الله في الأرض ، وكلهم مخلوقون لله ، وكلهم متمتعون بخيرات الله؛ لذلك يجب أن تكون حركاتهم متساندة ومتناسقة غير متعاندة .

والتفرق –كما نعلم – إنما ينشأ عن اشتباك؛ بين فريقين اثنين ، واحد منهما يمثل فريق الهدى ، والثاني هو من حق عليه عذاب الله .

{ إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً } [الأنفال : 29] .

ويتمثل الفرقان في هدى القلب ، والبصيرة والعلم؛ وأي شيء يفصل بين الحق والباطل ، وأحوال الإنسان –كما نعلم – قسمان : أحوال الدنيا ، وأحوال الآخرة ، وأحوال الدنيا فيها أمور قلبية مستترة ، وفيها أمور ظاهرة ، وإن نظرنا إلى حالات الدنيا نجد منها الظاهر وهو الحركة المحسة ، ومنها القلبي الذي لا يعرفه من بعد الله إلا صاحب القلب . والفرقان في أحوال الدنيا القلبية تلمسه حين تجد من اهتدى ، ومن ضل؛ ونجد أن المهتدي قد شرح ربنا صدره للإسلام . ونجد أن الضال هو من لم يشرح الله صدره للإسلام والمهتدي يعيش ضمن الفريق الذي لا غل فيه ولا حقد ، والضال هو من يعيش في فريق يتصف بالغل والحقد ، هذا في الأمور القلبية . أما في الأعمال الظاهرة ، فالحق يجعل الفرقان بين أهل الإيمان وأهل الكفر؛ بالنصر ، والغلبة ، والعزة .

وماذا عن الفرقان في الآخرة؟ .

إن الحق يجعل الفرقان في الآخرة بحيث يكون لأهل الإيمان النعيم المقيم والثواب العظيم ، ويجعل لأهل الكفر العذاب الشديد والمقت الكبير .

{ إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ } [الأنفال : 29] .

وإذا كنا سنتقي الله فهل سيكون لنا سيئات؟ .

وأقول : إن أردت بقوله : { إِن تَتَّقُواْ الله } إيماناً به ، فسبحانه يُكَفِّر عنكم سيئاتكم؛ صغائرها

وكبائرها . ولا يضر مع الإيمان معصية ، بل تدخل في عفو الله وغفرانه .

وإن أردت بالتقوى « التزام أمر » فتكفير السيئات يعني أن نتقي الله بترك الكبائر فيكفر عنا السيئات وهي الصغائر . والتكفير على نوعين؛ أولا أن يسترها عليك في الدنيا ، أو يذهب عنك عقوبة الآخرة ، ولذلك يقول سبحانه في ختام جميل للآية :

{ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله ذُو الفضل العظيم } [الأنفال : 29] .

وحين يوصف الفضل بأنه عظيم ، فمعنى ذلك أنَّ هناك فَضْلاً أقل من عظيم ، كما أن هناك فَضْلاً يعلوه تميزاً . نعم ، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر؛ هذا يتفضل على هذا بطعام ، أو يتفضل عليه بِمَلْبَس ، أو يتفضل عليه بشراب ، أو يتفضل عليه بمسكن ، أي أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنها لا توصف بالعظمة؛ لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط لأنه سيؤول إليه كل فضل من دونه ، فمن أعطى آخر رغيف خبز فلنعلم أن وراءه من أحضر الخبز من المخبز ، ووراءه من جاء بالدقيق من المطحن ، ووراءه من زرع وحصد .

إذن كل فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله عز وجل ، وهذا هو الفضل العظيم . وأيضاً نجد أن الذي يتفضل على واحد لا بد أنه يبغي من وراء هذا الفضل شيئاً ، مثل كمال الذات ، وأنه يود الحمد والثناء ، ويبغي راحة نفس إنسانية ، ونرى أناساً يؤدون الفضل لغيرهم ليقللوا من آلامهم ، لا لأنهم يطبقون منهج الله ، بل يرغبون في مجرد راحة النفس ، مثل الكفار الذين يصنعون أشياء تفيد الناس ، فهم يفعلونها وليس في بالهم الله ، بل في بالهم راحة النفس وانسجامها .

إذن فالذي يتفضل إنما يريد شيئاً ، إما كمال مال أو ثناء وإطراء ، وراحة نفس من مناظر الإيلام التي يراها ، وهذا دليل على أنه يعاني من نقص ما ويريد أن يكمله . فإذا كان الله عز وجل هو صاحب الفضل ، ألله نقص في كمال؟!! لا . إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضلاً منه دون رغبة في كمال أو ثناء ، وأيضاً فكل فضل من دون الله يتضمّن المنّ ، لكن فضل الله تعالى ليس فيه منّ وليس فيه ذِلة لأحد . وقد يستنكف إنسان أن يأخذ شيئا من إنسان آخر . لكن من الذي يستنكف على فضل الله؟ . لا أحد . لأنَّ الحياة كلها هبة منه ، ولذلك يُضرب المثل بالفتاة التي قالت لمعن بن زائدة :

فَعُدْ إنَّ الكريمَ له معاد ... وظنِّي بِابْن أروى أن يعودا

وكانت الفتاة تطالب ابن زائدة أن يعود إلى التفضل عليهم ، فنهرها أبوها ، فقالت له : يا أبي إن الملوك لا يُسْتَحَى من الطلب منهم .

{ والله ذُو الفضل العظيم } [الأنفال : 29] .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن تنتبه إلى أن كل مظهر من مظاهر وجودك في الحياة ومظاهر استبقاء

حياتك ، ومظاهر نعيمك كلها ، إن نسبتها فستصل إلى الله ، فإن كنت تشتري – على سبيل المثال – أثاثاً لبيتك ، واخْتَرت خَشَب الورد ليكون هو الخشب الذي يصنع لك منه النجار هذا الأثاث ، فأنت تأتي بهذا الخشب من أندونيسيا أو باكستان مثلاً؛ لأن الغابات هناك تنتج مثل هذا النوع من الخشب ، وكل شيء في حياتك إن سلسلته ستجد أن أيدي المخلوقات من البشر تنتهي عند خلق لله وهبه للإنسان ، وهذا هو الفضل العظيم من الله تبارك وتعالى .

وبعد أن أوضح الحق سبحانه وتعالى بهذا التوجيه : لا تخونوا الله ، ولا تخونوا الرسول ، ولا تخونوا أماناتكم ، من أجل أولادكم أو أزواجكم ، واعلموا أن مرد كل الفضل إلى الله تعالى ، واذكروا واقع الدنيا معكم ، أصدقت هذه المسائل أم لم تصدق؟ لقد صدقت كلها ، كما قال الحق سبحانه وتعالى من قبل : { واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس } [الأنفال : 26] .

وكان هذا القول بالنسبة للمسلمين ، فماذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . هنا يقول المولى سبحانه : { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ . . . }

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (30)

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى لم يأت بمادة الذكر في جانب النبي صلى الله عليه وسلم . ولم يقل له : واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا؛ لكنه في جانب الصحابة جاء بمادة الذكر حيث قال : واذكروا إذ أنتم قليل ، فما السبب؟

ذلك لأنه لا يطرأ على البال أن يغفل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكر الله تعالى؛ لأن الذكر هو مهمته عليه الصلاة والسلام ، وسبحانه وتعالى القائل : { فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ } [الغاشية : 21] .

هذا الذكر والتذكير هما وظيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويختلف هذا عن مهمة الإيمان في حياة المؤمنين؛ لأن الإيمان بالنسبة لهم إنما ليعدل من حياتهم . لذلك جاء هنا بالظرف فقط . { وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .

وهذا كله شرط وحيثية لقولة تعالى : { والله ذُو الفضل العظيم } [الأنفال : 29] .

والمكر هو التَّبْييت بشيءٍ خفِيٍّ يضرّ بالخَصْم . والذي يمكر ويبيت شيئاً خفيّاً بالنسبة لعدوه ، لا يملك قدرة على المواجهة ، فيبيت من ورائه ، ولو كانت عنده قدرة على المواجهة فلن يمكر؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف . ونجد ربنا سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً } [النساء : 76] .

ثم نجده سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28] .
وما دام كيدهن عظيما فضعفهن أعظم . ولذلك نجد الشاعر العربي يقول :
وضعيفة فإذا أصابَتْ فرصةً ... قَتَلتْ كذلك قُدْرَةُ الضُّعفاءِ
لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه . أمَّا القوي فهو يثق في نفسه وقدراته ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة ، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه .
{ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ } [الأنفال : 30] .
أي يذكرون الكيد والتبييت لك بالمكر ، لكنهم لا يعلمون أن مَنْ أرسلك يا رسول الله لا تخفى عليه خافية ، فقد يقدرون على المكر لمن هم في مثلهم من القدرة ، لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت في حفظه ورعايته .
إذن فلست وحدك لأنك تأوي إلى الله ، ويكشف الله لك كل مكرهم ، وهذا المكر والتبييت مكشوف ومفضوح من الله؛ لذلك يقول لك المولى سبحانه وتعالى :
{ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .
والمكر منهم له وسائل وغايات ، هم يمكرون ليثبتوك ، ويمكرون ليقتلوك ، ويمكرون ليخرجوك . وكل لقطة من الثلاثة لها سبب . فحين علم كفار قريش أن أهل المدينة من الأوس والخزرج قد بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصروه؛ هنا فزع كفار قريش وأرادوا أن يضعوا حّداً لهذه المسألة ، فاجتمعوا في دار الندوة يريدون أن يجدوا حلاً يوقف رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليهم أعرابي فوجدهم يتشاورون؛ وقالوا لنثبته ، والتثبيت ضد الحركة ، وقوله : « ليثبتوك » أي ليقيدوا حركتك في الدعوة؛ لأن هذه الدعوة تزلزلهم .

ولولا الرسالة ، لظلوا على الترحيب بك يا رسول الله ، فقد كنت في نظرهم الصادق والأمين ، ولم يرهقهم إلا التحرك الأخير لإشاعة منهج الله تعالى في الأرض ، لذلك أرادوا أن يقيدوا حركته صلى الله عليه وسلم .
والتقييد إما أن يكون بأن تمنع المتحرك عن الحركة ، وإمّا أن تقيد المتحرك نفسه فتحدد مجال حركته . إذن فالتثبيت يكون بالقيد أو السجن ، وقيل لهم : إن هذا رأي غير صائب لأنكم لو قيدتموه أو سجنتموه فسوف يقوم قومه ويغيرون عليكم ، أو يحتالون ليفكوا عنه القيد أو السجن ، وقد سبق لكم أن حاصرتموه فلم تفلحوا ، وقال آخر : نخرجه من بلادنا ، وناقشوا هذا الأمر فلم يجدوه صواباً ، وقالوا : إنه إن خرج ، فلسوف يؤثر فيمن يخرج إليهم تأثيراً يجعل له منهم أتباعاً ، يأتون إلينا من بعد ذلك ليقاتلونا ، وأشار الأعرابي بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن كبار قريش قالوا : نخاف من قومه أن يأخذوا بثأره ، فاقترح أبو جهل قائلا : نأخذ من كل

قبيلة من قبائلنا فتى جلداً قوياً ، وبعد ذلك يذهبون إلى محمد وهو في فراشه ويضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا مات تفرق دمه في القبائل ، ولن تستطيع قبيلة محمد أن تواجه القبائل كلها ، فيرضون بالدية ، وندفعها لهم وننهي هذا الأمر .
هكذا ناقش القوم تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقييد حركته أو إخراجه من بلده أو قتله ، وكل هذا بمكر وتبييت . وكشف الله لرسوله كل ذلك وأخرجه من مكة مهاجراً إلى المدينة ليوضح لهم أنه سبحانه خير الماكرين حقّاً وصدقاً .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا . . . }

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (31)

وقول الحق : « آياتنا » يعني آيات القرآن؛ لأننا عرفنا من قبل أن الآيات إما أن تكون الآيات الكونية التي تلفت إلى وجود المكوِّن الأعلى مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، وإمّا أن تكون الآيات بمعنى المعجزات : { وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجتبيتها } [الأعراف : 203] .
وهذه الآيات المعجزة علامة على أنه صادق . أو الآيات التي هي قسط من القرآن وهو المنهج .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :
{ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا } [الأنفال : 31] .
ونفهم من التلاوة أن المقصود هو آيات القرآن الكريم . فماذا قالوا؟
{ قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا } [الأنفال : 31] .
وقولهم : « لو نشاء » هذا يدل على أنهم لم يقولوا؛ لأن « لو » حرف امتناع لامتناع ، مثلما تقول : لو جئتني لأكرمتك ، فامتنع الإكرام مني لامتناع المجيء منك ، فهذا يعني امتناع لامتناع ، ومثلما يقول قائل : لو عندي مال لاشتريت قصراً ، ولأنه لا يملك مالاً ، فهو لم يشتر القصر - إذن هم لم يشاءوا ولم يقولوا؛ لذلك كان كلامهم مجرد « تهويش » وتهديد لا محل له . فلم يحصل منهم هذا ولا ذاك .
إذن ثبت الإعجاز . لقد ثبت لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منهم أولاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين قالوا : إن القرآن كثير ولا يقدرون أن يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور ، وحين فشلوا ، تحداهم بأن يأتوا بسورة ، فلم يأتوا ، وكان هذا تدرجاً في الإعجاز .
لقد تحداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعنى التحدي حفز المُتَحدّى أن يُجند كل ما يقوى عليه ليرد التحدي . فإن لم تتجمع لهم المواهب التي تكفل قبول التحدي انسحبوا؛ لكن واحداً منهم « النضر بن الحارث » ذهب لفارس ، ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات ، وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد . لكن كلامه لم يكن له هدف ولا يحمل منهجاً ولا

توجد لكل كلمة فيه قدرة جذب لمعنى ، ولم يوجد في قوله أي معنى جاذب للكلمة ، لذلك انصرف عنه القوم .

{ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين } [الأنفال : **31**] .

وهذا قولهم ، وسبق أن اعترفوا بأنه قرآن ، وسبق لهم أن قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً }

[الإسراء : **90 - 93**] .

وحين نقرأ هذه الآيات الكريمة ونقوم بتعداد ما طلبوا منه ، نجد أنهم طلبوا تفجير الأرض بينبوع ماء ، وطلبوا أن تكون له جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، وطلبوا أن تسقط السماء كما زعم عليهم كسفا ، وطلبوا أن يأتي بالله والملائكة قبيلا ، وطلبوا أن يكون له بيت من زخرف ، وطلبوا أن يرقى في السماء ، وكل هذا كلام طويل أثبته القرآن الكريم ، فهل ما قالوه يعد قرآنا؟ لا ، ولنلتفت إلى دقة أداء القرآن ، فلم يقل كل هذه الطلبات إنسان واحد ، بل قال كل منهم طلباً ، وبأسلوب مختلف ، ولكن بلاغة القرآن الكريم جمعت كل الأساليب فأدتها بتوضيح دقيق وبإعجاز بالغ ، ولذلك لنا أن نلتفت أننا ساعة نسمع نقلا لكلام الغير من القرآن ، فعلينا ألا نأخذه على أن هذا الكلام الذي قيل هو معانٍ قيلت ، وجاء القرآن الكريم بها بأسلوب الله .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إذا جئت لابنك وقلت له : يا بني اذهب إلى عمك فلان وقل له : إن أبي يدعوك غداً مساءً لتناول العشاء معه؛ لأن عنده ضيوفاً ويحرص على أن تشاهدهم ويشاهدوك وتقوي من مكانته . وحين ذهب الولد لعمه ، هل قال له نفس الكلام؟ طبعا لا؛ لأن الأب قد يكون متعلماً ، ولا يستطيع الابن أن يقول ذات الكلمات . أو قد يكون الأب أمياً ، والابن مثقفا ناضجا فينقل الابن رسالة أكثر بلاغة .

إذن فأنت إذا سمعت أو قرأت كلاماً من غير الله على لسان أحد ، فاعلم أن هذا أداء الله لمطلوبات المتكلم .

{ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين } [الأنفال : **31**] .

والأساطير جمع أسطورة ، أي الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ،

والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ . . . }

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32)

و « إذ » تأتي للظرف أيضاً ، ولم يقل سبحانه وتعالى : واذكر أن قالوا ، بل قال : « إذ قالوا » . وقد بلغ بهم العجز إلى أن قالوا إن كان هذا القرآن هو الحق القادم من عندك فأمطر علينا حجارة ، أو ائتنا بعذاب أليم .

أليس هذا الكلام دليلاً على غباء قائليه؟ بالله لو كان عندهم عقل ومنطق وتفكير ، أكانوا يقولون ذلك؟

ألم يكن من المناسب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، أو فاجعلنا نقبله؟ . وما داموا قد قالوا : « اللهم » فالمنادى هو الله .

{ وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ } [الأنفال : 32] .

إذن هم يعلمون أن لله عز وجل عندية ، وفيها حق ، وهكذا نرى أنهم اعترفوا بوجود الله ، وأنَّ عند الإله حقًا . فكيف إن جاء إنسان وقال لكم : إنني رسول من عند الله ، وهذا هو المنهج ، وهو منهج ومعجزة في وقت واحد ، ألم يكن من الواجب أن تستشرف آذانكم إلى من يبلغ عن الله هذا الحق وأن تستجيبوا له؟ . لكن ما داموا قد استمطروا على أنفسهم اللعنة والعذاب ، فهذا دليل كراهيتهم لمحمد ، ومن أجل هذه الكراهية دعوا الله أن ينزل عليهم العذاب كما فعل بالأمم السابقة – وطلبهم هذا للعذاب يدل على أنهم علموا أن من يكذب الرسل ويرفض المنهج إنما يتلقى العذاب من الله . وهكذا يتبين لنا أن ما ينقصهم لإعلان الإيمان هو عدم قبولهم لرسول الله شخصياً ، ويتمثل هذا في قول الحق تبارك وتعالى في آية أخرى : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .

إذن لو أن القرآن نزل على شخص آخر؛ لآمنوا به . وفي هذا اعتراف بأن القرآن معجزة ، ومنهج . وقوله تعالى : { وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ورد على لسان أبي جهل وهذا يدل على كثرة جهله وشدة تكذيبه وعناده وعتوه هو ومن معه من المشركين المكذبين . فعن أنس بن مالك : قال أبو جهل بن هشام :

{ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ }

فنزلت : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ }

وهؤلاء المعاندون قالوا أيضا : { أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً } [الإسراء : 92]

.

وهذا دليل على التخبط في الكلام ، وفقدان الوعي العقلي .

{ أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .

والحق سبحانه وتعالى قادر على أن يصيب بالعذاب قوماً بعينهم وقادر على نجاة المؤمنين ، وشاء الله سبحانه ألا ينزل العذاب؛ لأن رؤية المتألم حتى ولو كان عدوّاً ، فيه إيلام – لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ . . . }

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)

لأن سنة الله مع خلقه المكذبين للرسل ، أنه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل العذاب يخرج الرسول والمؤمنين به ، مثال ذلك أمْره نُوحاً عليه السلام بأن يصنع السفينة؛ لينجو من الطوفان . وكل رسول لم تستجب أمته أصابها شيء من هذا ، وعلى ذلك يخرج الرسول أولا ، ثم ينزل الحق عذابه ، كما أنه يقول سبحانه وتعالى موضحا فضل اللجوء إلى الله بالاستغفار :

{ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

وهم إن استغفروا الله فمعنى ذلك أنهم آمنوا به ، ولكن الحق جاء بهذا القول ليدلهم على المنقذ الذي يخلص الإنسان منهم من جريمة الكفر ، وفي ذلك رحمة منه سبحانه وتعالى ، وكأنه يحضّهم على أن يستغفروا حتى لا ينزل بهم العذاب . ويرسم لهم وسيلة النجاة .

{ وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } [الأنفال : 33] .

وتسمى اللام في « ليعذبهم » ب « لام الجحود » ، نجحد أن يعذبهم الله وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذن فوجود الرسول فيما بينهم أمر له تقدير خاص ، أما هم فالحق تبارك وتعالى يقول بشأنهم : { وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

وهكذا نرى الحقائق الإيمانية ، فالنفس المؤمنة الصافية حين يكون لها عدو ، ثم تحل بالعدو مصيبة ، لا تأتي أبداً كلمة الشماتة على بال المؤمن ، هذا هو الخلق الإيماني الذي قد يؤلمه مظهر الضعف والمهانة للعدو ، فيضنّ الله على أن يعذب قوماً وفيهم من يستغفر ، وكأنه يُوضِّح لنا : هب مسيئنا لمحسننا ، أي أن يداري المحسن على المسيء . ولذلك نجد « أن الرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية صُدَّ عن البيت الحرام ، وهذا الصد تسبب في أنهم يعقدون معه معاهدة هي صلح الحديبية ، وكان هناك من المؤمنين من يعارض هذه المعاهدة ، ومنهم من قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ . والقائل لذلك هو عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – ، وفي التفاوض ، جاء علي بن أبي طالب ليكتب المعاهدة وفي بدئها » هذا ما صالح عليه رسول الله « فاعترض المفاوض عن معسكر الشرك قائلاً : لو كنا مؤمنين بأنك رسول الله لما حاربناك ، بل اكتب : » هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله « ، فامتنع عليّ عن الكتابة ، وقال : لا أكتبها

إلا رسول الله . فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكتبها كما يقولون لينهي الموقف ، وليعطي معجزة ، فينظر لعلي وهو مغتبط به ، فيقول له :
» اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد « ويتحقق ذلك بعد حياة النبي ، وخلافة أبي بكر ، وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، ثم تجيء الخلافة لعلي وحدث فيها ما حدث . ويتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
» اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد «

أي سيقفون منك موقفاً مثل هذا وسوف تقبله ، ولما جاء الخلاف بين معاوية وجنوده ، وبين علي وجنوده ، أرادوا أن يوقعوا معاهدة فيما بينهم ليمنعوا النزاع بين المسلمين ، فقال علي – كرم الله وجهه – : هذا ما تعاهد وتعاقد عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فقال المفاوض عن معاوية : لو كنت أميرا للمؤمنين أكنّا نحاربك؟ ، فتذكَّر علي كرم الله وجهه ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم صلح الحديبية : « أُكتب فإن لك مثلها . . . . . إلخ » .
ومعنى ذلك أن السياسة تقتضي ألا تتجمد كمن يكون في قالب حديدي ، بل تفترض السياسة فيمن يعمل بها شيئاً من الليونة وبعد النظر لتنتهي المواقف الصعبة؛ لأن كل طرف لو أصرّ على موقفه لما وقعت المعاهدة ، وكانت معاهدة صلح الحديبية مطلوبة ومناسبة ليتفرغ المسلمون – بعد الأمن من قريش – للدعوة إلى منهج الله في الأرض ، وهذا ما حدث خلال السنوات العشر التي تلت هذه المعاهدة ، وانتشر الإسلام في ربوع الجزيرة العربية ، ومن بعدها إلى آفاق الأرض كلها .
إذن فوليّ الأمر عليه أن يملك البصيرة التي لا تجعله جامداً ، لأنه لو تجمد لأنهى الخير الموجود فيه وفي قومه ، وهكذا أراد رسول الله أن يعلمنا عدم الجمود بصلح الحديبية على الرغم من أن بعض المسلمين ومنهم عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – قالوا : لا ، علام نعطي الدنية في ديننا؟ وبعضهم قالوا متسائلين ، بل وعاتبين : ألم تعدنا يا رسول الله أننا سندخل البيت الحرام؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقلت لكم هذا العام؟ .
ولم ينتبه المسلمون حين سمعوا ذلك إلى أهمية أن تنضج القرارات السياسية لتأخذ طريقها إلى التنفيذ . وكادت الفُرقة أن تحدث بين المسلمين ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زوجه أم سلمة مكروباً . وقال لها : يا أم سلمة هلك المسلمون . أمرتهم فلم يمتثلوا .
ونرى موقف أم سلمة رضي الله عنها وهي الزوجة الأمينة المشيرة الناصحة ، لقد قالت : يا رسول الله إنهم مكروبون ، لقد جاءوا وفي نيتهم أن يذهبوا إلى البيت الحرام بعد طول فرقة واشتياق ، ثم حُرموا من ذلك وهم بمرأى من البيت ، ولكن قم يا رسول الله فاعمد إلى ما أمرك الله به ، ولا تقل لهم شيئاً ، بل اذبح هديك ، وهم إذا رأوك فعلت فَعَلوا .

وبالفعل خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وذبح الهدي ، وفعل المسلمون مثله . ونجد سيدنا أبا بكر – رضي الله عنه – يقول عن الحديبية : هي الفتح في الإسلام . وما كان فتح الحديبية ، ولكن الناس لم تتسع ظنونهم إلى السر من الله . والعباد دائماً يعجلون ، والله لا يعجل بعجلة عباده حتى تبلغ الأمور ما يراد لها .

وقد كان المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم غيورين على دينهم ، على قدر علمهم لا علم الله . وشاء الحق تبارك وتعالى أن يبين لهم السبب في أنه لم يجعل من الحديبية أرض قتال أو التحام؛ فقال : { هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25] .

نعم فقد كان هناك مؤمنون ومؤمنات يختفون بين الكفار ، فلم يكن في مكة قبل الفتح – حيّ للمسلمين الذين يخفون إيمانهم ، وحيّ للكفار ، بل كان الناس يسكنون معاً ، فإذا ما قامت الحرب بين أهل مكة وبين الجيش القادم إلى الحديبية ، لقتل المسلم أخاه المسلم الذي لم يعلن إسلامه ، ولو أمكن التفريق بين المسلمين الذين لم يعلنوا إسلامهم وبين الكفار ، لعذب الله الكفار بأيدي المؤمنين عذاباً أليماً .

وهنا في هذه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

ويعني بذلك أن بعضهم هو الذي يستغفر فيمنع الله عز وجل العذاب عن الكل ، مثلما منع تعذيب الكافرين بصلح الحديبية؛ لأن هناك مؤمنين مستخفين فيما بينهم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ }

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (34)

وهنا نتساءل : أي شيء يمنعهم من أن يعذبهم الله؟ . إن تعذيبهم هو عدالة؛ لأنهم فعلوا ما يستحقون عليه التعذيب . لقد صدوا الرسول والمسلمين عن زيارة المسجد الحرام؛ لأنهم ظنوا أن لهم الولاية عليه ، رغم أن منهم من سمع خبر أبرهة الأشرم حين جاء بالأفيال ليهدم الكعبة . واستولى أبرهة الأشرم على مائة من الإبل كانت لسيد قريش عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، فذهب إليه عبد المطلب وقال له : إنك قد أصبت لي مائة بعير فأرجو أن تردها إليّ . فقال أبرهة الأشرم : جئت لأهدم بيتكم ، وبيت آبائكم ، ثم لا تكلمني فيه وتكلمني في مائة

من الإبل أصبتها منك؟ فقال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، أما البيت فله رب يحميه .
وهذه كلمة لا يقولها إلا واثق من أن للبيت الحرام ربّاً يحميه .
وجاءت طير أبابيل ترمي بحجارة من جهنم فجعلته هو وجيشه كعصف مأكول .
إذن فكيف تصد قريش محمداً والمؤمنين معه عن البيت الحرام ، وهم بإقرار سيدهم قديماً يعلمون أنَّ للبيت ربّاً يحميه ، فكيف تكون لكم على البيت ولاية؟ وكان عليهم أن يعلموا أن ولاية أمر بيت الله باختيار الله ولا تكون إلاَّ للمتقين ، ولم تكن قريش من المتقين .
وحيثيَّات التعذيب إذن هي صدهم عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه . لماذا؟
{ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ المتقون ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [الأنفال : 34] .
وإذا كان أكثرهم لا يعلم ، فأقلهم يعلم علم اليقين حقيقة البيت الحرام ، فقداسة هذا البيت التي تعلمها الأقلية ونسيتها الأكثرية من كفار قريش هو قول الحق تبارك وتعالى على لسان سيدنا إبراهيم : { رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات } [إبراهيم : 37] .
لقد جعلهم الله عز وجل في هذا المكان ليقيموا الصلاة؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب أن يعبد في الأرض ولو بواحد في هذا المكان ، ولتظل عبادته دائمة . ومهما علت فئة من البشر مثل قريش فهي بصدها عن البيت الحرام قد اتبعت أهواءها ، وسبحانه يحقق ما يريد ، فهزم قريشا ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعادت للكعبة حرمتها وصارت مكانا للعبادة لله بصفة مستمرة .
وإننا نجد تشريعات الحق سبحانه في أوقات الصلاة ، فالصبح عند قوم هو ظهر عند قوم آخرين ، والظهر عند قوم هو صبح عند قوم آخرين ، والعصر عند قوم هو صبح أو ظهر أو مغرب أو عشاء عند أقوام آخرين ، وهكذا نجد كل أجزاء النهار مشغولة بأوقات الاتجاه إلى الله ، وهناك في كل لحظة من يتجه إلى بيت الله الحرام بصلاة ما في ميقاتها ، ولا تخلو بقعة في الأرض من قول : « الله أكبر » ، وقد تم بناء البيت الحرام من أجل هذه الصلاة .
لكن قريشاً حولت الصلاة من خضوع وخشوع وعبادة لله تعالى واستحضار لعظمته وجلاله إلى ما يقول عنه الحق سبحانه وتعالى : { وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ البيت إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً . . . }

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (35)

حيث كانت صلاتهم مظهرا من مظاهر اللهو واللعب يؤدونها بالمكاء والتصدية ، والمكاء هو التصفير الذي يصفرونه ، والتصدية هي التصفيق ، وكانت صلواتهم هي صفير يسبب صدى للآذان ، بالإضافة إلى التصفيق بإيقاع معين ، فكيف تكون الصلاة هكذا؟ . وكيف يصدون عن البيت الحرام ولا ولاية لهم عليه؛ لأن الذي يلي أمر البيت الحرام لا بد أن يكون متقياً لله ، لكن

هؤلاء لم يكونوا أهلاً للتقوى؛ لأنهم لم يقوموا بالصلاة المطلوبة للبيت الحرام والتي يجب أن يذكر فيها الله ويُعبد؛ لذلك كان التعذيب لمن أصر على ذلك بعد أن نزل منهج الله الخاتم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله . . . .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (36)

ويبين المولى في هذه الآية أن هؤلاء المشركين قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأت ذلك الأمر بأدنى نتيجة ، وكأن الحق يغري الكافر بأن يتمادى في الإنفاق ضد الإيمان ، فيخسر الكافر ماله ويتجرع آلام الحسرة؛ لأن الله يغلبه من بعد ذلك .

وحين سمعوا قول الله سبحانه وتعالى :

{ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } [الأنفال : 36] .

لم ينتبهوا إلى أن الحق سبحانه يتحدث عن المستقبل ، وأنه مهما أنفق الكفار ضد دين الله فلن يصلوا إلى أية نتيجة ، ومصداق الأحداث يؤكد أن كلَّ ما يجيء به القرآن الكريم حق .

ولماذا لم ينتبهوا إلى ذلك؟ ولم يدخروا أموالهم؛ وقد نصر الله دينه؟ .

إذن هذا هو فعل من فقد البصيرة والذكاء . وحين يأتي القرآن الكريم بقول الله تعالى : « فسينفقونها » أي أن الإنفاق سيكون في المستقبل ، والاستقبال له مرحلتان؛ استقبال قريب ، واستقبال بعيد . فإن كان الاستقبال قريباً فهو يقول : « فسينفقونها » ، وأما إن كان بعيداً فيقول : فسوف ينفقونها مثلما قال القرآن أيضاً : { سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا } [البقرة : 142] .

وقد أعلمنا القرآن صلاة من رسول الله ، وجهرا من الصحابة بالخبر ، وأعلمهم القرآن الكريم أيضا ، ولكنهم لم يلتفتوا إلى التحذير الذي صار من بعد ذلك خبراً يروي دليل افتقادهم لصفاء الفطرة . ؛ لذلك تجيء لهم الحسرة بعد أن أنفقوا المال ، وخسروه فلم يستفيدوا شيئاً ولم يحققوا مرادهم ولا آمالهم . ويتابع سبحانه وتعالى تذييل هذه الآية فيقول :

{ والذين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ } [الأنفال : 36] .

وحينما يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الأمور التي تحدث للكفار من عذاب عظيم في جهنم ، فسبحانه لا يريد بهذا الحديث أن يجعل مأواهم النار ، لكنه يخوفهم ويرهبهم من الكفر ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحضهم على ألا يكونوا كافرين حتى لا يحشروا في جهنم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { لِيَمِيزَ الله الخبيث مِنَ الطيب وَيَجْعَلَ الخبيث بَعْضَهُ على بَعْضٍ . . .]

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (37)

وهذه الآية الكريمة تكشف لنا أن المعارك التي تنشأ بين الإسلام وأتباعه من جهة ، وبين خصوم الإسلام وأتباعهم من جهة أخرى : هذه المعارك إنما هي أمر مراد من الله تعالى : لأن الزلزلة التي تحدث ، حتى لمن آمن ، إنما هي تصفية لعنصر الإيمان ، ومثال ذلك ما حدث في الإسراء ، حيث وجدنا من كان إيمانه ضعيفاً يتساءل : أمعقول أن يذهب محمد إلى بيت المقدس في ليلة؟! بينما نجد ثابت الإيمان مثل الصديق أبي بكر يقول : إن كان قد قال فقد صدق . إن الثابت والقوي إيمانه يصدق ، أما من لم يثبت إيمانه فهو يكذب . وهكذا كانت أحداث الإسلام ، فقد جاءت كلها لتميز الخبيث من الطيب ، وتجمع الخبيث بعضه إلى بعض ليصير ركاماً ثم يضعهم الله في النار .

لقد جاءت أحداث الإسلام للتمحيص ، مثلما تضع الحديد في النار لتستخرج منه الخبث ويصير صافياً ، وهكذا جاء الإسلام لتصفو به قلوب المؤمنين ، ويقوي إيمانهم؛ لأنهم يحملون رسالة الله تعالى إلى الأرض كلها ، بعد أن مروا بالتصفيات الكثيرة .

ومثل هذه التصفيات تحدث في المجال الرياضي ، فحملة الأثقال – على سبيل المثال – يدخلون في مباريات أولية ، ومن يستطيع حمل الوزن الأثقل هو الذي يكون مؤهلا لأن يدخل المباريات الدولية ، ليبقى الأقوى .

{ لِيَمِيزَ الله الخبيث مِنَ الطيب وَيَجْعَلَ الخبيث بَعْضَهُ على بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أولئك هُمُ الخاسرون } [الأنفال : 37] .

والحق سبحانه وتعالى أعطانا أمثالاً لأحداث تميز الخبيث من الطيب ، فالناس في الأحوال العادية الرتيبة لا تظهر معادن نفوسهم؛ لأن الناس إذا كانوا آمنين لا يواجهون؛ خطراً ، ادعوا الشجاعة والكرم والشهامة ، وادَّعوا الإيمان القوي المستعد لأي تضحية في سبيل الله ، فإذا جاءت الأحداث فهي الاختبار الحقيقي لما في القلوب . فقد يقول إنسان لصديقه : أنا ومالي لك . وإذا ما أصابت هذا الصديق كارثة ، يتهرب منه . فما الذي يحدد – إذن – صدق الحديث عن النفس؟ إنها الأحداث . وهكذا أراد الله تعالى أن يميز الخبيث من الطيب فعركت المؤمنين الحوادث ، وزال الطلاء عن ذوي العقيدة الهشة؛ ليكون الناس شهداء على أنفسهم ، ويبقى المؤمنون أصحاب صفاء القلب والعقيدة . وحين يميز الله الخبيث من الطيب ، فهو سبحانه وتعالى : يريد تمييز الطيب حتى لا يختلط بالخبيث . والخبيث إنما يكون على ألوان مختلفة وأنواع

متعددة ، فهذا حبيث في ناحية ، وذلك خبيث في ناحية أخرى ، وثالث خبيث في ناحية ثالثة ، وغيرهم في ناحية رابعة ، وخامسة إلى ما شاء الله ، ويجمع الله كل الخبيث فيركمه في النار جميعاً .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { قُل لِلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ . . . }

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38)

و « قل » أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وما دام قد وجد أمر ، فلا بد من وجود المبلغ للأمر ، أي أن هناك مخاطِباً ومخاطَباً ، والمخاطِب هنا هو الله سبحانه ، والمخاطَب هو رسول الله صلى الله عليه وسلّم؛ لأن الله تعالى قال له : « قل » ، والبلاغ المطلوب منه إبلاغه للناس هو ما يتضمنه قول المولى سبحانه :
{ قُل لِلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ } [الأنفال : 38] .
أي إن انتهوا عن الكفر غفرت لهم ذنوبهم التي ارتكبوها أيام كفرهم ، ونلاحظ هنا اختلافاً في أسلوب الكلام لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخاطب الكافرين كان الذي يفرضه السياق أن يقول لهم : إن تنتهوا يغفر لكم؛ لأن الخطاب لا بد أن ينسجم مع المخاطب ، وعادة عندما توجه الخطاب لشخص تكون هناك « لام التوجيه » ، تقول : وجهت الخطاب لفلان ، وتخاطبه بشكل مباشر ، ولكن الله يقول هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم :
{ قُل لِلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ } [الأنفال : 38] .
وكان سياق الكلام يقتضي القول : إن تنتهوا يغفر لكم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عدل عن إن تنتهوا إلى « إن ينتهوا » ، والكلام مخاطب به الكفار ، والكفار حاضرون فكيف يخاطبهم بصيغة الغائب؟
لقد أراد الله تعالى أن يأتي الخطاب ليعم كل متكلم يقال له هذا الكلام من أي مؤمن ، فكأنه قد عمم الخطاب ليقطع المعاذير . ومثل ذلك مثل قول الحق تبارك وتعالى : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ } [الأحقاف : 11] .
وإذا أخذنا ذات المقياس لكان الكلام يقتضي أن يقال : لو كان خيراً ما سبقتمونا إليه ، ولأن هذه العبارة قيلت من أكثر من كافر في أماكن متعددة للمؤمنين ، وأراد الله سبحانه وتعالى : أن يلفتنا لذلك ، فعمم الخطاب حتى يشمل جميع الحالات ولا ينطبق على حالة واحدة فقط ، بل ينطبق على كل حالة مماثلة؛ لذلك قال سبحانه :
{ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ } [الأنفال : 38]
وهذا يدلنا على أنهم إن انتهوا عن مقاومة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنادهم معه فهو سبحانه وتعالى يغفر لهم ، لأن العناد والمقاومة ناشئان عن الكفر ، فإن انتهوا عنهما ، صاروا

مؤمنين . والإسلام يَجُبُّ ما قبله .

ولذلك عندما أعلن مخارب عن إيمانه واعتنق الإسلام وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم دخل المعركة فاستشهد صار شهيدا؛ لأنه قد غُفر له بشهادة الإسلام كل ذنوبه التي حدثت منه أثناء الكفر ، وهي الذنوب التي تتعلق بحقوق الله تعالى ، أما ما يتعلق بحقوق الناس ، فعلى ورثته أن يؤدوها عنه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } [الأنفال : 38] .

وقوله هنا : { وَإِنْ يَعُودُواْ } أراد الله أن يعلمنا أن تجري هذه الكلمة على اللسان ، فإن عادوا مرة أخرى إلى الكفر والعناد ، يطردوا من رحمة الله ومغفرته ، إذن فشرط الغفران لهم أن يستمروا في إيمانهم وألا يعودوا للكفر مرة أخرى ، وقوله تعالى : { مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } .

والسنة هي الطريقة أو الكيفية أو الحالة التي يكونون عليها ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً } [الأحزاب : 62] .

أي الطريقة التي اختارها الله لمعالجة الأمور بالحق والعدل ، ومعنى قوله تعالى : { مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ } :

أي الطريقة التي عرفتموها وعالج بها الله عز وجل أمر من عاند الرسل ووقف منهم موقف المنازعة والمعارضة . ومثل ذلك حدث للكفار في بدر ، فكأن من يقف أمام دعوة الله ومنهجه لا بد أن يتعرض للهلاك كما حدث مع كل من قاوم الأنبياء ، فأنتم تعرفون ما صنعه الله بقوم هود وقوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون . ومر كل ذلك عليكم ، كسنة عامة تشمل كل من قاوم الأنبياء ووقف في طريق دعوتهم إلى الله .

والخطاب هنا إما أن يكون خطاباً لهم على حالهم في وطنهم وما حدث للمخالفين في بدر وقد رأوا مصارعهم ، وإما أن يكون الخطاب مبيناً لسنة الله تعالى وقد شاءت سننه سبحانه إبادة كل مخالف لسنته .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله }

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)

وهذا أمر من الله عز وجل بالقتال ، والقتال مفاعلة تحدث بين اثنين أو أكثر ، أي اشتباك بين مقاتل ومقاتل . ولذلك عندما تسمع كلمة « قتال » يتبادر إلى ذهنك وجود طرفين اثنين وليس طرفاً واحدا ، أو بين فريق وفريق آخر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَقَاتِلُوهُمْ } نفهم أن هذا أمر للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ،

ولا بد أن يكون الكفار قد فعلوا شيئا يستحق أن يقُاتلوا عليه ، أو أنهم يبيتون للمؤمنين القتال وعلى المؤمنين أن يواجهوهم ويقاتلوهم . ولم يقل الله سبحانه وتعالى : اقتلوهم بل قال : « قاتلوهم »؛ أي مواجهة فيها مفاعلة القتال . والتفاعل معناه أن الحدث لا يأتي من طرف واحد بل لا بد من مقابل معه . فأنت تقول : « قابلت » أي أنك قابلت شخصاً ، وهو قابلك أيضاً ، وهذه مفاعلة . أو تقول : « شاركت » أي أنك اشتركت أنت وآخر في عمل ما . وهنا قال الحق سبحانه وتعالى :

{ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ } [الأنفال : 39] .

ومعنى ذلك أن هناك قتالاً يؤدي للقتال . وجاء القتال ليحسم الأمر؛ لأن ترك هؤلاء الكفار يعتدون على المسلمين ، ويأخذون أموالهم بالباطل ، فيرى الناس المؤمنين أذلة مستضعفين ، والكفار عالين أقوياء فتحدث فتنة في الدين ، أي يفتن الناس في دينهم وهم يرون الذل دون أي محاولة أو تحرك لدفعه .

ويريد الله سبحانه وتعالى أن تنتهي الفتنة . والفتنة هي الاختبار . وكما قلنا : إن الاختبار ليس مذموماً لذاته ، ولكنه يُذم بنتيجته . فإن رسب الطالب في الاختيار تكون نتيجة الاختيار مذمومة . وإن نجح تكون محمودة . ولقد كان كفار قريش يفتنون الناس في دينهم بتعذيبهم تعذيباً شديداً حتى تخور قواهم ويخضعوا لأحكامهم . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يضع نهاية لهذا الظلم . فإذن بقتالهم؛ لأنهم هم الذين فعلوا ما يستوجب قتالهم .

ونجد قوله سبحانه وتعالى :

{ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله } [الأنفال : 39] .

بينما نجد أنه قد ذكر في سورة البقرة بدون « كله » ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى فيها : { وَيَكُونَ الدين للَّهِ } [البقرة : 193] .

دون أن تذكر كلمة « كله » ولكل آية لقطة ومعنى؛ لأن كل لفظ في القرآن له معنى ، فقوله تعالى : { وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله }

يعني أنه لا يجب أن يجتمع دينان في جزيرة العرب وقد حدث . وأما قوله تعالى : { الدين للَّهِ } فقد أعطتنا لقطة أخرى ، فالأولى تخص العرب والجزيرة العربية ، والثانية تعني أن الإسلام للعالم كله ، ويقول الحق سبحانه وتعالى في الآية التي نحن بصددها :

{ فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال : 39] .

وقوله تعالى : { فَإِنِ انْتَهَوْاْ } أي استجابوا وأطاعوا ، وقوله تعالى : { فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } أي فليحذروا أن يتم هذا خداعاً لأن الله بصير بهم ، ومطلع عليهم ، وما داموا قد انتقلوا من حظيرة الكفر إلى حظيرة الإيمان فالله يمحو سيئاتهم ويبدلها حسنات؛ لأن قوما عاشوا على الكفر

وألفوا خصاله ثم تركوا ذلك إلى الإيمان فهذا أمر صعب يحتاج إلى جهاد شديد مع النفس ، ويثيبهم الله تعالى بقدر مجاهدتهم لأنفسهم ، ويثيبهم المولى سبحانه وتعالى بسخاء .

وهناك معنى ثان في قوله تعالى :
{ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } [الأنفال : 39] .
أي : فيا من وقفتم موقف العداء من الإيمان ، وتعرضتم للكافرين التعرض الذي أعاد لهم التهذيب وحسن التعامل مع المؤمنين ، اعلموا أنه سبحانه وتعالى بصير بما عملتم ليكون الدين كله لله .
وهكذا نرى أن كلا من المعنيين يكمل الآخر .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَإِن تَوَلَّوْاْ فاعلموا أَنَّ الله مَوْلاَكُمْ . . . }

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40)

والله سبحانه وتعالى يرغب الناس حتى يؤمنوا ، ولكنه في ذات الوقت يبين لهم أن كثرة عدد المؤمنين ليست هي التي تعلي راية الإسلام وتصنع النصر للإيمان ، فيقول سبحانه : { وَإِن تَوَلَّوْاْ } .
وهنا شبهة في أن الله تعالى يحنن هؤلاء على أن يؤمنوا ، وأن يسلموا ، وأن يعودوا إلى حظيرة الحق ، وربما ظن ظان أن الإسلام يريد أن يقوى بهم ، ولذلك قال الحق : { وَإِن تَوَلَّوْاْ } أي إياكم أن يفت ذلك في عضدكم ، أو أن يقلل هذا الأمر من همتكم وشجاعتكم؛ لأنكم إنما تنتصرون بمدد من الله العلي القدير ، فهم إن لم يؤمنوا ، فاعلموا أن الإسلام لا ينتصر بهم ، وانتشاره ليس بكثرة المسلمين أو قلتهم؛ لأن النصر من عند الله ، وسبحانه ليس محتاجاً لخلقه ، وكثرة جنود الإسلام لا تصنع النصر؛ لأن نصر الله للمسلمين إن اتبعوا منهجه يتحقق سواء قلوا أم كثروا . ولذلك يلفت نظرهم وينبههم إلى أنه إن تولى هؤلاء ولم يؤمنوا ، فإياكم أن يؤثر ذلك على شجاعتكم؛ لأنكم لا تنتصرون بمدد من هؤلاء الذين رفضوا الإيمان ، ولكن بمدد من الله سبحانه وتعالى ، فالله هو مولاكم . وإذا كان الله مولى لكم أي ناصراً ومؤيداً فهو سبحانه وتعالى :
{ نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير } [الأنفال : 40] .
لماذا؟ .
لأن المولى إذا كان غير الله فهو من الأغيار ، قد يكون اليوم قويّاً قادراً على أن يأخذ بيدنا وينصرنا ، ولكنه قد يموت غداً؛ لذلك فهو لا يصلح مولى . وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمن ينصره فلا ينفع وليا ولا معيناً لأحد . والمولى الحق الذي يجب أن

نتمسك به هو الذي لا تصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهي بالموت وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً ، هذا هو المولى الذي تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أننا يجب ألا نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى فيقول : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ } [الفرقان : **58**] .

أي إذا أردت فعلاً أن تتوكل ، فتوكل على من هو موجود دائما قوي دائماً ، فتوكل على الله .

وقوله تعالى : { نِعْمَ المولى } يؤكد أن الله قوي قادر دائم الوجود ، وقوله تعالى : { وَنِعْمَ النصير } .

يؤكد أنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يدبره لك أعداؤك ، فلا يغيب عنه شيء . أنت تحاربهم بما تعرفه من الحيل وفنون القتال وهم يفعلون ذلك . ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حيلهم فيبطلها ، ويحقق لكم النصر بأن يلهمكم من الحيل ما لا يستطيعون مواجهته . ، يعطيكم مددا من السماء وهذا المدد هو الذي يحقق لكم النصر .

ويتحدث الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك عن الغنائم فيقول : { واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ . . } .

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (41)

ما سبب ذكر الغنيمة هنا؟ . وما المناسبة؟ . ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن القتال . ونهاية كل معركة ينتصر فيها المسلمون يكون فيها غنائم .

وهذه مناسبة الحديث عن الغنائم ، وبما أن الله سبحانه وتعالى يتحدث عن مدده للمؤمنين . وأنه ناصرهم ، وأنه نعم النصير ، ولكن الغنائم لا تجيء إلا نتيجة للنصر ، فكأن الله يريد من المؤمنين أن يتأكدوا أن النصر سيكون من نصيبهم؛ بدليل أن الحديث انتقل إلى الغنائم . والغنيمة هي كل منقول يأخذه المسلم المقاتل من الكافر ، والثابت أن الغنائم لم تكن تحل لأحد من الأنبياء قبل رسول الله صلى عليه وسلم .

ويقول الحق :

{ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ } [الأنفال : **41**] .

إذن فلله الخمس وتبقى أربعة أخماس توزع على المقاتلين . والخمس الذي هو لله كيف نقسمه؟

لقد ذكر القرآن أسلوب توزيع هذا الخمس بطريقة اختلف فيها العلماء؛ فالآية تقول :

{ فَأَنَّ للَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ } [الأنفال : **41**] .

ثم تزيد :

{ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل } [الأنفال : **41**] .
وقد قال بعض العلماء تمسكاً بظاهر الآية الكريمة : إن خمس الغنائم يوزع على من سماهم الله تعالى في كتابه العزيز وهم ستة : (الله ، الرسول ، ذو القربى ، اليتامى ، المساكين ، ابن السبيل) فتكون الأسهم ستة ، وجمهور العلماء على أنّ خمس الغنائم يقسم خمسة أسهم فيكون لله وللرسول سهم واحد لأنه لا يوجد فصل بين الله ورسوله ، والأسهم الأربعة الباقية من هذا الخمس توزع على الأنواع الأربعة (ذي القربى – اليتامى – المساكين – ابن السبيل) لكل نوع منهم سهم .
واختلفوا أيضاً في معنى { وَلِذِي القربى } هل هم القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم أم ممن؟
ثم بعد ذلك جاء نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل فلم يحدث خلاف فيه – والخلاصة : أن الغنائم كلها تقسم خمسة أقسام خمسها لهؤلاء الخمسة وأربعة أخماسها الباقية للجيش المقاتل؛ لأن الله تعالى بين حكم الخمس وسكت عن الباقي فدل ذلك على أنه للغانمين ثم يقول الحق :
{ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله } [الأنفال : **41**] .
وهم بطبيعة الحال مؤمنون بالله ، وكأن هذا القول جاء ليراجعوا إيمانهم إذا اعترضوا على هذا التقسيم . فإن طمع أحد منهم في الخمس الذي هو لله ورسوله ولم يقنع بأربعة الأخماس المقسمة –كما قال الله تعالى – يكون قد خدش إيمانه بمن أصدر هذا الأمر ، وسبحانه هو الذي أنزل هذا التقسيم . فمن زاغ وتطلعت عينه إلى شيء فليرد هذا الزيغ؛ لأن الذي قسم هو الله الذي نصر المقاتلين . وإذا كان النصر هو الذي جاء بالغنائم ، فالذي أعطى النصر هو الله سبحانه وتعالى ، والنصر سبب من الله ، وما يوهب للإنسان من الحق ، على العبد أن يقبل فيه قسمة الله .

ومثال ذلك ما أراده الله للإنسان المسلم من حسن التصرف في ماله ، فهو في حياته حر ويملك حق التصرف في هذا المال ، واحتراماً لمشاعرك الاجتماعية والإنسانية والعاطفية في البيئة التي تحيا فيها ، جعل الله لك الحق في الوصية بأن تخصص ثلث مالك لما تريد ومن تريد ، فقد ترى أن هناك إنساناً من غير أقربائك وهو بطبيعة الحال لن يرثك ، ولكنه خدمك في حياتك أو في مرضك أو في شيخوختك ، وأنت تريد أن تترك شيئاً من ثروتك له ، اعترافاً بجميله ، أو لعل هناك أناساً من معارفك تعرف أنهم أحوج من أبنائك ، فتخصص لهم بعضاً من المال ، شرط ألا يتعدى الثلث ، فيشاء الحق سبحانه وتعالى أن يضع للعواطف الإيمانية الإنسانية في الناس مجالاً ، فترك لك الحرية في أن تتصرف في ثلث التركة ثم قسم سبحانه الثلثين على الورثة .
إذن فقول الحق تبارك وتعالى :

{ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله } [الأنفال : 41] .

أي أنه سبحانه قد جعل من الإيمان أن يتم توزيع الغنائم بالشكل الذي حدده الله عز وجل ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَمَآ أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان يَوْمَ التقى الجمعان } [الأنفال : 41] .

والفرقان هو الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل؛ فرقاً واضحاً بشدة بحيث يكون ظاهراً للجميع . وقد أطلق الله الفرقان على القرآن الكريم في سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى : { وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفرقان } [آل عمران : 3 – 4] .

فحينما أنزل الله تعالى التوراة والإنجيل جاءت التوراة لتفرق بين الحق والباطل ، وأيضاً جاء الإنجيل ليفرق بين الحق والباطل ، وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تطلق كلمة « الفرقان » إلا على القرآن الكريم؛ لأن القرآن هو الفارق النهائي الذي لن يأتي فارق من بعده ، فلن ينزل كتاب سماوي آخر .

{ وَمَآ أَنزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان } [الأنفال : 41] .

الله سبحانه وتعالى يقصد هنا بيوم الفرقان يوم بدر الذي كان فرقاً بين حق وباطل؛ فرقاً لافتا للأنظار ، وقد أخذت كلمة الفرقان المعنى العام وهو أن يفرق بين الحق والباطل ، فالمسلمون كانوا قلة والكفار كانوا كثرة ، والمسلمون كانوا خارجين للاستيلاء على القافلة والعير ولم يكن لديهم أي عدة أو عتاد للحرب ، بينما استعد الكفار للحرب والقتال بالعدد والعتاد والفرسان ، وكان المسلمون يتمنون أن تكون قافلة قريش لهم ، وهي قافلة لا يحرسها إلا عدد قليل من الرجال ، لا شوكة لهم ، وأراد الحق تبارك وتعالى أن يواجه المسلمون وهم قلة جيشاً له شوكة أي له عدة وعتاد؛ لأن المسلمين ظنوا أن الاستيلاء على القافلة لن يستغرق منهم وقتا طويلا أو جهداً كبيراً ، فحراس القافلة عدد محدود وبلا سلاح قوي . لكن شاء الله عز وجل أن يخوض المؤمنون المعركة وهم قلة وأن ينتصروا ، حتى يعلم الجميع أن هذه القلة المؤمنة انتصرت بلا عددٍ ولا عُدَّة على من يملكون العدد والعدة ، وبذلك يظهر الفرق بين الإيمان والكفر ، وبين نصر الله وزيف الشيطان ، ولو استولى المسلمون على قافلة قريش لقيل : إن أية مجموعة من المسلحين كانت تستطيع أن تنهب هذه القافلة ، ولذلك لم يعطهم الله العير بل ابتلاهم بالنفير وهو الجيش الخارج من مكة بقصد الحرب وهو مستعد لها ليلفت النظر إلى هؤلاء المؤمنين الذين خرجوا بغير قصد الحرب وقد انتصروا على الكفار الذين خرجوا للحرب واستعدوا لها .

وكان المؤمنون ثلاثمائة وجيش الكفار ألفاً ، فإذا جاء النصر ، تأكد الكل أن كفة المؤمنين قد رجحت ، وإذا تعجب أحد كيف ينتصر هذا العدد القليل غير المسلح على هذا العدد الكثير والمسلح ، يمكن أن يرددوا قول الله تعالى :

{ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال : 41] .
وهذه المشيئة الإلهية هي التي قلبت الموازين .
وفي أول سورة البقرة يحكي الحق سبحانه وتعالى لنا قصة طالوت وجالوت ، ويروي كيف طلب بنو إسرائيل من نبي لهم أن تحدد السماء شخصاً يكون ملكاً عليهم ، ليقودهم في معركة ضد طاغية اسمه جالوت؛ أخرجهم من ديارهم وشردهم ، فلما جاء الأمر بأن يكون طالوت هو الملك ، جادل بنو إسرائيل في قيادته لهم . { قالوا أنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ المال } [البقرة : 247] .
كانوا هم الذين طلبوا أن يكون لهم ملك ، فلما جاء طالوت باختيار الله اعترضوا عليه . ثم خرج طالوت مع الذين اتبعوه وابتلاهم الله بنهر وهو عطاش ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : { فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بالجنود قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ } [البقرة : 249] .
وابتلاهم الله سبحانه وتعالى بأن مروا على نهر وهم عطاش ، وطلب منهم ألا يشربوا إلا أن يأخذ كل منهم قليلاً من الماء في كف يده ليرطب به فمه ، فلما وصلوا إلى النهر ، اندفعت أغلبيتهم ليعبوا ويشربوا ما شاء لهم ، والأقلية فقط هي التي امتثلت لأمر الله تعالى ولم تشرب ، وهؤلاء هم الذين بقوا مع طالوت وعبروا النهر ، لكنهم حين رأوا جيش الأعداء ، قالت أغلبيتهم ما جاء في القرآن الكريم وحكاه لنا : { فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ والذين آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا اليوم بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ } [البقرة : 249] .
أي أنهم خافوا من مواجهة جيش جالوت ورفضوا القتال ، إلا الأقلية منهم ، وهكذا حدثت لهم التصفية مرتين بالاختيار والابتلاء؛ الأولى بالصبر على العطش ، والثانية بمواجهة جيش العدو ، وهذه هي الأقلية الصافية التي رسخ إيمانها ، وقالوا ما جاء بالقرآن الكريم : { قَالَ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُواْ الله كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين }

[البقرة : 249] .
أي أن هذه الفئة المؤمنة التي بقيت والتي تخشى حساب الله في الآخرة لم تخفهم قلتهم ولا كثرة جنود جالوت ، بل قالوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وانتصروا بالفعل ، وكان هذا فرقاناً ظاهراً من الله عز وجل .
وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :
{ يَوْمَ الفرقان يَوْمَ التقى الجمعان } [الأنفال : 41] .
أي يوم التقاء جمع المؤمنين وجمع الكفار ، وتحقق نصر المؤمنين ، رغم قلة العدد والعتاد . ولذلك يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بالقول الكريم :

{ والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الأنفال : 41] .
أي أن الله عز وجل قادر على أن ينصر المؤمنين وهم قلة وغير مستعدين للقتال .
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدنيا وَهُم بالعدوة القصوى والركب أَسْفَلَ مِنكُمْ . . . }

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42)

ساعة تسمع « إذ » تعرف أنها ظرفٌ ، ومعناها : اذكر هذا الوقت ، اذكر إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، والعدوة شاطيء الوادي وجانبه . وهي جبل مرتفع؛ لأن الجبال إن كان بينها فضاء نسمي هذا الفضاء وادياً ، فيكون الوادي هو الفضاء بين جبلين ، ويكون المكان العالي الذي على يمين الوادي وعلى شماله عدوة .
وقوله تعالى :
{ بِالْعُدْوَةِ الدنيا وَهُم بالعدوة القصوى } [الأنفال : 42] .
توضيح وبيان لجغرافية المعركة ، وأهل الإسلام كانوا من ناحية المدينة ، وقوله تعالى : « دنيا » تأنيث الأدنى أي الأقرب ، فالمسلمون كانوا قريبين من المدينة . وكان الكفار قادمين من مكة ، ونزلوا في المكان الأبعد .
فقوله تعالى : { أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدنيا } [الأنفال : 42] .
أي في مكان قريب ، وموقع غزوة بدر - كما نعلم - قريب من المدينة ، أما كفار قريش فقد جاءوا من مكة . وبذلك جاءوا من مكان بعيد عن المدينة لذلك سماه الحق تبارك وتعالى هنا : { بالعدوة القصوى } أي في المكان البعيد عن مكة ، ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله : { والركب أَسْفَلَ مِنكُمْ }
والركب هو العير أي الجمال التي تحمل التجارة ، وكان المسلمون قد خرجوا ليأخذوها . ولما عرف أبو سفيان بذلك غيّر سير القافلة واتجه إلى ساحل البحر ، ويتكلم الحق سبحانه وتعالى عن سلوك أبي سفيان حينما أمر أن تسير القوافل بجانب ساحل البحر . وساحل البحر - كما هو معلوم - يكون دائماً أسفل من أي أرض يابسة . ويُتخذ سطح البحر إلى الآن مقياساً للارتفاعات والانخفاضات بالنسبة للمقاييس البشرية ، فيقال : هذا ارتفاعه مائة متر أو مائتا متر أو أكثر أو أقل بالنسبة لمستوى سطح البحر . وساحل البحر بالنسبة لسطح البحر متساو ، أما الأرض والجبال والوديان فهي تختلف في العلو والانخفاض فلا تصلح مقياساً للارتفاعات والانخفاضات ، بينما سطح البحر مستطرق استطراقاً سليماً ، بحيث لا توجد في سطح الماء بقعة

عالية وأخرى منخفضة .
وهكذا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن أسفل ما في الأرض هو ساحل البحر وقد اتخذ الناس سطح البحر مقياساً للارتفاعات .
ويقول الحق سبحانه وتعالى :
{ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الميعاد ولكن لِّيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً } [الأنفال : 42] .
أي لو أن المؤمنين اتفقوا مع الكفار على موعد ومكان ، لجاء بعضهم متأخراً عن الموعد أو منحرفاً عن المكان ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي حدد موعد المعركة ومكانها بدقة تامة فتم اللقاء في الموعد والمكان المحددين ليتم الأمر كما قدره الله سبحانه وتعالى ، والأمر هو معركة بدر ، وليلقى المؤمنون الكافرين ، لينتصروا عليهم .
{ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ } [الأنفال : 42] .
وهل يعني قول الحق { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ } أن الهلاك هنا هو الموت؟ لقد مات أيضاً بعض المؤمنين واستشهدوا .

وقول الحق : { ويحيى مَنْ حَيَّ } وهل الحياة هنا تعني مجرد البقاء على قيد الدنيا؟ . لقد عاش أيضاً من الكفار كثير رغم أنهم خاضوا معركة بدر . إذن فليس معنى الهلاك هنا الموت ، وليس معنى الحياة النجاة ، ولكن قول الحق { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ } تنطبق على الكفار سواء الذين ماتوا أو الذين نجوا؛ لأن الهلاك هنا هلاك معنوي ، فمن قتل من الكفارهلك . ومن نجا هلك أيضاً؛ لأنه بقتاله المؤمنين قد أورد نفسه مورد التهلكة بالعذاب الذي ينتظره في الآخرة ، إلا إذا أدركته رحمة الله وآمن قبل أن يأتي أجله . والذين حيوا هم المؤمنون ، والمراد - إذن - ليكفر من كفر ، ويؤمن من آمن عن يقين .
ولقد قلنا من قبل : إنَّ الحق سبحانه وتعالى أطلق الحياة على معان متعددة ، فهناك الحياة التي فيها الحركة والحس ، وهذه تتحقق ساعة أن تدخل الروح الجسد ليكون للإنسان حياة . وهذه الحياة هي للمؤمن والكافر . ولكن الحياة بهذا الشكل؛ حياة منتهية إلى موت غير موقوت ننتظره في أي لحظة . ولكن الحياة المطلوبة لله هي الحياة التي لا يأتي فيه موت . ولا يكون فيها تعب وشقاء ، تلك هي الحياة الآخرة ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .
أي أنها الحياة الحقيقية . إذن فالذي يؤمن إيماناً حقيقيا يعطيه الله تعالى حياة الخلود في الجنة .
ولذلك نستمع جميعاً إلى قول الحق تبارك وتعالى :
{ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 42] .
ومنا من يتساءل : كيف يخاطب الله الناس وهم أحياء ويقول لهم : إذا دعاكم لما يحييكم؟ ونقول

: إن الحق سبحانه وتعالى يريد لنا بالإيمان حياة خالدة في الجنة . ثم يختم الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

{ وَإِنَّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ }

ومعنى سميع وعليم أنه سبحانه وتعالى مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما في الصدر يعلمه ، وما هو في أي حس من أحاسيس الإنسان هو عليم به؛ لأنه أحاط بكل شيء علما .

ووسائل الإدراك العلمي في الإنسان هي السمع والبصر والذوق واللمس والشم ، هذه هي الحواس التي تعطي العلم للإنسان الذي لم يكن يعلم شيئاً .

وهو سبحانه وتعالى القائل : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .

أي أن هذه الحواس هي التي تعطي الإنسان ما لم يكن قد علمه ، وكلما علم شيئاً ، فليقل : الحمد لله .

ويعلمنا الله سبحانه وتعالى كيف يتم قدره فيقول : { إِذْ يُرِيكَهُمُ الله فِي مَنَامِكَ . . . }

إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43)

والحق سبحانه وتعالى إذا أراد معركة فاصلة ، يجعل الخواطر في كل قوم مهيجة على الحرب؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد للفئتين أن يشتبكوا ، ويفصل الحق في المسألة ، وهذا الاشتباك لو حدث بالمقاييس العادية ربما جَبُنَتْ الفئة القليلة عن أن تواجه الفئة الكثيرة . ولكي تتم المعركة لا بد أن يكون كل من الفريقين المتحاربين واثقا من النصر؛ لأنه لو أيقن أحدهما أنه سيهزم لما دخل إلى المعركة .

والله سبحانه وتعالى يُعلم رسوله والمؤمنين كيف أعد الله الإعداد النفسي للمعركة ، فأرى النبي في الرؤيا أن عدد الكفار قليل حتى يؤمن أن المؤمنين سينتصرون عليهم بسهولة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه رؤيا توضح أن عدد الكفار قليل في أعين المؤمنين ، وأخبر قومه بذلك وقد قلل عدد المؤمنين في أعين الكفار ، ليتم اللقاء وتحدث المعركة .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التقيتم }

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)

إذن رأى المؤمنون الكفار قليلاً ، ولو كثَّر الله الكفار في أعين المؤمنين ، أو كثّر المؤمنين في أعين الكفار ما حدثت المعركة . ولكنه سبحانه وتعالى شاء أن يقلل كل فريق في نظر الآخر ليبدأ القتال ، ويحكي سيدنا عبد الله بن مسعود :

لقد قلت لجار لي أظنهم سبعين ، فقال : لا بل مائة .

وهكذا كان عدد الكافرين قليلاً في نظر المؤمنين ، وكان عدد المؤمنين بالفعل قليلاً في عيون الكافرين .

وأيضاً شاء الحق سبحانه أن يجعل في ذلك بلاغاً من إعلامات النبوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد رأى النبي عدد الكافرين في المنام وهم قليل ، وأخبر صلى الله عليه وسلم قومه بذلك . ودار القتال الذي أراده الله تعالى :

{ لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور } [الأنفال : 44] .

والأمر الحاسم هو التقاء الفئتين المتقاتلتين في معركة بدر ليفصل الله بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والكفر؛ حتى ترجع الأمور إلى الله ، فلكل واحد من جنود المعركة جزاءٌ من عند الله سبحانه وتعالى؛ المؤمنون لهم جزاء على قدر نياتهم وإخلاصهم في الجهاد ، الكافرون عليهم غضب من الله تعالى . والغضب منازل ، كل منزلة من الغضب حسب أحوال صاحبها .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور } نجد فيه كلمة « الأمور » وهي جمع أمر ، وفي المعارك ألوان مختلفة من الأوامر؛ فلكل جندي أمر ، وهناك أمر عام تنتهي إليه المعارك وهو انتصار طرف وانهزام طرف آخر . ولكي يتم النصر للمؤمنين فإن الله يطلب منهم أن يثبتوا في المعركة؛ فيقول سبحانه وتعالى : { يأيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45)

وساعة تسمع كلمة « فئة » فاعلم أن معناها جماعة اختصت بخوض المعارك في ميدان القتال ، فليست مطلق جماعة ، بل هي جماعة مترابطة من المقاتلين؛ لأن كل مقاتل يفيء لغيره من زملائه ، أي جماعة أخرى غير مترابطة تستطيع تفريقهم بصرخة أو عصا ، أما المقاتلون فأنت لا تصرفهم إلا بقوة أكبر منهم ، ويحاول كل منهم أن يحمي زميله ، إذن فكل منهم يفيء إلى الآخرين .

والحق تبارك يقول : { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله } [البقرة : 249] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ } [آل عمران : 13] .

إذن فالفئة هي جماعة في الحرب .

وقوله تعالى :

{ لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا } [الأنفال : 45] .
يُقصد به ساعة حدوث المعركة ونشوب القتال؛ لأن الحرب تقتضي أولاً إعداداً ، ثم تخطيطاً يتم قبل الالتحام ثم ذهاباً إلى مكان المعركة . وقوله تعالى : { إِذَا لَقِيتُمْ } أي أن المسألة قد وصلت إلى الواجهة مع الكفار ويقول الحق تبارك وتعالى { فاثبتوا } والثبات هنا معناه المواجهة الشجاعة ، لأن الإنسان إذا ما كان ثابتاً في القتال ، فالعدو يخشاه ويهابه ، وإن لم يكن كذلك فسوف يضطر إلى النكوص ، وهذا ما يُجريء الكفار عليكم .
وما دمتم قد جئتم إلى القتال ، فلا بد أن يشهد الأعداء شجاعتكم؛ لأنكم إن فررتم فهذه شهادة ضعف ضدكم .
ولذلك لا بد من التدريب على الثبات والقتال ، وهذا هو الإعداد المسبق للحرب؛ بالتدريب القوي والتخطيط الدقيق ، وألا يتولى أحد منكم ويفر لحظة الزحف لأن هذا العمل هو من أكبر الكبائر ، والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله } [الأنفال : 16] .
{ يُوَلِّهِمْ } أي يعطيهم ، و { دُبُرَهُ } أي ظهره ، وهذا تقبيح لعملية الفرار ، لأن الدبر محل الصيانة ومحل المحافظة . ونعلم أن هناك من قال للإمام عليّ -كرم الله وجهه- : إن درعك له صدار وليس له ظهر ، أي أن الدرع يحمي صدرك إنما وراءك لا يوجد جزء من الدرع ليحمي ظهرك . فقال : (لا كنت إن مكنت خَصمي من ظهري) ، أي أنه -كرّم الله وجهه- يفضل الاستشهاد على أن يُمَكِّن خصمه من ظهره ، فلو أنَّ درعه من الأمام ومن الخلف ، ففي هذه الحالة يكون في نيته أن يمكِّن خصمه من ظهره ، ولذلك جعل الدرع يحمي الصدر فقط ، وهو على يقين أنه لن يدير ظهره لعدوه ، ويسمون تلك الحالة الأخرى « ظاهرة ضبط النفس » أي أنها طريق لمنع الشيء أن يحدث ولو في ساعة الشدة؛ لأن المقاتل حين يدخل المعركة ، وهو يحمي صدره فقط فهو لا يتولى ليفر؛ لأنه يعلم أنه لو تولى فسيكشف لهم ظهره وسيتمكن منه عدوه وسوف يُقتل .

والحق سبحانه وتعالى حين يقول : { فاثبتوا } لا يطلب هذا الثبات على إطلاقه ، ولكن يريد من المؤمنين الثبات والقوة في القتال . أما غذا كانت الفئة التي يواجهها المؤمنون كبيرة العدد أو كثيرة العتاد فذلك يتطلب الدراسة والاستعداد ، وهنا طلب الحق الثبات ليعلم المؤمنون يقيناً؛ أنهم لا يواجهون عدوهم بقوتهم ولكن بقوة الله الذي يجاهدون من أجله . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { واذكروا الله كَثِيراً } ، أي تذكروا وأنتم تقاتلون أن الله معكم بعونه ونصره ، فإن لم تستطع أسبابكم أن تأتي بالنصر ، فإن خالق الأسباب يستطيع بقدرته أن يأتي بتالنصر .
وكلنا نعلم أن الحق تبارك وتعالى قد وضع في كونه الأسباب ، فإذا استنفدنا أسبابنا ، اتجهنا إلى

خالق الأسباب ، ولذلك نجد أن من لا يؤمن بالله إذا خانته الأسباب ينتحر أو ينهار تماماً أو يصاب بالجنون ، ولكن المؤمن يقول : إذا خانتني الأسباب فمعي رب الأسباب وخالقها ، ويأوي إلى ركن شديد .

إن الطفل الصغير إذا اعتدى عليه أحد يقول : إن لي أباً أو أخاً سيرد عني الإيذاء؛ لأن الأسباب لا تعطيه قدرة الرد ، فكيف لمن له رب قدرته فوق قدرة الكون كله ، وقوته موجودة دائماً .

ولذلك نجد قوم موسى حين وصلوا إلى شاطيء البحر ووجدوا أمامهم الماء ، ونظروا خلفهم ورأوا جنود فرعون مقبلين من بعيد ، قالوا : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ }

وكانوا منطقيين فيما قالوه ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم . وليس لهم من طريق للنجاة باستخدام الأسباب العادية في هذا الكون ، ولكن موسى عليه السلام بقوة إيمانه بالله تعالى يقول ما جاء على لسانه في القرآن الكريم : { قَالَ كَلاَّ } [الشعراء : 62] .

أي إن فرعون وجنوده لن يدركونا ، ولم يفهم قوم موسى؛ لأن البحر أمامهم وجنود فرعون وراءهم ، وأضاف سيدنا موسى عليه السلام بملء فيه قوله : { إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] .

أي أنه رفع الأمر من الأسباب إلى المسبب ، وإذا بالله يأمره أن يضرب بعصاه البحر؛ فينفلق؛ وتظهر الأرض اليابسة . ويعبر بنو إسرائيل البحر ، وعندما وصل موسى وقومه إلى شاطيء البحر بعد أن عبروا ، أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى يعود الماء إلى الاستطراق . فلا يتمكن جنود فرعون من اللحاق بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال لموسى : { واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24] .

أي لا تتعجل وتضرب البحر ليعود مرة أخرى لاستطراق الماء بل اتركه على حاله ساكناً فما أنجى الله به بني إسرائيل سيغرق به آل فرعون ، وبذلك أنجي وأهلك بالشيء الواحد ، وهذا لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

{ ياأيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ } [الأنفال : 45] .

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها وكيف تعاني النفس من كرب عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك في ميدان القتال ، ولذلك طلب من المؤمنين لأن يتذكروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم في المعركة وأنه سبحانه وتعالى معهم ، فليذكروا هذا كثيراً ليوالي نصرهم على عدوهم؛ لأنهم إذا ما داوموا على ذكر الله تعالى فسيقوي هذا الذكر إيمانهم ، ويجعل في قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر .

وذِكْرُ الحق كلمة { كَثِيراً } هنا يعني أن الإنسان قد يذكر الله عند اليأس فقط ، فإن جاءت الحياة بعد ذلك بالرخاء فقد ينسى ذكر الله؛ لذلك يؤكد سبحانه وتعالى هنا أن يكون ذكر الله كثيراً ، ليوالي الله نصر المؤمن على عدوه . ومثال ذلك : أننا نجده سبحانه وتعالى حينما يستحضر الخلق المؤمنين للصلاة في يوم الجمعة يقول : { يأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ للصلاة مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة : 9-10] .

يطلب الحق سبحانه وتعالى ذلك من المؤمنين وهو العليم بأنهم يداومون الولاء له سبحانه كل يوم خمس مرات .

ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله تعالى ، وينبهنا أن نداوم على ذكره فكأنه يقول؛ إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر الله ، أو تعتقدوا أن ذكر الله في المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذكر الله في كل أحداث الحياة .

فإن فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين .

وذكر الله كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به . وهكذا تكون الصلة دائمة بينك وبين الله عز وجل في كل وقت .

مثال ذلك ما حدث في عام 1973 في معركة العاشر من رمضان ، كان ذكر الله يملأ القلوب واستمد الجند من قولهم : { الله أكبر } طاقة هائلة واجهوا بها العدو ، واقتحموا خط « بارليف » . وأعانهم الحق بمدد الإيمان من عنده ، وأوجد في نفس كل منهم طاقة هائلة تحقق بها النصر؛ وذلك بإجادة التدريب ومداومة الذكر لله تعالى .

ثم يقول الحق بعد ذلك : { وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ واصبروا . . } .

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46)

وعرفنا من قبل أن طاعة الله تعالى تتمثل في تنفيذ ما أمر به في المنهج ، وطاعة الرسول هي طاعة تطبيقية في السلوك ، وهي طاعة لله أيضاً؛ لأن الرسول مبلغ عن ربه ، ولا بد للطائع أن يتعبد عن التنازع مع إخوته المؤمنين؛ لأن التنازع هو تعاند القوي ، أي توجد قوة تعاند قوة أخرى ، والقوى المتعاندة تهدر طاقة بعضها البعض ، فالتعاند بين قوتين يهدر طاقة كل منهما فتصبح كل قوة ضعيفة وغير مؤثرة . فكونوا يداً واحدة؛ لأنكم إن تنازعتم فستضيع قوتكم وتقابلون الفشل ، أي لن تحققوا شيئاً مما تريدون لأنكم أهدرتم قوتكم في التنازع ، ولم تعد لكم قوة تحققون بها ما تريدون وستذهب ريحكم في هذه الحالة . والفشل هو إخفاق الإنسان دون المهمة التي كان

يرجوها من نفسه .
وانظروا إلى عبارة الحق تبارك وتعالى :
{ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال : 46] .
نحن نعرف أن الريح يُطلق على الهواء الذي حيزه الفضاء على سطح الأرض ، إذن فمكان الهواء هو أي مكان خال على سطح الأرض ، ولذلك نجد العمود المكون من الأسمنت والحديد مثلاً ، لا يوجد فيه هواء لأنه لا يوجد فيه فراغ ، أما الفواصل التي بين الأعمدة فيوجد فيها هواء لأن فيها فراغاً . ونعلم أن مقومات الحياة طعام وشراب وهواء ، ولكن الهواء هو المقوم الأول للحياة؛ لأنك لا تستطيع أن تصبر على الهواء مقدار شهيق وزفير .
إذن فالهواء هو المقوم الأول لحياتك وحياة كل من في هذا الكون ، وما دام الهواء محيطاً بالشيء بحيث يتساوى الضغط من جميع نواحيه يكون الشيء ثابتاً ، فإذا فرّغت الهواء من ناحية قام ضغط الهواء بتحطيم هذا الشيء . وفي التجارب المدرسية شاهدنا تأثير ضغط الهواء ، وكانوا يأتوننا بصفيحة وضع فيها ماء ويتركونها تغلي على النار ، فيطرد بخار الماء الهواء الموجود في الجزء الفارغ من الصفيحة ليملأ البخار هذا الفراغ ، ثم يغلقون الصفيحة بإحكام ويسكبون عليها من الخارج ماءً بارداً؛ فيتكثف البخار ، ويقل حجمه ، ويصبح جزء من الصفيحة خالياً من الهواء ، فتنهار جدران الصفيحة إلى الداخل بسبب ضغط الهواء خارج الجدران ، وتفريغ الهواء داخل الصفيحة . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حينما يعذب قوماً أو ينزل بهم عقاباً ، فهو يرسل عليهم ريحاً . ويقول جل وعلا : { وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } [الحاقة : 6-7]
وكذلك نجده سبحانه وتعالى يقول : { هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا } [الأحقاف : 24-25]
وأيضاً يقول الحق سبحانه عن الريح التي تغرق بأمواجها العالية : { إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ }
[يونس : 22]
إذن فكلمة ريح تعبر عن القوة المدمرة للهواء؛ لأن الريح إذا اتحدت قوتها واتجاهها أصبحت مدمرة . ولكن إن قابلتها ريح ثانية فالتوازن يحدث بين القوتين . ولذلك حين يستخدم الحق كلمة الريح لا يتكلم عنها إلا للتخريب والتدمير . أما إن تكلم عنها للخير فسبحانه يأتي بكلمة « رياح »؛ لأن تعدد اتجاهات الرياح هو الذي يوجد التوازن في الحياة . فإذا أراد الله أن يهلك بالريح جاء بها من جهة واحدة فتصير قوة الريح من ناحية لا تعادلها قوة أخرى للريح من الجهة المقابلة لتتعادل القوتان . { وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ } [الفرقان : 48]

.

ويقول سبحانه وتعالى : { وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ } [الحجر : 22] .

أي أن الرياح تنقل اللقاح بين النبات ، فيتم التلقيح وتنبت الثمار ويأتي الخير . ولكن هناك آية واحدة جاءت فيها كلمة « ريح » وكانت تحمل الخير في قوله تعالى : { حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا } [يونس : 22] .

وسبحانه وتعالى عندما استخدم كلمة { ريح } في هذه الآية وصفها بأنها { طَيِّبَةٍ } . وهنا في الآية سبحانه وتعالى :

{ وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال : 46] .

و « ريحكم » أي قوتكم؛ لأن الريح هنا معناها القوة التي تدمر عدوكم . ونعلم أن السفن في الماضي كانت تُبحر بقوة الريح . وعندما تقَّدم العلم وجاء البخار والكهرباء أُلغِي شراع المراكب واستخدم بدلاً منه ماكينات تدفع حركة السفينة .

وتطلق كلمة { الريح } على الرائحة ، فيقال : (ريح عطرة) ، وهذه الرائحة تبقى في المكان حتى بعد أن يغادره من استخدم هذه الرائحة ، ولكل إنسان من رائحة خاصة ، تماماً كما أنّ لكل إنسان بصمة خاصة ، ولكننا لا نستطيع أن نميزها ، ولكن الكلاب المدربة تميز الرائحة الخاصة بالإنسان ، فيأتي الكلب ويشم رائحة الإنسان ويتتبعه إلى المكان الذي ذهب إليه . أو يستطيع أن يخرجه من بين عشرات الأشخاص . ولا تختلط رائحة أحد بأحد رغم وجودهم في مكان واحد ، وإلا لما استطاع الكلب المدرب لأن يميز رائحة شخص معين ضمن عشرات الأشخاص الموجودين .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } يعني بأن تنتهوا ولا يكون لكم أثر؛ لأنه ما دام لكم أثر في الأرض فلكم ريح تميزكم . وتلك التي – كما قلنا – أن الكلاب المدربة تميزها ، ولكن الإنسان إذا مات ودفن فلا رائحة له . ويدلنا القرآن الكريم على ذلك حين يتكلم عن قصة يوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته في الجب . وعثرت عليه قافلة ، ثم اشتراه ملك مصر ، ثم دخل السجن وخرج وأصبح هو عزيز مصر . وجاءه إخوته وأعطاهم يوسف عليه السلام قميصه ليلقوه على وجه أبيه يعقوب؛ ليرتد بصيراً ، بعد أن أذهب الحزن بصره ، يقول الحق عن خروج العير من مصر إلى الشام حيث كان يعيش سيدنا يعقوب :

{ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ } [يوسف : 94] .

أي أن القافلة حين خرجت من بين المباني التي يمكن أن تكتم الريح بقوة كتلتها؛ لأن المباني لها إشعاعات قد تكتم الريح وتحجبه ، وبعد أن صارت القافلة في الخلاء عرف يعقوب عليه السلام ريح ابنه يوسف من القميص الذي يحملونه : { قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ

}
ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :
{ واصبروا إِنَّ الله مَعَ الصابرين } [الأنفال : 46] .
وهذه تتمة الصورة التي يريدنا الله أن نلتفت إليها ، فقد أمرهم الله أن يثبتوا في القتال ، والقتال يحتاج إلى قوة وإلى عدم تنازع وإلى صبر على الشدائد؛ خصوصاً إذا كان عدوك صابراً شديد البأس .
إذن ففي المعركة يريد الله عز وجل من المؤمنين الثبات في القتال وعدم الفرار ، وذكر الله كثيراً ، وعدم التنازع حتى لا تضيع قوة المؤمنين ، ويوصيهم سبحانه بالصبر؛ لأن عدوهم قد يكون عنده صبر وجلد ، فلا بد أن يمتلك المؤمن رصيداً من الجلد والصبر؛ يُمَكّنه من هزيمة عدوه ، وصفة الصبر تدل على المنافسة . وهي مأخوذة عندما كانوا يغطسون في الماء ، فالذي يبقى تحت الماء أكثر من الآخر يكون نفسه أطول . ولذلك فسيدنا عباس وسيدنا عمر – رضي الله عنهما – دخلا في منافسة في الغطس . وقال له : نافسني ، أي لنرى من الذي سيمكث تحت الماء أكثر – ويكون { صابراً } أي يتحمل أكثر في المواقف الصعبة ويصبر صبراً فوق صبر الخصوم .
وقوله الحق عز وجل هنا :
{ إِنَّ الله مَعَ الصابرين } [الأنفال : 46] .
يثبت به سبحانه وتعالى أن كل مؤمن عليه أن يشعر أن الله تبارك وتعالى هو الذي انتدبه ليقوم بهذه المهمة القتالية وهو معه ، فلا تخور نفسه؛ لأن الضعيف إذا ما تحصن بالقوي؛ أعطاه الجرأة والقدرة على الاحتمال ، تماماً كالولد الصغير ، إذا مشى في الشارع وحده قد يعتدي عليه الأولاد الآخرون ، ولكن إذا كان يسير مع أبيه لا يقترب منه أحد ، فما بالك بالإنسان الذي هو مع ربه؛ لذلك يوصي الحق كل مقاتل أن يتذكر أنه في معية ربه وأن أي حدث ضار في الكون لا يستطيع أن يناله مهما كان ضعيفاً لأن قوة الله معه .
ولذلك يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يابن آدم مرضت فلم تعدني . قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده . . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . يابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه . . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي . يابن آدم استسقيتك فلم تسقني؟ قال يا رب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه . أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي »

فإذا مرض إنسان فقد سُلبت منه العافية فلا يستطيع أن يسير ولا أن يتحرك ، بل يرقد في فراشه ليتألم ، ويوضح لنا الحق سبحانه وتعالى : أنا إن سلبت منه العافية ، وهي نعمة فأنا عنده . ولذلك إياك أن تفزع إذا تركتك النعمة ما دام المنعم معك . والمريض المؤمن يستشعر أن الله معه .

وحين يكون المسلم في معيّة الله فإن مقاييس المادة والبشريات لا تجيء أبداً ، والمثال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر في الغار ، وقد جاء الكفار عند باب الغار فرآهم أبو بكر رضي الله عنه فقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . هذا كلام منطقي مع النظرة المادية ، فلو انحنى أحد هؤلاء الكفار ونظر من باب الغار لرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطمئن أبا بكر وينفي عنه ما جاء في باله من خوف أن يراهما الكفار . كان المفروض أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا اطمئن ، إنهم لن ينظروا داخل الغار ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما وفي ذلك قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : « قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

وما دام الله ثالثهما تكون المعيّة موجودة ، وإذا كنت في معيّة من لا تدركه الأبصار ، أتدركك الأبصار؟ . طبعاً لا تدركك أبصار الأعداء والخصوم . اللهم اجعلنا في معيّتك دائماً .

ثم يكمل الحق سبحانه وتعالى ما يريد ألا يكون عليه المؤمنون في ساعات الشدة فيقول تبارك وتعالى : { وَلاَ تَكُونُواْ كالذين خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ الناس . . . }

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)

والذين خرجوا من ديارهم بطراً هم الكفار عندما علموا أن أبا سفيان قد نجا بالقافلة ولم يتمكن المسلمون من الاستيلاء عليها ، وهم قد خرجوا من مكة ليخلصوا القافلة من أيدي المسلمين ، فلما قيل لهم إنَّ القافلة نجت بقيادة أبي سفيان فارجعوا . قالوا : لا يكفينان هذا ، بل لا بد أن نخرج ونقاتل محمدا ومن معه ، وننتصر عليهم وندق الطبول ونذبح الذبائح ليعلم أهل الجزيرة بخبر هزيمة محمد ومن معه فلا يجرؤ احد أن يتعرض لقافلة من قوافلنا .

إذن فهم لم يكتفوا بأن أموالهم قد رجعت إليهم ، بل أرادوا أكثر مما يقتضي الموقف ، أرادوا أن يخرجوا في مظاهرة ضلالية للمفاخرة والتكبر تُثبت أن لهم قوة .

وكان يكفيهم نجاة القافلة وينتهي الأمر . وكان عليهم أن يرجعوا ، ولكنهم أرادوا أن يقوموا بمظاهرة لا لزوم لها .

إذن فالمسألة شماتة ، وهذا لون من البطر؛ أن تكون عندك نعمة فلا تقدرها حق قدرها ، وتحب أن تعلو عليها . ويقال فلان بطران إذا أحضروا له الإفطار من الفول مثلاً ويقول : إنه يريد المربى والزبد وعسل النحل . وهكذا فعل كفار قريش ، فلم يكتفوا بنجاة القافلة ، بل استخفوا هذه النعمة فلم يكتفوا بها وطلبوا المزيد .

وقوله سبحانه وتعالى : { وَرِئَآءَ الناس }

أي يريدون بالحرب مع رسول الله والذين آمنوا؛ السمعة بين الناس ، وأن يعرف العرب أنهم خرجوا إلى المدينة وقاتلوا محمداً وصحبه لتكون لهم سمعة وهيبة بين الناس في الجزيرة العربية .

وقوله تعالى :

{ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله } [الأنفال : 47] .

لأن الناس حين يرون الكفار المعاندين لمنهج الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وقد صارت لهم اليد العليا ، وهم يرقصون ويغنون لانتصارهم ، ويرون المسلمين وهم مختفون خائفون من مواجهة الكفار ، فسوف يغري ذلك الناس باتباع منهج الكفر ، فكأن الكفار برغبتهم في قتال رسول الله وصحبه إنما يصدون عن سبيل الله . ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ليوضح : لا تحسبوا أنهم بعيدون عن علمي .

{ والله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [الأنفال : 47] .

أي أن الله سبحانه وتعالى محيط بكل أعمالهم ، لا يغيب عنه عمل واحد مما يفعلونه ، هو محيط بهم تماماً وهم لا يستطيعون أن يفلتوا منه .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى دور الشيطان وأعوانه وما يفعله بالكافرين؛ فيقول تبارك وتعالى : { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ . . . } .

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (48)

وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه الكفار وهم قليل وذلك من صنع الله تعالى لتتم المعركة ، وبدأ الشيطان يزين للكافرين أعمالهم ويمتدحها ، ويغويهم : أنتم كثيرون ولا أحد مثلكم في فنون القتال وستحصلون على النصر في لمح البصر . لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يثبت المؤمنين ويقويهم ، ولذلك شاء الله سبحانه أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الكفار وهم قليل . والواقع أنهم قليل؛ لأن النصر ليس هنا بالعدد ولكن بتأييد الله تعالى ، ومهما كثر الكفار فهم أمام تأييد الله قليل . ويحاول الشيطان أن يزين للكفار قتال المؤمنين ، أي يجعله محبباً

إلى نفوسهم وأنهم سيحققون النصر ، ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة . وهكذا صور الشيطان لهم عملية قتال المسلمين في صورة محببة إلى قلوبهم . وهنا نرى بوضوح غباء الشيطان وعجزه عن أن يعلم قضاء الله ، فلو علم ما ستنتهي إليه معركة بدر ما زين للكفار دخول المعركة؛ لأن المعركة انتهت بنصر المسلمين وقتل صناديد قريش ، وعلت صورة المؤمنين في الجزيرة العربية كلها . ولم يكن النصر هو ما يريده الشيطان ، ولكنه لجهله زين للكافرين المعركة .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ } [الأنفال : **48**] .

أي أن وسوسة الشيطان للكفار كانت في صورة تضخيم قوتهم وأن أحداً لن يغلبهم في قتالهم ببدر ، وأنه – أي الشيطان – سيناصرهم في المعركة ويجيرهم إن حدث لهم سوء ، ولكن هل للشيطان سلطان على أن يُعين الكفار؟ نحن نعلم أن الشيطان ليس له سلطان إلا التزيين فقط ، فكيف يكون له سلطان على نتيجة المواجهة بين الحق والباطل؟ . إن الشيطان يأتي في الآخرة فيطلب منه الكفار أن يجبرهم من عذاب الله تعالى؛ لأنه هو الذي أغواهم وزين لهم سوء أعمالهم وجرهم إلى طريق النار ، فيتبرأ منهم ويقول لهم : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ } [إبراهيم : **22**] .

أي أنه يقول للكافرين : أنا لم أجبركم على المعاصي ، فلم يكن لي عليكم سلطان القهر؛ لأقهركم على أن تفعلوا شيئاً ولا سلطان الحجة لأقنعكم بأن تفعلوا المعاصي ، ولكني بمجرد أن دعوتكم استجبتم لي؛ لأنكم تريدون المعصية واتباع شهواتكم . وقوله : { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ }

وأصرخ فلاناً أي سمع صراخه فذهب إليه لينقذه ، والإنسان عندما يواجه قوة أكبر منه يلجأ إلى الصراخ لعل أحداً يسمع صراخه ويأتي لنجدته . والذي يسمع الصراخ إما أن يكون ضعيفاً فلا يستجيب؛ لأنه لا يستطيع أن ينقذ ذلك الذي يواجه الخطر ، وإما أن يكون قوّياً فيذهب لنجدته ، فيقال : (أصرخه) أي أنقذه وأزال سبب صراخه ، وقوله تعالى : حاكيا ما يقوله الشيطان { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ }

أي أن الشيطان لا يستطيع أن ينجيهم من العذاب وينقذهم منه ، فيزيل سبب صراخهم : { وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ }

أي أنتم لا تستطيعون دفع العذاب عني .

وقد أخذ الشيطان يزين لهم أعمالهم ويعدهم كذباً بأنه سيجيرهم ويؤازرهم ويعمل على نصرهم حتى اقترب المؤمنون والكفار من بعضهم البعض وأصبحوا على مدى رؤية العين .

{ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفئتان نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي برياء مِّنْكُمْ } [الأنفال : 48] .

أي أنه بمجرد الترائي بين المؤمنين والكفار ، وقبل أن يلتحموا في المعركة ويبدأ القتال هرب الشيطان وتبرأ من الكفار وجرى بعيداً ، وهذا ما يشرحه الله تعالى في قوله : {كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي برياء مِّنكَ إني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين } [الحشر : 16] .

وهذا كلام منطقي مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم؛ فقال له الله عز وجل : { وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يَوْمِ الدين } [ص : 78] .

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة : { قَالَ أَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الأعراف : 14] .

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء أمام قوة الله ، فقال الحق تبارك وتعالى : { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم } [الحجر : 37-38] .

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء ، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب ، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم ، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض ، هرب الشيطان وفزع ونكص على عقبيه ، وأعلن خوفه من الله؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب .

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذي سيصيبه حتماً ، ولم يفزع الشيطان – إذن – حبّاً لله تعالى .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى : { إِذْ يَقُولُ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ . . . }

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (49)

« المنافق » كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش في الجبال في سراديب ، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه ، فهو يسرع إلى جحره الذي يشبه السرداب ، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له ، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية ، فينجو من الافتراس ، فكأنه فتح لنفسه نفقاً ، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به .

ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به ، وبينما المؤمن منسجم النفس؛ ينطق لسانه بما في قلبه ، والكافر أيضا كذلك منسجم ينطق لسانه بما في قلبه من الكفر

، ولكن المنافق متخبط مع نفسه ، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر ، وهكذا تتعاند ملكات المنافق ، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية ، وحسبك من المنافق أنه متعاند في الملكات .

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله : { وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ } [البقرة : 14] .

إذن فالذاتية ضائعة؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً ، ولكن الذي تتعاند ملكاته يعيش دائما في قلق نفسي وحيرة . ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه ، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها ، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث ، ولكن لا بد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها ، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار ، ويقول الله تعالى :

{ إِذْ يَقُولُ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ } [الأنفال : 49] .

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة في أنفسهم ، وتملؤهم عزة الإيمان ، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد؛ لأنهم يكرهون المؤمنين؛ ولا يتمنون لهم خيراً ، فهم في نفاقهم كفار ، في قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون : أصاب هؤلاء الغرور بدينهم . ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوي العزيز ، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر ، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه . والمؤمنون ينسبون كل شيء لله تبارك وتعالى؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التي لا تعد ولا تحصى وما دامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله ، فإن الله يزيده منها؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها ، والمغرور يستعلي بأي خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذي لا يستعلي أبداً بها؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له ، وأن الفضل لله تعالى ، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين :

{ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ } [الفتح : 29] .

والشدة هنا ليست غروراً ، ولكنها طبع وملكة ، ولو كانت غروراً لبقيت كما هي ، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً ، ولا يمكن أن يجعله إيمانه في قالب جامد؛ لأن الإيمان يعطي المؤمنين مرونة أمام الأحداث ، لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه ، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة في التعامل مع المؤمنين ، ولا هو رحيم على إطلاقه؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة في مواجهة الكفار .

وكان سيدنا أبو بكر – رضي الله عنه – معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه

مليء بالرحمة على المؤمنين . ولكن عندما جاءت حرب الردة لمانعي الزكاة ماذا حدث؟ . جلس هو وعمر بن الخطاب ، والمعروف عن عمر أنه كان شديدا ، وجلسا يتشاوران ، وكان رأي عمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة؛ لأنهم قالوا : لا إله إلا الله ، فقال له أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » .

هذا هو أبو بكر الذي عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن في قوة وشدة في الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة . ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها ، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن في مواجهة الكفر . المؤمن – إذن – لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة ، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين ، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين ، وعزيز حين تكون العزة للدين ، وذليل حين تكون الذلة للدين . إذن فقول المنافقين : { غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ } لا يستند إلى حكم صحيح ، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم ، لماذا؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائما وينسبون كل الفضل لله تعالى :

{ فَإِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال : 49] .

وما دام الله عزيزاً فالذي آمن به عزيز ، وسبحانه وتعالى يقول : { وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ } [المنافقون : 8] .

وما دام الله حكيماً فهو يعطي الحكمة للمؤمنين ، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى ، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب ، فلا تترك الأسباب أبداً ، بل خذ بها دائما مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب . فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } [التوبة : 14] .

وأمرنا سبحانه وتعالى : بالسعي فقال عز وجل :

{ فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ } [الملك : 15] .

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدي المؤمنين ، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا في سبيل الرزق .

وأنت حين تتواكل تنقل صفة إلى صفة؛ لأن التوكل عمل القلوب ، والعمل تقوم به الجوارح ، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب . والقلوب تتوكل على الله ، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقي للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلا بد من العمل والأخذ بالأسباب مع

التوكل ، ولا بد لنا أن ننتبه إلى المنافقين في بدر الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى :
{ إِذْ يَقُولُ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ } [الأنفال : 49] .
والمنافقون –كما قلنا – هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم ، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما في صدورهم ، أما الذين في قلوبهم مرض فهم ضعيفو الإيمان؛ مسلمون ساعة الرخاء؛ فارون من الدين ساعة الشدة . إذن فهناك فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى؛ المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكاتهم متضاربة؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة على المدينة . وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك ، وبمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تنتهي منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة ، وقد أوجد ذلك في نفسه حقداً وغيظاً . ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان والدخول في الإسلام؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة؛ لذلك نطقوا الشهادتين بألسنتهم وبقي في قلوبهم حقد وضغينة على الإسلام ، فالواحد منهم تتجاذبه ناحيتان متعارضتان .
والذين في قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام ، وقد دخلوا إلى الدين ليأخذوا وهم لا يعطون ، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها ، وإذا أصابتهم شدة هربوا . ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا في مكة . ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أن يهاجروا إلى المدينة؛ خوفا من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا في مكة ، ومرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة؛ لأن المرض لا يعدم الحياة ، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان ، ولما جاءت عملية القتال في غزوة بدر تشاوروا : أيذهبون مع الكفار أو لا يذهبون؟ ومع أي من الفريقين يقاتلون؟ . وقالوا : نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى كنا معهم ، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضممنا إليهم .
ومن هؤلاء قيس بن الوليد المغيرة وعلي بن أمية بن خلف والعاصي ابن منبه بن الحجاج والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة . وتجمع هؤلاء مع بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر ، مؤمنا كان أو كافرا . وهم أخذوا هذا الموقف؛ لأن صحة الإيمان في قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا .

وما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض يدل على الرغبة في اتقاء الضرر ، مع أن هؤلاء في المدينة وهؤلاء في مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً ، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً . ولذلك اتحدت العبارة . وقال هؤلاء وهؤلاء : { غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ }
قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين في قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان ، فبعضهم – كما علمنا – من مكة وبعضهم من المدينة . إذن فلا بد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً ، أي أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة . ولذلك كان الوجب أن ينتبهوا

إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم .
وما معنى : { غَرَّ هؤلاء دِينُهُمْ } .
غررت فلاناً أي زينت له الأمر تزييناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له ، وقويت استعداده لكي يقوم به ، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة . فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقي بالتقسيط ،كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذي كان ينوي القيام به .
ولكن ما وجه الغرور في الدين؟ .
إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل . فأقبلوا على الحرب بالرؤيا التي أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل ، وبوعد الله لهم بالنصر ، أو غرهم بأن أوضح لهم أنَّ الذي يموت مقتولاً في هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة ، وقد جعل ذلك القوي منهم والضعيف يقاتلان بقوة؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة . وهكذا – في رأي المنافقين – اغتر المؤمنون بدينهم .
ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :
{ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَإِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال : 49] .
هذا هو الرد عليهم في أن المؤمنين لم يغرهم دينهم ، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه ، وسبحانه عزيز لا يغلب ، وحكيم يضع الهزيمة في موضعها والنصر في موضعه .
إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم .
ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً؟ . لا ، إنهم لم يجرءوا أن يعلنوها بل قالوها سرّاً في أنفسهم ، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث في نفوسهم ، وكانت هذه لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور في نفوسهم؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح ، خصوصاً إذا انتبهوا إلى قول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فتربصوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ } [التوبة : 52] .
ففي هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين في كل معركة يخوضونها ، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم ، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة ، وكلّ من الأمرين خير . وكشف الحق ما يدور في صدور المنافقين ، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين بألا يؤثر فيهم كلام المنافقين؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره .
ويقول الحق بعد ذلك : { وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة . . . }

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50)

والذي يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر الملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث في أبشع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا منا يتخيل أمراً عجيباً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفظيعاً لما سوف يحدث .

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت .

و { يَتَوَفَّى } أي لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفي وهو قبض الأرواح يجيء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :

{ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم } ومرة يأتي منسوباً لرسل من الله : { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } ومرة يأتي منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت }

وبذلك يكون التوفي في أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ونقول : لا تعارض في هذه الأقوال؛ لأن الأمر في كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جنوده وهم كثيرون .

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقي المباشر من الله وهو عزرائيل ، ويُنسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات .

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهي اللحظة التي لا يكذب الإنسان فيها على نفسه؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه في الدنيا ، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول : سأشفى غداً ، ويعطي لنفسه الأمل في الحياة ، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول : سوف أغتني؛ لأن الإنسان دائما يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار ، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفَّر له من لقاء الله ، ولذلك تجد أن الذي ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده : أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوي وما ظلمته فيه ، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله . فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن . وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً ، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره .

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر ، وقال : إنني سأجيركم إذا دارت عليكم الدائرة ، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار ، وهذا هو موقف الشيطان دائماً ، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار ، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذي في

قلبه؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم ، وهو الذي أوجب عليه العذاب الذي سيلاقيه .

ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82] .

أي أنه أقسم بجلال الله وعزته . ومعنى عزة الله أنه غني عن خلقه جميعاً لا يحتاج لأحد منهم ، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد ، ولو آمن به الناس جميعاً ما زاد ذلك في ملكه شيئاً . ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً . وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها . وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان؛ لأن الله سبحانه وتعالى ما دام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار ، ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان ، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن؟ . لا ، ولذلك فهناك استثناء : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 83] .

أي أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص في إيمانه . ولذلك لا بد أن نلتفت إلى قول الشيطان الذي جاء على لسانه في الآية الكريمة : { إني أَخَافُ الله والله شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : 48] .

إذن فما دام إبليس يخاف الله ، وما دام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذي أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى؟ . خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب ، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية .

ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى .

ونقول : إنه في ساعة الكبر نسي إبليس كل شيء!!

فأنت في حين يأخذك الكبر تتعالى ولو في مواقع الشدة ، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد ، ولكن يختفي كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر .

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر في نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ .

ونجد إنساناً قد يتخذ في لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله . وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور ، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال : { أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } [الإسراء : 61] .

إذن ففي لحظة الكبر نسي إبليس كل شيء ، واندفع في معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب .

وفي قوله تعالى :

{ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق } [الأنفال : 50] .

نجد أنه قد حذف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيعا ، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار في المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب ، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية؟ .

كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

{ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . } [الأنفال : 50] .

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه ، فإذا أدار ، وجهه ليتقي الضرب ، يضربونه على ظهره ، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة؛ فالمقبل عليهم من المؤمنين يضربونه على وجهه ، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه .

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين . ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة . أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة . ويقال : إن الملائكة معهم مقامع من حديد . أي قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم . ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق } [الأنفال : 50] .

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جدا هذا الضرب رغم قسوته ، والشرر الذي يخرج منه لا ينجيهم في الآخرة من عذاب الحريق .

ولذلك « أقبل صحابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله . . لقد رأيت في ظهر أبي جهل مثل شراك النعل . أي علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك ضرب الملائكة ، وجاء صحابي آخر وقال : يا رسول الله . . لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفي ، وقبل أن يصل سيفي إلى رقبته رأيت رأسه قد طار من فوق جسده . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبقك إليه الملك » وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } [الأنفال : 12] .

وهنا في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } [الأنفال : 50] .
أي أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً . فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخِذَ وعُذب ربما تحمل العذاب بجلد ، ولكنَّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدَ إهانة له ، فإذا كان الضرب من الذي وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر .
ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد في الأرض .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ . . . }

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (51)

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاولها بيده ، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل . فسبحانه لم يفتئت عليهم .
و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذي ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم . ويقول سبحانه وتعالى :
{ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [الأنفال : 51] .
أي أن العذاب الذي يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين؛ ما قدمت أيديهم أي بما كسبت من الآثام والمعاصي ، وعدل الله سبحانه وتعالى .
ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { لَّقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذين قالوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الحريق * ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [آل عمران : 181-182] .
ويقول سبحانه وتعالى في سورة الحج : { ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ } [الحج : 10] .
وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات في القرآن الكريم ، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون : إنَّه جاء في القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد . فهل هذا يعني أن الله – معاذ الله – ظالم؟ . ونقول : لا ، فسبحانه ينفي الظلم عن نفسه على إطلاقه . والإنسان حين يظلم فهو ظالم ، فإذا اشتد ظلمه وتعدد ، يقال : « ظلاَّم » . إذن فهذه صيغة مبالغة في الظلم ، مثلما تقول : فلان « آكل » وفلان « أكّال » أي كثير الأكل مبالغة في تناول الطعام . وتقول : فلان « ناجر » أي أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً . ولكنك إذا قلت : « نجّار » كانت هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه في صنعته ، كذلك « خائط » و « خيّاط » ، ونقول : فلان « جازر » أي يستطيع

أن يذبح ، فإذا قلت : « جزّار » أي عمله هو أن يذبح بإتقان .
إذن « فعّال » صيغة مبالغة في الفعل . وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفي .
فأنت حين تقول : فلان « أكّال » أثبت له صفة المبالغة في الأكل - أي كثرة الأكل ، ومن باب أولى صفة الأكل مطلقاً ، وما دمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، فإذا قلت : إن فلاناً « خياط » أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه « نجّار » أثبت له أنه ناجر متقن للنجارة ، أما من ناحية النفي فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكّالاً تنفي المبالغة ولكنها لا تنفي أنه يأكل ، فإذا قلت : إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للنجارة ولكنك لا تنفي عنه أنه قد يكون ناجراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علاّمة فقد يكون عالماً .

وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفي الأعلى لا تنفي الأدنى . وعندما تقول : إن فلاناً ليس ظلاَّماً ، تكون قد نفيت الأعلى . ولكن لا يلزم نفي الأدنى فقد يكون ظالماً فقط وليس ظلاَّما . إذن فكلمة « ليس ظلاّماً » نفت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم . وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففي آية مثلاً يقول : { لَيْسَ بِظَلاَّمٍ } فنفي الأعلى ولا يلزم من نفي الأعلى نفي الأدنى . ويقول سبحانه وتعالى في آية أخرى : { إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } [النساء : 40] .
فنفي الأدنى والأعلى . وهذا في رأيهم تضارب . نقول : هل إذا نفي الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى؟ طبعاً لا ، إن نفي الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده .
إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :
نفي مبدأ الظلم ، وقوله تعالى :
{ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [الأنفال : 51] .
نفي مبدأ المبالغة ، والقرآن يكمل بعضه بعضاً ، فإذا قيل : إن الله نفى الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول : إن نفي الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى ، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى ، إذن فلا هو بظلاَّم ولا هو بظالم . ولا بد أن نلتفت إلى الإعجاز القرآني في الأسلوب ، فالمتكلم هو الله . نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس بظلاَّم للعبد أم ليس بظلاَّم للعبيد؟ لقد قال الحق : { لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } وهي هنا صيغة مبالغة ، والمبالغة مرة تكون في قوة الحدث وإن لم يتكرر ، ومرة تكون في المبالغة في تكرار الحدث ، والإنسان حين يظلم ظلماً بيّناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظلاَّم؛ لأنه بالغ في الظلم ، فإذا لم يبالغ في الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاَّما نظراً لتعدد المظلومين .
وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : { لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } ؛ ولم يقل : ليس بظلاَّم للعبد ، وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة . نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ؛

وهذه أكبر من قدرة الشخص العادي ، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقيل : ظلاَّم . وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة ، إذن فهو ليس بظلاَّم للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد . ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلاَّم للعبيد .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر في الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ . . . }

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (52)

و { الدأب } هو العادة التي تتكرر مع الإنسان ويقال : دؤوب على كذا؛ أي يفعله باستمرار . ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أي عادتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسولهم ، أي أنهم يفعلون معك يا محمد ، أي عادتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسولهم ، أي أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام .

وقوله تعالى : { والذين مِن قَبْلِهِمْ }

أي قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ، ما الذي حدث لهؤلاء؟؛ هلاك أو استئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف . إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويقفون موقف الأذى منه ، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه السلام ، وكذلك الذين من قبلهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

{ كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله } [الأنفال : 52] .

فهل تركهم الله؟ . لا . { فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ }

فمنهم من أُغرقوا ، ومنهم من أصابتهم الصاعقة ، ومنهم من خسف الله بهم الأرض ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت . فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل ، وقد حدثت سوابق مشابهة في الكون وقضايا واقعية . فآل فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة في عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة : { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10] .

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح في السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم في صخور

الجبال ، ويقول الحق عن حضارة ثمود : { وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد } [الفجر : 9] . وكل الحضارات القديمة قد زالت في غالبيتها ولا أثر لها ، وإن وجد أثر ، فهو أثر قليل وبسيط لا يحمل كل سمات الحضارة ، إلا آثار الفراعنة؛ حيث تحوي مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهي باقية ، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شيء حتى الآن . لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التي يأتي إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم في التصميم الهندسي ، وكيف نُقِلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات ، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار ، بل تم ذلك بتفريغ الهواء . فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين ضخمين؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولا يستطيع أحد أن يزحزحه ، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسي باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهي حضارة راقية جدا .

هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط ، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التي لا يعرف أحد سرها حتى الآن ، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل . وكذلك إن نظرت إلى الألوان التي طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هي رغم كل ذلك الزمن الطويل ، وإلى الحبوب التي حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أي تلف ، بل وصالحة للطعام ، هذه الحضارة التي احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن ، لا بد أن تكون حضارة قوية وعالية ، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثارا .

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيرا وملكوا زمام الدنيا في عصرهم؟ لا بد – إذن – من وجود قوة أعلى منهم ، قد دكتهم . ولماذا أتى الله بآل فرعون في هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحضارات التي كانت قبلهم إجمالاً؟ ، فقال تعالى :

{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ } [الأنفال : 52] .

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورَغّبَ فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التي لم تستطع أن تحمي نفسها ، وذلك الفرعون الذي ادعى أنه إله يستطع أن يضمن لنفسه البقاء . وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً ، ثم يروا أن الله عز وجل قد أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً ، وأن الألوهية لله وحده ، وأن كل شيء هالك إلا الله؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة ، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخير

الحضارات الأخرى إجمالاً؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود . وكلهم : { كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله }
وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الآيات الكونية التي تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر } [فصلت : 37] .
وكذلك المعجزات التي يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام ، ثم آيات القرآن الكريم التي هي محكم منهج الله في الأرض .
وقول الحق : { كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله } ، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق ، والأصل في الكفر هو الستر ، وكفر يعني ستر . ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوي : كافر؛ لأنه يحضر الحب ويستره بالتراب ، ويسمون الليل لغويا : كافر؛ لأنه يستر الأشياء . والشاعر يقول :
لي فيك أجر مجاهد ... إن صح أن الليل كافر
ومعنى « كفروا » أي ستروا وجود الله تعالى ، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل أن يستروه بالكفر؛ لأن الإيمان أصل في وجود الخلق ، والخلق قد وجدوا على الإيمان ، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان .

إذن فكلمة الكفر التي معناها الستر دليل من أدلة الإيمان ، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود؟ ، فإذا قال لك أحد : إنه كفر - والعياذ بالله - تقول : الكفر هو الستر؛ فماذا سترت؟ لا بد أنك سترت ما هو موجود ، وقول الحق سبحانه وتعالى : { كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله }
أي كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التي تملأ الكون ، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة ، ولم يصدقوا آيات الكتاب التي أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى :
وقوله تعالى :
{ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله } [الأنفال : 52] .
إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم :
{ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : 52] .
والأخذ في قوله تعالى : { فَأَخَذَهُمُ } كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد في الأرض .
والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفرّ منه ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى : { أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر : 42] .
أي أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فرارا أو هروبا .
وقوله سبحانه وتعالى :

{ إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب } [الأنفال : 52] .

أي أن الله أقوى من كل ما تصنعون في كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم . ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكنْ لكلٍ جزاؤه على قدر ذنبه؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : { فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ }

هذا القول لا يدخل في الجبرية التي يقول عنها الشاعر :

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

ويخطيء من يظن أن الله قد كتب جبرا على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به في نار جهنم ، لا؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر . وعلى هذا نفهم قول الحق :

{ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ } [الأنفال : 52] .

أي بسبب ذنوبهم ، وما دام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحيثية لذلك فيقول تعالى : { ذلك بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ . . . }

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (53)

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة في الأرض ، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنساني . وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج ، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما ، ولو ساروا على المنهج الذي علمه آدم لهذه الذرية ، لصارت البشرية إلى سعادة . ولكن الذرية تغيرت ، وجحدوا النعمة وأنكروا أنَّ للنعمة خالقاً ، فهل يبقي الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ما داموا قد تغيروا؛ لا . بل لا بد – إذن – أن يغير الله نعمه عليهم ، وإلا لما أصبح هناك أي منطق للدين؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم ، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم . بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة . وظل الإنسان فترة طويلة في طفولة الحياة يرتع في نعم الله ، فقبل أن يعرف الزراعة؛ وجد الثمار التي يأكلها . وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذي يشربه ، وعلمه الله كيف يعيش . وذلل له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم ، وكل هذه النعم وغيرها كان لا بد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم .

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم ، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة في الأرض؟ طبعاً لا ، وما دام الإنسان قد غير ، لا بد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة ، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء ، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم ، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ ذلك بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الأنفال : 53]

.

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر ، ومن شكر النعمة إلى جحودها ، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم ، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته؛ لأعاد لهم الله نعَم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة .

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها ، فيقول : { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض } [الأعراف : 96] .

وطبقاً لهذا القانون الإلهي نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لا بد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة ، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً ، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط ، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى . ولو أن الله سبحانه وتعالَى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذي يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هي قيمة المنهج؟ .

إذن لا بد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان ، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً في أعماقك وليس أمراً ظاهريا فقط ، فلا تدَّع الإصلاح وأنت تفسد ، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق ، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابي الغني؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطي نعمه الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه . وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون باتباع المنهج الإلهي .

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضي الله عز وجل فيغير الله حالنا . ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أي أن حالتهم الأولى أنهم كانوا في نعمة ومنسجمين مع منهج الله ، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة ، أي أن هناك تغييرين أساسيين ، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم ، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم .

وقوله تعالى :

{ وَأَنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال : 53] .

أي أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجهرهم ، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل ، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر في النفوس ، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان في أقصى الأرض .

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول : {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ . . . }

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (54)

يتساءل البعض : لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها مع الآية الأولى؟ .

نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : { كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله } [الآنفال : 52] في الآية الثانية يقول فيها :

{كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ } [الأنفال : 54] .

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التي أنزلت إليهم ، وفي هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أي لم يصونوا النعم التي أعطاها الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكاليفه ومنهجه عطاء ألوهية ، وهم في الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أي كفروا بالله . وفي الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أي بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عَدم وأمَد من عُدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته . والله يساوي في عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصي والطائع ، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر .

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

{ وَأَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ } [الأنفال : 54] .

أي لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجي المؤمنين ويغرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : { وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ } ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص؛ لأنهم الأمة الوحيدة التي بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذي لم نصل إلى كل أسراره حتى الآن . ولا يمكن أن تنتهي مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها . فكأن الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات؛ لأنه قدر للبشرية أن تكتشف آثار آل فرعون ، وآثارهم لافتة للعالم أجمع ، ووضع في قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون ، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة ، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهي الله سبحانه وتعالى ، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالألوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله ، وكفروا بنعمة الربوبية التي أعطاها الله لهم ، والتي

يذكر الله جزءا منها في قوله الكريم : {كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ } [الدخان : 25–27] .

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقتير ، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : { جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ }

وأعطاهم الثروة والقوة التي تحفظ لهم كرامتهم؛ وتجعلهم أسياد الأرض في عصرهم ، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم ، ولا أن يعتدي عليهم ، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التي تحفظ لهم الكرامة في قوله تعالى : { وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ } [الدخان : 26–27]

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة في كل شيء ، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه ، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب ، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ نجد فيها الذهب والكنوز ، وقد دفنت مع موتاهم ، ونجد فيها الحضارة والقوة في المعارك التي صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان . ونرى فيها النعمة الهائلة التي كان يعيش فيها فرعون وقومه ، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخلق واهب النعم .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله . . . }

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55)

{ الدوآب } جمع دابة ، والدابة هي كل ما يدب على وجه الأرض ، فإذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلاً في هذا التعريف ، ولكن العرف اللغوي حدد الدابة بذوات الأربع ، أي الحيوانات . وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشي على أربع ، فلا يدخل في هذا التعريف . وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الذين كَفَرُواْ } [الأنفال : 55] .

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط ، فسبحانه خلق الدواب وباقي أجناس الكون مقهورة تؤدي مهمتها في الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛ والشيء الذي يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول ، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التي لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة ، والغريزة لا تخطيء أبداً ، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى : { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ } [المائدة : 31] .

نجد أن الغراب الذي لا اختيار له ، ولا عقل؛ علم الإنسان الذي له عقل واختيار . وقد حدث ذلك لأن الغراب محكوم بالغريزة . إذن فكل ما يقوم به الحيوان من سلوك هو باختيار الله سبحانه وتعالى؛ لأن الحيوان مقهور على التكاليف . ومن رحمة الله تعالى أن المخلوقات باستثناء

الإنسان خلقت مقهورة؛ تفعل كل شيء بالغريزة وليس بالعقل ، ولكن الإنسان الذي كرمه الله بالعقل يكفر ويعصي . رغم أن الحق أنعم على الإنسان بنعمة الاختيار .
ومن العجيب أننا نجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا يخرج سلوكه عن النظام المجبول عليه ويؤدي مهمته كما رسمت له تماماً ، فالدابة مثلاً تلد ويأخذون وليدها ليذبحوه فلا تنفعل؛ لأن هذه مهمتها في الحياة أن تعطي للإنسان اللحم . والحمامة ترقد على بيضها وعندما يخرج الفرخ الصغير تتولاه لفترة بسيطة جداً حتى يعرف كيف يطير وكيف يأكل ثم بعد ذلك تتركه؛ ليؤدي مهمته؛ لأنه محكوم بالغريزة . والغرائز لا تخطىء . ويتصرف بها الحيوان بدون تعليم له .
فإذا جئنا للإنسان نجد أن ألوان السلوك المحكومة بالغريزة فيه لا يتعلمها؛ إذا جاع طلب الطعام دون أن يعلمه أحد كيف يشعر بالجوع ، فهذه غريزة . وإذا عطش طلب الماء دون يعلمه أحد معنى العطش ولا كيف يشرب . وكل واحد منا في الغرائز متساو مع الآخر . ونجد الغني والفقير والحاكم والغفير إذا شعروا بالجوع طلبوا الطعام ، وإذا شعروا بالعطش طلبوا الماء . فكل شيء محكوم بالغرائز لا يوجد فيه تغيير .
ومن العجيب – مثلاً – أن الحمار حين يريد أن يعبر مجرى مائيا ينظر إليه ، وبمجرد النظرة يستطيع أن يعرف هل سيعبره أو لا ، فإن كان قادراً قفز قفزة واحدة ليعبر ، وإن لم يقدر بحث عن طريق آخر .

ولا تستطيع أن تجبر حماراً على أن يعبر مجرى مائيا لا يقدر على عبوره ، ومهما ضربته فلن يستجيب لك ولن يعبر . أما الإنسان إن طلبت منه أن يعبر قناة مائية فقد يقول لنفسه : سأجمع كل قوتي وأقفز قفزة هائلة ، وإن لم يكن قياسه صحيحاً ، يسقط في الماء ، ذلك لأنه أخطأ وصورت له أداة الاختيار أنه يستطيع أن يفعل ما لا يقدر عليه . إذن فالمحكوم بالغريزة هو الأوعى .
وعندما نأتي إلى الأكل ، نجد الحيوان المحكوم بالغريزة أكثر وعياً؛ لأنه يأكل فإذا شبع لا يذوق شيئاً . ولو جئت له بأشهى الأطعمة . فأنت لا تستطيع أن تجعل الحيوان يأكل عود برسيم واحداً ، أو حفنة تبن ، أو حبة فول بعد أن يشبع ، وتجده يدوس على زاد عن حاجته بقدميه . وتعال إلى إنسان ملأ بطنه وشبع وغسل يديه ، ثم قالوا له مثلا : أنت نسيت الفاكهة ، أو نسيت الحلوى ، تجده يعود مرة أخرى ليأكل وهو شبعان؛ فيتلف معدته ويتلف جسده . ولذلك تجد الإنسان مصاباً بأمراض كثيرة لا تصيب الحيوان؛ لأنه يسرف في أشياء كثيرة ، بل تجد أن الأمراض التي تصيب الحيوان معظمها من تلوث بيئة الحيوان مما يفعله الإنسان .
والحق سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن الدابة المحكومة بالغريزة خير من الكافر؛ لأن الدابة تؤدي مهمتها في الحياة تماماً . بينما لا يؤدي الكافر مهمته في الأرض ، بل يفسد فيها ويسفك الدماء

، وبذلك يكون شرا من الدابة . ولقد قلنا : إن الدّابة تحملك من مكان إلى مكان ولا تشكو ، وتَحمل أثقالك ولا تتبرم . وتظل سائرة فترة طويلة وأنت جالس فوقها فلا تضيق بك وتلقيك على الأرض ، لقد خُلِقت لهذه المهمة وهي تؤديها كما خلقت لها دون شكوى أو ضجر؛ لأنها محكومة بنظام دقيق تتبعه وتنفذه . ولكن الإنسان اخترع السيارة وطور فيها ، وقد يجلس أمام مقعد القيادة ويصيبه التعب فينعس ويقع في حادثة فيصاب فيها ويصيب غيره أيضاً .

وكان من المفروض أن يتبع الإنسان في حياته منهج ربه الذي أنزله إليه ، لكن من البشر من كفر وأخذ يعربد في الكون ، وبذلك يكون شراً من الدابة؛ لأن الكافر لا يستخدم عقله في أولويات الوجود ، وهو لو استخدم عقله لعرف أنه أقبل على كون قد أعد إعداداً دقيقاً؛ شمس تضيء نصف الكون لتعطيه النهار ، وتغرب ليطل قمر يضيء بالليل يؤنسه في الظلام؛ ونجوم تهديه الطريق في البر والبحر ، ومطر ينزل لينبت الزرع . وحيوان مسخر له يعطيه اللبن واللحم ويحمل أثقاله . كان لا بد – إذن – للإنسان صاحب العقل أن يفكر : من الذي خلق له كل هذه النعم؟ لأن هذه هي من أولى مهمات العقل الذي يفكر ، ويدلنا على الخالق . وكان لا بد في هذه الحالة أن يعرف الإنسان بعقله أن الذي صنع له كل هذه النعم وسخرها له لا بد أنه يريد به خيراً . ولذلك إذا جاءه المنهج من السماء عليه أن يتبعه؛ لأنه يعلم أن هذا المنهج خير ما يصلح له؛ لأنه جاء من خالقه .

وفي هذه الحالة كان لا بد لأمور الكون أن تستقيم . ولكن بعضاً من بني الإنسان ستروا وجود الله وكفروا به ولذلك يوضح لنا الحق تبارك وتعالى أنهم شرّ من الدواب ، لأنهم لا يؤمنون .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { الذين عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ . . . }

الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56)

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الكافرين الذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينتقل هنا للكلام عن الجماعة التي عاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يكفوا عنه شرهم ، وألا يتعرض لهم الرسول ، وهم اليهود ، فهل ظلوا على وفائهم بالعهد؟ لا . بل نقضوا العهد .

بنو قريظة – مثلا – عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يعينوا عليه أحدا ، ولما جاءت موقعة بدر مدوا الكفار بالسلاح ونقضوا العهد ، ثم عادوا وأعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ثانياً ، وعندما جاءت غزوة الخندق اتفقوا على أن يدخل جنود قريش من المنطقة التي يسيطرون عليها ليضربوا جيش المسلمين من الخلف في ظهره ، فأرسل الله ريحاً بددت شمل الكفار ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

{ الذين عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ } [الأنفال : 56] .

وهم قد فعلوا ذلك؛ لأنهم تركوا منهج الله وخافوا من رسول الله فحاولوا أن يخدعوه بنقض المعاهدات . وقوله تعالى : { وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ }

إنهم لا يتقون الله – عز وجل – الذي يؤمنون به إلها؛ لأنهم أهل كتاب؛ جاءتهم التوراة ، وجاءهم رسول وهو موسى عليه السلام ، وهم ليسوا جماعة لم يأتها كتاب بل نزل عليهم كتاب سماوي هو التوراة ، ومع ذلك لا يتبعون ما في كتابهم ولا يتقون الله تعالى ، فهم أولاً ينقضون العهد ، والنقض ضد الإبرام ، والإبرام هو أن تقوي الشيء تماماً كما تبرم الخيط أي تقويه ، وعندما تقوي الخيط فأنت تجعله ملفوفاً على بعضه ليصبح متيناً . فالخيط الذي طوله شبران عندما تبرمه يصبح طوله شبراً واحداً ويصبح قويا ، فإذا فككته أي نقضته أصبح ضعيفاً ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى : { وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً } [النحل : 92] .

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى الحكم في هؤلاء؛ أولئك الذين لا يؤمنون ، ولا يتقون وينقضون عهدهم؛ فيأتي فيهم القول الحق : { فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب . . . }

فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57)

أي إن وجدتهم في أي حرب فشرد بهم من خلفهم .

ولنا أن نلحظ أن كلمة « إما » هي إن الشرطية المدغمة في « ما » إذا ما حذفنا منها ما ، نجد أنها تصبح إن ، كأنه يقول : « إنْ مَا » ، وأدغمت نون « إن » في « ما » ، مثلها مثل أن نقول : إن جاءك زيد فأكرمه؛ هذه جملة شرطية فيها شرط وجواب وأداة شرط ، ولكنه إذا تم مرة واحدة يكون قد انتهى . ولكن « ما » مع إن الشرطية تدلنا على أنه كلما حدث ذلك فإننا نفعل بهم ما أمر الله تعالى به ، كما نقول : كلما جاءك زيد فأكرمه؛ لأن إما هذه تتضمن ما يفيد الاستمرارية ، مثل «كلما » فكلما جاءك تكرمه ولو جاء مائة مرة ، ولو لم تجيء « ما » لكان يكفي أن تصنعها مرة واحدة .

وقوله تعالى : { تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الحرب } ، ثقف بمعنى وجد ، أي كلما وجدتهم في الحرب : فشرد بهم من خلفهم ، أي اجعلهم أداة لتشريد من خلفهم . وعليك أن تؤدبهم أدباً يجعل الذين وراءهم يخافون منكم ، ويبتعدون عنكم ، وكلما رأوكم أصابهم الخوف والهلع ، وكما يقول المثل العامي : « اضرب الربوط يخاف السايب » . أي أن المطلوب أن نجاهدهم بقوة وبدون شفقة ، حتى لا يفكر في مساندتهم من جاءوا خلفهم لينصروهم أو يؤازروهم بالدخول معهم في القتال ، ولا تحدثهم أنفسهم في أن يستمروا في المعركة ، فشرد بهم ، والتشريد هو التشتيت والتفريق والإبعاد ولكن بقسوة . فحيثما يريدوا أن يذهبوا؛ امنعهم وشتتهم على غير مرادهم . وقول الحق سبحانه وتعالى : { لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ }

أي لكي تكون هذه التجربة درساً لهم؛ كيلا يفكروا مرةً أخرى في حربٍ معك؛ لأنهم سوف

يتذكرون ما حدث لهم فيبتعدون عن مواجهتك .
ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ . . . }

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58)

وسبحانه وتعالى يبدأ هذه الآية بقوله : « وإما » ومثلها مثل « فإما » في الآية السابقة وقد تم التوضيح فيها ، وهنا يتحدث عن الآخرين الذين لا يواجهون بالحرب ، بل يدبرون لخيانة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ونقول : هل هذه الخيانة مقطوع بها؟ أو أنت أخذت بالشبهات؟ . الله سبحانه وتعالى هنا يفرق بعدالته في خلقه بين الخيانة المقطوع بها والخيانة غير المقطوع بها ، فالخيانة المقطوع بها لها حكم ، والخيانة المظنون بها لها حكم آخر . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً } [الأنفال : 58] .
أي بلغك أنهم سيخونونك ، ماذا تفعل فيهم؟ .
يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ } [الأنفال : 58] .
أي أنه ما دام هناك عهد والعهد ملك لطرفين ، هذا عاهد وذاك عاهد ، فإياك أن تأخذهم على غرة ، بل انبذ إليهم ، والنبذ هو الطرح والإبعاد ، أي عليك أن تلغي العهد الذي بينك وبينهم ، وتنهيه ، وتبعده بكراهية . فساعة تخاف الخيانة أبعدهم ، ولكن لا تحاربهم قبل أن تعلِمَهُم أنك قد ألغيت العهد بسبب واضح معلوم .
وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبيلة خزاعة – كانت من حلفائه بعد صلح الحديبية – وكان الصلح يقضي ألا تهاجم قريش حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يهاجم رسول الله صلى الله عليه وسلم حلفاء قريش ، وذهب بعض من أفراد قريش إلى قبيلة خزاعة وضربوهم ، أي أن قريشاً خانت العهد ، ونقضت الميثاق الذي كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بمعاونتها بني بكر في الاعتداء على خزاعة حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم فماذا فعل الناجون من خزاعة؟ . أرسلوا عنهم عمرو بن سالم الخزاعي يصرخ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وقال : إن قريشاً أخلفتك الوعد ونقضت ميثاقك ، ولما حدث هذا لم يبق رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة سرّاً ، بل أبلغ قريشاً بما حدث . وأنه طرح العهد الذي تم في صلح الحديبية بينه وبين قريش .
وعندما جاء أبو سفيان إلى المدينة ليحاول أن يبرر ما حدث . رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقابله .
إذن فإن وجدت من القوم الذين عاهدتهم بوادر خيانة فانبذ العهد ، أما إن تأكدت أنهم خانوك

فعلاً وحدثت الخيانة ففاجئهم بالحرب ، تماماً كما فَعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود بعد أن خانوه في غزوة الخندق ونقضوا العهد والميثاق .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخائنين } [الأنفال : 58] .

فكأن الله تعالى بريء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بريء ، والمسلمون أبرياء أن يخونوا حتى مع الذين كفروا؛ وهذه تؤكد لنا أن الإسلام جاء ليعدل الموازين في الأرض؛ ليس بالنسبة للمؤمنين به فقط بل بالنسبة للناس جميعاً .

ولذلك إن قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله } [النساء : 105] .

تلاحظ أن الآية لم تقل : بين المؤمنين . ، ولكن قالت : { بَيْنَ الناس } ؛ حتى لا تكون هناك تفرقة في العدل بين مؤمن وغير مؤمن ، فغير المؤمن مخلوق لله ، استدعاه الله إلى هذا الوجود ، وسبحانه قد أعد له مكانه في هذا العالم؛ لذلك لا بد أن تراعي العدل معه في كل الأمور ولا تظلمه بل تعطيه حقه؛ لأنك بذلك تكون أنت مددا من إمدادات الله . وقد كان هذا السلوك العادل الذي أمر به الله سبباً في دخول عدد كبير في الإسلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] .

أي لا تناصر – يا محمد – الخائنين حتى وإن كانوا من أتباعك . وقد نزلت هذه الآية عندما سُرق درع من قتادة بن النعمان وهو من الأنصار ، وحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من بيت يقال لهم : بنو أبيرق . فجاء صاحب الدرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي ، فلما علم السارق بما حدث ، وضع الدرع في جوال دقيق وأسرع وألقاه في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين . وقال لعشيرته : إني وضعت الدرع في منزل اليهودي زيد بن السمين ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله إن صاحبنا بريء . والذي سرق الدرع هو فلان اليهودي . وذهب الصحابة فوجدوا الدرع في جوال دقيق في بيت اليهودي . ولكن اليهودي أنكر أنه سرق الدرع وقال : لقد أتى به طعمة بن أبيرق ولم يلحظ طعمة أثناء نقل جوال الدقيق أن بالجوال ثقباً صغيراً ، تسرب منه الدقيق ليصنع علامة على الأرض ، وذلك من غفلته؛ لأن الله لا بد أن يترك دليلاً للحق يهتدي به القاضي حتى لا يضيع الحق؛ فتتبع المسلمون علامة الدقيق حتى أوصلتهم إلى بيت طعمة بن أبيرق وأصبحت القضية أن السارق مسلم . ولكنه اتهم اليهودي كذباً بالسرقة . وقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن حكمت لليهودي على المسلم يكون المسلمون في خسة ودناءة وحرج ، وإذا بالوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعصمه من تعدي خواطره في

هذه المسألة : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً } [النساء : 105] .

أي لا تكن لأجل ولصالح الخائنين مدافعا عن أي واحد منهم ولو كان هذا الخائن مسلماً .

وهكذا كان عدل الإسلام في أن حكم الله تعالى لا ينصر مسلماً على باطل ولا يظلم يهوديا ، ألا يرون هذا الدين وما فيه من قوة الحق؟ ألا يدفعهم ذلك إلى أن يتجهوا إلى هذا الدين الإسلامي دين العدالة والإنصاف ليكونوا في أحضانه؟!

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ } [الأنفال : 58] .

أي قل لهم إني ألغيت هذا العهد الذي بيني وبينكم وأصبحت في حل منه .

وقوله تعالى : { إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخائنين }

يبين أنه سبحانه وتعالى لا يحب الخائنين حتى ولو كانوا من المنسوبين للإسلام .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ سبقوا . . . }

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)

حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الكفار في حرب ، قُتل فريق من الكفار ، وأُسر فريق آخر منهم ، وفر فريق ثالث ، وأما الذين قتلوا والذين أسروا فقد أخذوا جزاءهم ، والذين فروا نجوا من القتل ومن الأسر ، فكأنهم سبقوا فلم يلحق بهم المسلمون الذين أرادوا أن يقتلوهم أو يأسروهم . والسبق أن يوجد شيء يريد أن يلحق بشيء أمامه فيسبقه؛ ولا يستطيع اللحاق به . فكأن الكفار عندما فروا سبقوا المسلمين الذين لو لحقوا بهم لقتلوهم أو أسروهم .

الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أن هذا هو ظاهر ما حدث ، ولكن الحقيقة التي يريدنا الله عز وجل أن نفهمها هي أن هؤلاء الكفار الذين فروا وسبقوا ، ولم تلحقهم أيدي المسلمين ، هؤلاء لا يعجزون الله تعالى ولا يخرجون عن قدرته سبحانه وتعالى وسوف يأتيهم العذاب في وقت لاحق ، إما بانقضاء الأجل وإما في معركة ثانية .

وعادة نجد أن كلاً من السابق والمسبوق يستخدم أقصى قوته ، الأول ليفر والثاني ليلحق به .

ولذلك عندما تراهما فقد تتعجب من القوة التي يجري كل منهما بها ، وهذه هي الطبيعة الإنسانية ، فساعة الأحداث العادية يكون للإنسان قوة وقدرة . وساعة الأحداث المفاجئة تكون له أي للإنسان ملكات أخرى . فإذا غرقت سفينة في البحر مثلاً وتعلق واحد من ركابها بقطعة خشب من حطام السفينة ، تجده يسبح لفترة طويلة دون أن يشعر بالتعب . فإذا وصل إلى الشاطيء خارت قواه .

ولقد عرفنا سر ذلك عندما اكتشف علم وظائف الأعضاء أن الإنسان عنده غدة فوق الكلي

هي الغدة الكظرية ، إذا وقع في مأزق مفاجيء تفرز مادة « الادرينالين » وهذه مادة يمكن أن تعطيه عشرة أضعاف قوته ، ولكن إذا زال الخطر تتوقف الغدة عن إفراز هذه المادة إلا بالنسبة التي يحتاجها الجسم ، ولذلك تجد الإنسان الذي يضارع الموج في البحر تمده هذه الغدة بالوقود ، فإذا وصل إلى الشاطيء توقفت الغدة عن الإفراز الزائد المناسب للخطر فتخور قواه وربما يظل ثلاثة أيام نائماً من التعب .

وهناك قصة خيالية رمزية تروى عن صائد أرسل كلبه يجري وراء غزال ليأتيه به ، والكلب يجري يريد اللحاق بالغزال ، والغزال يجري طلباً للنجاة ، وفجأة التفت الغزال إلى الكلب وقال له : لن تلحقني؛ لأني أجري لحساب نفسي وأنت تجري لحساب صاحبك .

فمن يفعل شيئاً لينجو بنفسه يكون قوياً . وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ } [الأنفال : 59] .

أي إنهم في قبضة المشيئة لا يخرجون عن قدرة الله الذي سيحضرهم ويحاسبهم .

وبعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عمن حارب ، ومن عاهد وغدر ، ومن فر وسبق ، ومن يريد أن يلحق به ، أراد أن ينبهنا إلى حقيقة هامة وهي ألا نقصر في إعدادنا للقوة التي تعيننا على ملاقاة الأعداء وقت الحرب أو حتى تأتينا الحرب؛ لأننا قد نفاجأ بها فلا نستطيع أن نستعد ، ولذلك لا يجب أن يقتصر استعدادنا للقتال إلى أن تأتي ساعة القتال ذاتها ، لا ، بل يجب أن نستعد سلماً وحرباً . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ . . . }

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60)

وقوله تعالى : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ } يعني أن يكون الإعداد لكل من تحدث عنهم ، وهم الذين قاتلوا وقتلو وأصاب أهلهم ضرورة الثأر لمقتلهم ، والذين أسروا ، والذين نقضوا العهد نقضاً أكيداً أو نقضاً محتملاً ، كل هؤلاء لا بد أن تعد لهم ما جاء به قول الحق تبارك وتعالى : { مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل }

وهذا تكليف من الله تعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أن يعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة .

ولماذا قدر استطاعتهم؟

لأن الإنسان محدود بطاقة ، ووراء قدرة المؤمنين قدرة الله سبحانه . ولذلك أنت تعد قدر ما تستطيع ثم تطلب من الله أن يعينك . وإذا ما صنعت قدر استطاعتك ، إياك أن تقول : إن هذه الاستطاعة لن توصلني إلى مواجهة ما يملكه خصمي من معدات يمكن أن يهاجمني بها ، فخصمك

ليس له مدد من السماء إنما أنت لك المدد السماوي ، وما دام لك هذا المدد فقوتك بمدد الله تجعلك الأقوى مهما كان عدوك ، ولذلك عندما يحدث الله تعالى المؤمنين يوضح لهم : إياكم أن تخافوا من كثرة عدد عدوكم ، والمطلوب منكم أن تعدوا له ما استطعتم من قوة وحتى أطمئنكم أني معكم ، تذكروا آية واحدة أنزلتها ، وهي : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب } [آل عمران : **151**] .

وساعة يلقي الله عز وجل في قلوب الذين كفروا الرعب سيلقون سلاحهم ويفرون من ميدان القتال ولو كانوا يحاربون بأقوى الأسلحة ، وسيتمكن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بأية قوة أعدوها . وقوله تعالى :

{ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ }

هذه القوة قد تكون ذاتية في النفس بحيث لا تخاف شيئاً ، فجسم كل مقاتل قوي ممتلىء بالصحة وله عقل يعمل باقتدار وإقبال على القتال في شجاعة ، بالإضافة إلى قوة السلاح بأن يكون سلاحاً حديثاً متطوراً بعيد المدى ، وأن يحرص المؤمنون على امتلاك كل شيء موصول بالقوة . وكان الهدف قديماً وحديثاً أن يمتلك المقاتل قوة تمكنه من عدوه ولا تمكن عدوه منه . وفي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مدى رمي السهام هو رمز القوة . فأول ما تبدأ الحرب يضربون العدو بالنبال ، فإذا زحف العدو وتقدم يستخدمون له الرماح ، فإذا تم الالتحام كان ذلك بالسيوف . وكانت أحسن قوة في الحرب هي السهام التي ترمي بها خصمك فتناله وهو بعيد عنك ، ولا يستطيع أن ينالك أو يقترب منك . ولذلك عندما فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة قال فيما يرويه عنه عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ } ثم قال : » ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي « » .

لأنك بالرمي تتمكن من عدوك ولا يتمكن هو منك ، فإذا تفوقت في الرمي كنت أنت المنتصر عليه .

ولكن كيف ينطبق ذلك على الحرب في العصر الحديث بعد أن تطورت الأسلحة الفتاكة؟ لقد صارت المدفعية لفترة من الزمن هي السلاح؛ لأنها المحقق للنصر لبعد مداها ، ثم جاءت الطائرات لتصبح هي السلاح الأقوى؛ لأنها تستطيع أن تقطع مسافة طويلة وتلقي بقنابلها وتعود . وصارت قوة الطيران هي التي تحدد المنتصر في الحرب؛ لأنها تلحق بالعدو خسائر جسيمة دون أن يستطيع هو أن يرد عليها ما دام غير متفوق في الطيران ، ثم بعد ذلك جاءت الصواريخ والصواريخ عابرة للقارات ، إلى آخر الأسلحة المتطورة التي تتسابق على اختراعها الدول الآن ، وكلها أسلحة بعيدة المدى ، والهدف أن تنال كل دولة أرض عدوها ولا يستطيع هو أن ينال

أرضها . ويضيف الحق تبارك وتعالى :

{ وَمِن رِّبَاطِ الخيل } [الأنفال : 60] .

ورباط الخيل هو القوة التي تحتل الأرض ، فمهما بلغت قدرتك في الرمي فأنت لا تستطيع أن تستولي على أرض عدوك ، ولكنّ راكبي الخيل كانوا يدخلون المعركة في الماضي بعد الرمي ليحتلوا الأرض . وهذه عملية تقوم بها المدرعات الآن . فالمعركة تبدأ اولاً رمياً بالصواريخ والطائرات حتى إذا حطمت قوة عدوك انطلقت المدرعات لتحتل الأرض ، فالطائرات والصواريخ تهلك العدو وتحطمه ولكنها لا تأخذ الأرض . ولكن الذي يمكننا من الأرض والاستيلاء عليها هو : رباط الخيل ، أو المدرعات ، ورباط الخيل هو عقده للحرب ، أي أن الخيل تُعد وتُعلف وتدرب وتكون مستعدة للحرب في أية لحظة ، تماماً كما تأتي للمدرعات وتعدها إعداداً جيداً بالذخيرة ، وتصلح ماكيناتها وتتدرب عليها لتكون مستعداً للقتال في أي لحظة . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من خير معاش الناس لهم رجل يمسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعةً أو فَزْعةً طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانَّه ، ورجل في غنيمة في شَعَفَة من هذه الشعفاء وبطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير » .

أي أنه لا ينتظر بل ينطلق لأي صيحة . ومن الإعجاز في الأداء القرآني أنه أعطانا ترتيباً للحرب ، فالحرب أولاً تبدأ بهجوم يحطم قوى العدو بالرمي ، سواء كان بالصواريخ أم بالطائرات أم بغيرهما ، ثم بعد ذلك يحدث الهجوم البري ، ولا يحدث العكس أبداً . ورتب الحق سبحانه وتعالى وسائل استخدام القوة أثناء القتال ، فهي أولاً الرمي ، وبه نهلك مَكيناً ثم نستولي على المكان ، وكان ذلك يتم برباط الخيل الذي تقوم مقامه المدرعات الآن .

ونجد أن الحق سبحانه وتعالى جاء في القرآن الكريم بالأداء الذي يعلم ما تأتي به الأيام من اختراعات الخلق ، ونجد في زماننا هذا كل قوة للسيارة أو المدرعة أو الدبابة إنما تقاس منسوبة إلى الخيل ، فيقال قوة خمسة أحصنة أو خمسمائة حصان .

ويقول المولى سبحانه وتعالى :

{ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال : 60] .

فالقصد – إذن – من إعداد هذه القوة هو إرهاب العدو حتى لا يطمع فيكم؛ لأن مجرد الإعداد للقوة ، هو أمر يسبب رهباً للعدو . ولهذا تقام العروض العسكرية ليرى الخصم مدى قوة الدولة ، وحين تبين لخصمك القوة التي تملكها لا يجترىء عليك ، ويتحقق بهذا ما نسميه

بلغة العصر « التوازن السلمي » . والذي يحفظ العالم الآن بعد سقوط الاتحاد السوفيتي هو التوازن السلمي بين مجموعات من الدول ، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي المكلف للحرب ، فالقوة الآن لا تقتصر على السلاح فقط ، ولكن تعتمد القوة على عناصر كثيرة منها الاقتصاد والإعلام وغيرهما . وصار الخوف من رد الفعل أحد الأسباب القوية المانعة للحرب . وكل دولة تخشى مما تخفيه أو تظهره الدولة الأخرى .

وهكذا صار الإعداد للحرب ينفي قيام الحرب .

{ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال : 60] .

ولا تظنوا أن من يواجهونكم هم أعداء الله فقط وقد سلطكم سبحانه عليهم ، لا بل عليكم أن تعرفوا أت أعداء الله هم أعداؤكم أيضاً؛ لأنهم يفسدون الحياة على المؤمنين . وعدو الله دائماً يحاول أن ينال من المؤمنين . وأن ينكل بهم ، وأن يجبرهم إن استطاع على الكفر وأن يغريهم على ذلك . فالحق سبحانه وتعالى لا يغضب؛ لأنهم لم يؤمنوا به ، بل لأنهم لا يطبقون المنهج الذي يسعد الإنسان على الأرض ، فسبحانه وتعالى لا يكرههم ولكن يعاقبهم بسبب الإفساد في الأرض وبغيهم وطغيانهم .

{ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ } [الأنفال : 60] .

وهذه لفتة من الحق سبحانه وتعالى إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنافقين وغيرهم ، ولكنَّ هناك خلقاً كثيراً سيأتون بعد ذلك لا تعلمونهم أنتم الآن ولكنَّ الله سبحانه وتعالى يعلمهم ، كما يلفتنا سبحانه إلى أن أعداء المسلمين ليسوا هم الذين يظهرون في ميدان القتال فقط ليحاربوا المسلمين ، ولكنَّ هناك كثيراً ممن لا يظهرون في ميدان القتال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين . وقد ظهر معنى هذه الآية الكريمة ، ولا يزال يظهر للمسلمين ، فظهرت عداوة الفرس والروم وحربهم ضد المسلمين ، وظهرت عداوة الصليبيين وغيرهم . ومع الزمن سوف يظهر من يعلمهم الله ولا نعلمهم نحن . وقد جاءت أحداث الحياة لتؤكد دقة تعبير القرآن الكريم .

ثم يتناول الحق سبحانه وتعالى هواجس النفس البشرية ، وهي تنصت لهذه الآيات من الإعداد العسكري ، فالذي يخطر على البال أولاً أن مثل هذا الإعداد يتطلب مالاً ، ويتطلب جهداً ، ويتطلب زمناً فوق الزمن لقضاء المصالح والحوائج . فإياكم أن تنكصوا عن الاستعداد؛ لأن كل ما تنفقونه في سبيل الله محسوب عند الله . وإياكم أن تقولوا : إنّ الإعداد لقوة المجتمع يحتاج مالاً ويقتر على الأبناء؛ لأن الله يرزقكم . ويقول سبحانه وتعالى :

{ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ } [الأنفال : 60] .

أي أن ما تنفقونه مما يقال له : شيء سواء أكان قليلاً أم كثيراً يرد إليكم ، ولقد جاء التعبير ب { مِّن شَيْءٍ } في قوله تعالى : { واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ } أي مما يقال له شيء . ولو جاءت الآية : غنمتم شيئاً ، لما شملت الأشياء البسيطة ، ولكن قوله تعالى : { مِّن شَيْءٍ } أي من بداية ما يقال له شيء ، حتى قالوا : إن الخيط الذي يوجد عند العدو لا بد أن يذهب للغنائم ، وقوله تبارك وتعالى :

{ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله } [الأنفال : 60] .

يعني أي شيء تنفقونه في سبيل الله تعالى مدخر لكم ما دمتم أنفقتموه وليس في بالكم إلا الله عز وجل . أما الإنفاق الذي ظاهره لله وحقيقته للشهرة أو الحصول على الثناء أو للتفاخر أو لقضاء المصالح . فكل ذلك اللون من الإنفاق خارج عن الإنفاق في سبيل الله ، لكن الإنفاق في سبيل الله سيرده الله لكم مصداقاً لقوله تعالى : { يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ }

أي أن ما تنفقونه في سبيل الله لا ينقص مما معكم شيئاً .

على أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نأخذ طريق العدل وليس طريق الافتراء؛ لذلك يطلب منا عز وجل ألا يطغينا هذا الاستعداد للحرب على خلق الله ، فما دام لدينا استطاعة وأعددنا قوتنا وأسلحتنا فليس معنى ذلك أن نصاب بالغرور ونجترىء على خلق الله؛ ولهذا فإن الله عز وجل ينبهنا إلى ذلك بقوله : { وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله . . . }

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61)

أي أن الله لم يطالبنا بأن نكون أقوياء لنفتري على غيرنا ، فهو لا يريد منا إعداد القوة للاعتداء والعدوان ، وإنما يريد القوة لمنع الحرب ليسود السلام ويعم الكون؛ لذلك ينهانا سبحانه وتعالى أن يكون استعدادنا للقتال وسيلة للاعتداء على الناس والافتراء عليهم . ولهذا فإن طلب الخصم السلم والسلام صار لزاماً علينا أن نسالمهم . وإياك أن تقول : إن هذه خديعة وإنهم يريدون يخدعونا؛ لأنك لا تحقق شيئاً بقوتك ، ولكن بالتوكل على الله عز وجل والتأكد أنه معك ، والله عز وجل يريد الكون متسانداً لا متعانداً . وهو سبحانه وتعالى يطلب منك القوة لترهب الخصوم . لا لتظلمهم بها فتقاتلهم دون سبب . وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا } [الأنفال : 61] .

أي إن مالوا إلى السلم ودعوك إليه فاتجه أنت أيضاً إلى السلم ، فلا داعي أن تتهمهم بالخداع أو تخشى أن ينقلبوا عليك فجأة؛ لأن الله تعالى معك بالرعاية والنصر ، وأنت من بعد ذلك تأخذ استعدادك دائماً بما أعددته من قوتك .

وقول الحق :

{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الله } [الأنفال : 61] .

أي إياك أن تتوكل أو تعتمد على شيء مما أعددت من قوة؛ لأن قصارى الأمر أن تنتهي فيه إلى التوكل على الله فهو يحميك . ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى حيثية ذلك فيقول :

{ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم } [الأنفال : 61] .

أي أنه لا شيء يغيب عن سمعه إن كان كلاماً يقال ، أو عن علمه إن كان فعلاً يتم . وإياك أن تخلط بين التوكل والتواكل ، فالتوكل محله القلب والجوارح تعمل؛ فلا تترك عمل الجوارح وتدعي أنك تتوكل على الله ، وليعلم المسلم أن الانتباه واجب ، وإن رأيت من يفقد يقظته لا بد أن تنبهه إلى ضرورة اليقظة والعمل ، فالكلام له دور هنا ، وكذلك الفعل له دور؛ لذلك قال الله سبحانه وتعالى :

{ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم } [الأنفال : 61] .

ولنلحظ أن قول الحق تبارك وتعالى :

{ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم } [الأنفال : 61] .

هذا القول إنما جاء بعد قوله تعالى : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ } [الأنفال : 60] .

وهي آية تحض على الاستعداد للقتال بإعداد العدة له .

ويريد الحق تبارك وتعالى أن ينبهنا إلى قوة المؤمنين واستعدادهم الحربي يجب ألا يكونا أداة للطغيان ، ولا للقتال لمجرد القتال . ولذلك ينبهنا سبحانه وتعالى إلى أنهم لو مالوا إلى السلم فلا تخالفهم وتصر على الحرب؛ لأن الدين يريد سلام المجتمع ، والإسلام لا ينتشر بالقوة وإنما ينتشر بالإقناع والحكمة . فلا ضرورة للحرب في نشر الإسلام؛ لأنه هو دين الحق الذي يقنع الناس بقوة حجته ويجذب قلوبهم بسماحته ، وكل ذلك لشحن مدى قوة الإيمان ، لنكون على أهبة الاستعداد لملاقاة الكافرين ، ولكن دون أن تبطرنا القوة أو تدعونا إلى مجاوزة الحد ، فإن مالوا إلى السلم ، علينا أن نميل إلى السلم؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد سلامة المجتمع الإنساني . وإن كنتم تخافون أن يكون جنوحهم إلى السلم خديعة منهم حتى نستنيم لهم ، ثم يفاجئونا بغدر ، فاعلم أن مكرهم سوف يبور؛ لأنهم يمكرون بفكر البشر ، والمؤمنون يمكرون بفكر من الحق سبحانه وتعالى؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن يريدوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله . . . }

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (62)

فإذا أحسست أن مبادرة السلم التي يعرضونها عليك هي مجرد خديعة حتى يستعدوا لك ويفاجئوك بغدر ومكر ، فاعلم أن الله تعالى عليم بمكرهم ، وأنه سيكشفه لك ، وما دام الله معك فلن يستطيعوا خداعك ، وإذا أردت أن يطمئن قلبك فاذكر معركة بدر التي جاءك النصر فيها

من الله تعالى وتمثلت أسبابه المرئية في استعداد المؤمنين للقتال ودخولهم المعركة . وتمثلت أسبابه غير المرئية في جنود لم يرها أحد ، وفي إلقاء الرعب في قلوب الكفار ، وكان النصر حليفك بمشيئة الله تعالى :

والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَإِن يريدوا أَن يَخْدَعُوكَ }

والخداع هو إظهار الشيء المحبوب وإبطان الشيء المكروه ، وتقول : « فلان يخادعني » أي يأتي بشيء أحبه ، ويبطن لي ما أكرهه ، ولأن الخداع في إخفاء ما هو مكروه ، وإعلان ما هو محبوب ، فهل أنت يا محمد متروك لهم ، أم أن لك ربا هو سندك ، وهو الركن الركين الذي تأوي إليه؟ .

وتأتي الإجابة من الحق سبحانه وتعالى :

{ وَإِن يريدوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ الله هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمؤمنين } [الأنفال : 62] .

إذن فالله سبحانه وتعالى حسبك وسندك وهو يكفيك؛ لأنه نصرك وآزرك . وأنت ترى أن هذه قضية دليلها معها ، فقد نصرك ببدر رغم قلة العدد والعُدد .

والتأييد تمكين بقوة من الفعل ليؤدى على أكمل وجه وأحسن حال ، وما دام الله عز وجل هو الذي يؤيد فلا بد أن يأتي الفعل على أقوى توكيد ليؤدي المراد والغاية منه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعاً مَّآ أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ . . . }

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)

والتأييد هنا عناصره ثلاثة : الله يؤيد بنصره ، والله يؤيد بالمؤمنين ، والله يؤلف بين قلوب المؤمنين . والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل لقوم لهم عصبية وحمية ، وهم قبائل متفرقة تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب؛ لأن عناصر التنافر موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف .

إن القبيلة مجتمعة تهب للدفاع عن أي فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف ، حتى إنه ليكفي أن يسب واحد من الأوس مثلاً واحداً من الخزرج لتقوم الحرب بين القبيلتين ، ولو أن القلوب ظلت على تنافرها لما استطاعت هذه القبائل أن تواجه أعداء الإسلام ، ولشغلتها حروبها الداخلية عن نصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار . ولكن الله ألف بينهم ، وبعد أن كانوا أعداءً أصبحوا أحباباً . وبعد أن كانوا متنافرين أصبحوا متوادين .

وهكذا ألف الله بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام في قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم . فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب . وحين تتآلف

القلوب؛ فهذا أقوى رباط؛ لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة في القلب .
إن القلب هو مصدر النية التي يتبعها السلوك ، فالذي يحرك إنساناً مَوْتوراً منك ويثير جوارحه ضدك ، إنما هو القلب ، فإن وجدت إنساناً يعبس في وجهك فافهم أن في قلبه شيئاً ، وإن لقيته وحاول أن يضربك فافهم أن في قلبه شيئاً أكبر ، وإن حاول أن يقتلك ، يكون في قلبه شعورٌ أعمق بالبغض والكراهية .
إذن فالينبوع لكل المشاعر هو القلب . ولذلك نرى الإنسان يُضَحِّي بكل شيء وربما ضحَّى بحريته وبماله في سبيل ما آمن به واستقر في قلبه ، ونحن نرى العلماء في معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من متع الحياة الدنيا لأن العلم قد تحول إلى عقيدة في قلوبهم سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك ، فكانما نية القلب وما يستقر فيها هي أقوى ما في الحياة .
ثم يبين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا فضل عظيم منه أن ألف بين قلوب المؤمنين؛ فيقول :
{ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض جَمِيعاً مَّآ أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال : 63] .
والتأليف بين القلوب هو جماع التواد والمساندة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الذي يرويه عنه النعمان بن بشير رضي الله عنهما : « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله » .
والحديث بتمامه : « انّ الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

ولم تكن المسألة في تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال؛ لأن المال لا يمكن أن يعطي الحب الحقيقي ، ولذلك فهناك بين الناس ارتباط مصالح وارتباط قلوب ، وارتباط المصالح ينتهي بمجرد أن تهتز أو تنتهي هذه المصالح ، لكن ارتباط القلوب يتحدى كل الأزمات ، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يحبك حقيقة مهما أعطيته من مال؛ لأن الحب الحقيقي لا يشترى ولا يباع ، إنما يشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية . والعرب الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما تهمهم الحمية والعصبية ، فغالبيتهم يملكون الثروات ، ولكن الفُرْقة فيما بينهم نابعة من الحمية والعصبية التي تجعل في القلوب غلاً وحسداً وحقداً؛ لذلك تنفعل جوارحهم . يقول الحق تبارك وتعالى :
{ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال : 63] .
وما دام الله سبحانه وتعالى له عزة فهو لا يغلب ، وما دام حكيماً فهو يضع الأمور في مكانها

السليم ، والله سبحانه وحده هو القادر على أن يجعل القلوب تتآلف؛ لأن القلوب في يد الرحمن يقلبها كما يشاء ، لذلك ندعو بدعاء رسول الله : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ، فعن شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة رضي الله عنها يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت : كان أكثر دعائه « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

وسبحانه وتعالى يقول : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ } [الأنفال : 24] .

ثم يعطينا الله سبحانه وتعالى قضية إيمانية فيقول : { يأيها النبي حَسْبُكَ الله . . . }

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (64)

وإياك أن تظن أن الله عز وجل يعاقب الكفار لأنهم لم يؤمنوا برسل الله فقط ، ولكن لأن الكون يفسد بسلوكهم ، وهو سبحانه غير محتاج لأن يؤمن به أحد ، ثم إن دين الحق سينتصر سواء آمن الناس به أم لم يؤمنوا ، وسبحانه يريد بالمنهج الذي أنزله كل الخير والسعادة لعباده؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمَانِ } [الحجرات : 17] .

فإذا دخل أحد في الإسلام فلا يمن على الله أنه أسلم؛ لأن إسلامه لن يزيد في ملك الله شيئاً ، وليعلم أن الله سبحانه وتعالى قد منّ عليه بهدايته للإسلام وهي لصالحه . ويريد الله من رسوله ألا يلتفت إلى عدد الكفار أو قوتهم؛ لأن معه الأقوى ، وهو الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك يقول :

{ حَسْبُكَ الله } [الأنفال : 64] .

أي يكفيك الله .

وقوله تعالى :

{ وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين } [الأنفال : 64] .

هي داخلة في { حَسْبُكَ الله } . لأن الله هو الذي هدى هؤلاء المؤمنين للإيمان فآمنوا .

ويكون المعنى : حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين ، أي يكفيكم الله ، وعلى ذلك فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه وتعالى .

ويمكن أن يكون المعنى يكفيك الله فيما لا تستطيع أن تحققه بالأسباب . ويكفيك المؤمنون فيما توجد في أسباب .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

{ يأيها النبي } [الأنفال : 64] .

وهذا النداء إنما يأتي في الأحداث؛ أما البلاغ فيقول الله تعالى : { يأيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ } [المائدة : 67] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى ينادي الرسول ب { يأيها النبي } حين يكون الأمر متعلقا بالأسوة السلوكية ، أما إذا كان الأمر متعلقا بتنزيل تشريع ، فالحق سبحانه يخاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله : { يأيها الرسول } ذلك أن الرسل جاءوا مبلغين للمنهج عن الله ، ويسيرون وفق هذا المنهج كأسوة سلوكية . على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كل رسول باسمه في القرآن الكريم فقال : « يا موسى » ، وقال : « يا عيسى بن مريم » ، وقال : « يا إبراهيم » . إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد خاطبه ب : « يأيها النبي » ، وب « يأيها الرسول » ، وهذه لفتة انتبه إليها أهل المعرفة ، وهذا النداء فيه خصوصية لخطاب الحضرة المحمدية ، فالله سبحانه وتعالى يقول : { يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة } [البقرة : 35] .

وينادي سيدنا نوحاً قائلاً سبحانه : { يانوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ } [هود : 48] .

وينادي سيدنا موسى فيقول : { أَن ياموسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين } [القصص : 30] .

وينادي سيدنا عيسى فيقول : { ياعيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله } [المائدة : 116] .

فكل نبي ناداه الحق تبارك وتعالى ناداه باسمه مجرداً إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقل له قط : يا محمد ، وإنما قال : « يأيها النبي » ، و « يأيها الرسول » . والحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها أراد أن يلفت نبيه صلى الله عليه وسلم إلى أن يعلم أنه يكفيه الله والمؤمنين مهما قل عددهم لينتصروا على الكفار .

ثم يأتي النداء الثاني من المولى تبارك وتعالى في قوله : { يأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ . . . }

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65)

وساعة تسمع أن فلانا يحرض فلاناً ، فهذا يعني أنه يحثه ، ويثير حماسه ويغريه على أن يفعل ، وأنواع الطلب كثيرة ، فهناك طلب نسميه نداء ، أي تناديه ، وطلب نسميه أمراً أي تفعله ، وطلب نسميه نهياً ، أي لا تفعله . هذه كلها أفعال طلب يسبقها النداء . هناك مثلاً طلب أن يُقبل عليه ، وطلب آخر أن يبتعد عنه ، وطلب ثالث أن يقضي له حاجة ، كل هذا يعني أن المتكلم يعرض على السامع أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا . وهناك لون من الطلب لا يحمل الإلزام ، بل هو عَرْض فقط (وهو الطلب برفق ولين) كقولك لمن تعلوه : أنا لا آمرك ، بل أعرض عليك فقط . وهناك لون ثالث من الطلب تحمله كلمة « حض » وهو الطلب بشدة؛ لأن المعروض معه دليل الإقبال عليه . فأنت حين تحض ابنك على المذاكرة مثلاً فهناك مبرر الإقبال على المذاكرة وهو النجاح . وأنت حين تحض الإنسان على فعل ، فأنت لا تنهاه أو

تأمره لأنك تريد أن يقبل على الشيء بحب ، ولكن حين تأمره بقسوة قد يكره هذا الشيء .
وقد تعرض على إنسان شيئاً فتجده يحب أن يفعله ولو بدون أمر منك .
إذن فقول الله تعالى :
{ حَرّضِ المؤمنين } [الأنفال : 65] .
أي حثهم وحضهم وحمسهم ، والفعل يتكون من الحاء والراء والضاد ، ومنها « حرض » و « يحرض » ومادة هذه الكلمة معناها القرب من الهلاك . ونجد قول الحق تبارك وتعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم : { قَالُواْ تالله تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين } [يوسف : 85] .
أي أنك ستستمر في ذكر يوسف حتى تقترب من الهلاك أو تهلك بالفعل .
ولكن هل معنى « حرِّض » هنا يعني : قرب المؤمنين من الهلاك؟ نقول : لا؛ لأن ما يسمونه الإزالة ، وهي أن يأتي الفعل على صورة يزيل أصل اشتقاقه ، عندما تقول : « قشرت البرتقالة » أي أزلت قشرتها . وكذلك قولنا : « مرّض » الطبيب فلانا وليس المعنى أن الطبيب قد أحضر له المرض ، ولكن معناها أزال المرض ، إذن فهناك أفعال تأتي وفيها معنى الإزالة . ويأتي معنى الإزالة مرة بتضعيف الحرف الأوسط مثل « حرَّض » و « قشَّر » ومرة تأتي بهمزة ، فتعطي معنى الإزالة ، فإذا قلت : « أعجم الكتاب » . فمعناها أنه أزال عجمته ، ولذلك نسمي كتب اللغة « المعاجم » ، أي التي تزيل خفاء اللغة وتعطينا معاني الكلمات . ومن قبل شرحنا معنى « قسط » و « أقسط »؛ وقسط تعني « الجور » أي الظلم مصداقاً لقوله تعالى : { وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً } [الجن : 15] .
وأقسط أي أزال الظلم .

إذن فهناك حروف حين تزاد على الكلمة؛ تزيل المعنى الأصلي لمادتها . وهناك تشديد يزيل أصل الانشقاق مثل « قشّر » أي أزال القشر ، و « مَّرض » أي أزال المرض . و « حرَّض » أي أزال الحرض .
ومعنى الآية الكريمة : اطلب منهم يا محمد أن يزيلوا قربهم من الهلاك بالقتال . وهذه القاعدة اللغوية تفسر لنا كثيراً من آيات القرآن الكريم . ففي قوله تعالى : { إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] .
الذين يأخذون بالمعنى السطحي يقولون : « أكاد أخفيها » أي أقرب من أن أسترها ولا أجعلها تظهر ، ونقول : الهمزة في قوله : « أكاد » هي همزة الإزالة ، فيكون معنى « أكاد » أي أنني أكاد أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى والعلامات الكبرى التي أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها . وبعضهم قد أرهق نفسه في شرح « أكاد أخفيها » ولم ينتبهوا إلى أن إزالة الاشتقاق

تأتي إما بتضعيف الحرف الأوسط ، وإما بوجود الهمزة . وقول الحق تبارك وتعالى هنا :
{ ياأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال } [الأنفال : 65] .
أي أن الله سبحانه وتعالى يطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تحريض المؤمنين على الجهاد وكأنه يقول له : ادع قومك إلى أن يبعدوا الدنو من الهلاك عن أنفسهم؛ لأنهم إن لم يجاهدوا لتغلب عليهم أهل الكفر ، فأهل الكفر يعيشون في الأرض بمنهج السيطرة والغلبة والجبروت ، وحين يجاهدهم المؤمنون إنما ليوقفوهم عند حدهم . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :
{ ياأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال } [الأنفال : 65] .
فكأنهم إن لم يحاربوا أهل الكفر سوف يحيط بهم الهلاك في الدنيا وفي الآخرة . والله سبحانه وتعالى يريد لهم الحياة الآمنة الكريمة في الدنيا والجنة في الآخرة . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وضع معياراً إيمانيا في القتال بين المؤمن والكافر ، والمعيار هنا وضعه خالقهم ، وخالق قواهم وملكاتهم وعواطفهم . والمعيار الإيماني هو في قوله تعالى :
{ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ } [الأنفال : 65] .
إذن فالمعيار الإيماني باختصار يساوي واحداً إلى عشرة ، أي أن القوة الإيمانية تجعل من قوة المؤمن ما يعادل قوة عشرة من الكفار ، هذا هو المقياس . وهنا يأتي بعض الناس ليقول : أساليب القرآن مبنية على الإيجاز وعلى الإعجاز ، فلماذا يقول الحق سبحانه وتعالى : « عشرون يغلبوا مائتين » . ثم يقول « مائة يغلبوا ألفا »؛ ألم يكن من الممكن أن يقال : إن الواحد يغلب عشرة وينتهي القول؟ .
نقول : إنك لم تلاحظ واقع الإسلام؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب مع المؤمنين في قتالهم ويحضر معهم بعضاً من أحداث القتال التي نسميها « غزوات » . أما البعثات القتالية التي لم يخرج فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكتفي فيها بإرسال عدد من المؤمنين ، فقد كانت تسمى سرايا ، وهذه السرايا كانت لا تقل عن عشرين مقاتلاً ولا تزيد على مائة ، فذكرها الله تعالى مرة بالعشرين ومرة بالمائة .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } [الأنفال : 65] .
ونحن نرى أن المقياس هنا ليس بعدد المقاتلين فقط ، ولكن لا بد أن يكونوا موصوفين بالصبر ، وفي آية أخرى بالصبر والمثابرة ، فمن الجائز أن يصبر عدوك فعليك حينئذ أن تصابره ، أي إن صبر قليلاً ، تصبر أنت كثيراً ، وإن تحمل مشقة القتال ، تتحمل أنت أكثر . إذن فالقوة القتالية لكي يتحقق بها ولها النصر لا بد أن تكون قوة صابرة قوية في إيمانها قادرة على تحمل شدة القتال

وعنفه .
ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى تعليل هذا الحكم الإيماني الذي أبلغنا به فيقول عز من قائل :
{ ياأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } [الأنفال : 65] .
إذن فالسبب في أن المؤمن يغلب عشرة من الكفار ، هو أن الكفار قوم لا يفقهون ، وما داموا لا يفقهون ، يكون المقابل لهم من المؤمنين قوما يفقهون . وهنا نقارن بين المؤمنين الذين يفقهون ، والكفار الذين لا يفقهون ونقول : إن الكافر حين يقاتل لا يعتقد في الآخرة ، وليس له إلا الدنيا ويخاف أن يفقدها ، ولذلك حين يوجد الكافر في ساحة الحرب فهو يريد أن يحافظ على حياته ولو بالفرار ، ولكن الدنيا بالنسبة للمؤمن رحلة قصيرة والشهادة هي الفوز برضوان الله ودخول الجنة بلا حساب ، ولذلك فإنه يقبل على القتال بشجاعة من يريد الاستشهاد . ونجد خالد بن الوليد يقول للفرس : أتيتكم برجال يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة .
فلو أن الكفار فقهوا أي فهموا أن الدنيا دار ممر ومعبر للآخرة ، وأن الآخرة هي المستقر لأنها الدار الباقية ، لامتلكوا قوة دافعة للقتال ، ولكنهم يريدون هذه الحياة لأنها بالنسبة لهم هي كل شيء . ولذلك يعلمنا القرآن الكريم فيقول : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين } [التوبة : 52] .
أي لن يحدث لنا في هذه الحرب إلا ما هو حسن ، فإما أن ننتصر ونقهركم ونغنم أموالكم ، وإما أن نُسْتَشْهَدَ فندخل الجنة وكلاهما حسن . ويكمل الحق سبحانه وتعالى : { وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فتربصوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ } [التوبة : 52] .
أي أنكم أيها الكفار لن يصيبكم إلا السوء والخزي . إما عذاب شديد من عند الله بغير أسباب ، وإما عذاب بأيدينا أي بالأسباب . إذن فالكافر حين يدخل المعركة لا ينتظر إلا السوء ، إما أن يقتل ويذهب إلى جهنم – والعياذ بالله – ، وإما أن يصيبه الله بعذاب يدفع الخوف في قلبه أثناء المعركة .

والكفار في القتال لا يعتمدون إلا على قوتهم وعددهم وعُدتِهم؛ أما المؤمنون فيعتمدون أولاً على الله القوي العزيز ويثقون في نصره . ولذلك يقبلون على القتال ومعهم رصيد كبير من طاقة الإيمان وهي طاقة تفوق العدد والعدة ، ويكون المقاتل منهم قويا في قتاله متحمساً له؛ لأنه يشعر أنه مؤيد بنصر الله . ونعلم أن كل إنسان يحرص على الغاية من وجوده؛ وغاية الكفار متاع الحياة الدنيا المحدود ، أما غاية المؤمنين فممتدة إلى الآخرة . ولذلك فالكافر يحارب بقوته فقط وهو مجرد من الإيمان .
ونلاحظ أن النصوص خبرية في قوله الحق تبارك وتعالى :

{ يأيها النبي حَرّضِ المؤمنين عَلَى القتال إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ } [الأنفال : 65] .

والنصوص الخبرية ليس فيها طلب ، ، وإن كان الطلب يخرج مخرج الخبر ليوهمك أن هذا أمر ثابت . وعندما قام بعض المتمردين من سنوات ودخلوا الحرم بأسلحتهم وحاصروا الناس فيه قال بعض السطحيين : إنَّ القرآن يقول : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } [آل عمران : 97] .

وأن هذا خبر كوني معناه أن كل من دخل الحرم كان آمناً ، وقلنا : إن قول الحق تبارك وتعالى : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } [آل عمران : 97] .

هذا كلام الله؛ فمن أطاع الله فليؤمِّن من يدخل الحرم . وقد تطيعون فتؤمِّنون من يدخل الحرم وقد تعصون فلا تؤمِّنونهم . إذن فالمسألة هي حكم تطيعونه أو لا تطيعونه ، كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : { والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قروء } [البقرة : 228] .

هذا كلام خبري . فإن أطاعت المطلقة الله؛ انتظرت هذه الفترة ، وإن عصت لم تنتظر ، وكذلك قوله تعالى : { والطيبات لِلطَّيِّبِينَ والطيبون لِلْطَّيِّبَاتِ } [النور : 26] .

وقد نرى في الكون زيجات عكس ذلك؛ تجد رجلاً لئيماً يتزوج بامرأة طيبة؛ وامرأة لئيمة تتزوج رجلاً طيباً ، وقد تتساءل : لماذا لم يتزوج الطيب طيبة مصداقاً لقول الحق ، ولماذا لم يتزوج الخبيث خبيثة؟

ونقول : لقد أخطأت الفهم لقول الله تعالى ، فما قاله الله ليس خبراً كونيا ، ولكنه خبر تشريعي ومعناه : زوجوا الطيبات للطيبين ، وزوجوا الخبيثات للخبيثين ، فإن فعلتم استقامت الحياة ، وإن عصيتم لا تستقيم الحياة؛ لأن الرجل الخبيث إن عاير امرأته وأهانها فهي ترد عليه الإهانة بالمثل ويكون التكافؤ موجوداً حتى في القبح . ولكن الشقاء في الكون إنما يأتي من زواج الطيب بالخبيثة ، والخبيث بالطيبة ، وليس معنى الآية – إذن – أنك لا تجد طيباً إلا متزوجاً من طيبة ، ولا خبيثاً إلا متزوجاً من خبيثة؛ لأن هذا أمر تكليفي تشريعي ، فإن فعلت تكون قد أطعت ، وإن لم تفعل تكون قد عصيت .

ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ . . . }

الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)

وفي هذا الحكم تخفيف عن الحكم السابق ، الذي جاء فيه أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين ، ونعلم أن هناك شروطا للقتال ، أولها أن يكون المقاتل قوي البدن وقوي الإيمان وعلى دراية بحيل الحرب وفنونه بحيث يستطيع أن يناور ويغير مكانه في المعركة ويخدع عدوه؛ لأن نتيجة المعركة لا

تحسمها معركة واحدة ، بل لا بد من كرّ وفرّ وإقبال وإدبار وخداع للقتال ومناورات مثلما فعل خالد بن الوليد في كثير من المعارك .

إذن فلكي تضمن أن عشرين صابرين يغلبون مائتين لا بد أن يتحقق في هؤلاء جميعاً قوة وصبر وجلد ، ولكن قد لا تكون قوة البدن متوافرة والجلد ضعيفاً . وقد تأتي للإنسان فترات ضعف ، وتأتيه أيضاً فترات قوة . ومن رحمته سبحانه وتعالى بالمؤمنين أنه خفف عنهم؛ لأنه يعلم أن هناك فترات ضعف تصيب الإنسان؛ لذلك جعل النسبة واحداً إلى اثنين . وقال سبحانه وتعالى :

{ الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين } [الأنفال : **66**] .

وهل معنى ذلك أن الآية الأولى قد نسخت؟ نقول : لا ، ولكن الآية الثانية أعطت حالات الأغيار والضعف البشري وحسب لها حساباً . ولذلك نجد الحكم الأول قائما وهو الحد الأعلى ، كما أن الحكم الثاني – أيضاً – قائم وهو الحد الأدنى ، فإذا لقي مؤمن ثلاثة كفار وفر منهم لا يعدُّ فارّاً يوم الزحف ، ولا يؤاخذه الله على ذلك . لكن إن واجهه اثنان فانسحب وتركهما يعتبر فارّاً؛ لأن الحد الأدنى هو واحد لاثنين . وتكون هذه أقل نسبة موجودة . والنسب تتفاوت بين واحد إلى اثنين حتى واحد إلى عشرة ، حسب قوة الصبر وقوة الجسم وعدم التحيز إلى فئة .

وبطبيعة الحال نعلم أن القوي قد يصير ضعيفاً . وكذلك فإن بعضاً من النفوس قد تضيق بالصبر ، وأيضاً حين زاد عدد المؤمنين ، فمن المحتمل أن يتكل بعضهم على بعض . ولكنهم عندما كانوا قلة ، كان كل واحد منهم يبذل أقصى قوته في القتال للدفاع عن عقيدته .

والمشرع لا يشرع للمؤمنين بما يحملهم ما لا يطيقون ، ولكنه يشرع لهم ليخفف عنهم ، والمثال على ذلك نجد أن الله قد أباح الإفطار في رمضان إذا كان الإنسان مريضاً أو على سفر ، وكذلك شرع الحق تبارك وتعالى قصر الصلاة أثناء السفر ، إذن فالمشرع قد عرف مواطن الضعف في النفس البشرية التي تجعلها لا تقوى على التكليف . وفي هذه الحالة يقوم المشرع ذاته بالتخفيف ، ولا يتركنا نحن لنخفف كما نشاء .

وبعض الناس يقول : إن الحياة العصرية لم تعد تتحمل تنفيذ هذه التشريعات ، وأنه ليس في وسعنا في هذا العصر أن نلتزم ، وأن ربنا سبحانه وتعالى يقول :

{ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . } [البقرة : **286**] .

ونقول لكل من يقول ذلك : لقد فهمت وسع النفس خطأ ، وكان عليك أن تقيس وسعك بالتكليف ، ولا تقيس التكلف بوسعك . والسؤال : هل كلَّف الله سبحانه وتعالى أو لك يكلف؟ فإن كان قد كلف فذلك تأكيد على أنه في استطاعتك ، ولا تقل : أنا سأقيس استطاعتي . ثم ابحث هل التكليف في نطاق هذه الاستطاعة أو لا؟ وعليك أن تبحث أولاً : هل كلفت بهذا

الأمر أو لم تكلف؟ فإذا كنت قد كلفت به يكون في استطاعتك أداء ما كلفت به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها؛ لا تفرض أنت استطاعة ثم تُخْضع التكليف لها ، ولكن اخضع استطاعتك للتكليف .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً . . } [الأنفال : 66] .

و « الآن » تعني الزمن ، وقد خفف الله أي هو سبحانه وتعالى الذي رفع المشقة ، وأنت تقول هذا الشيء خفيف وهذا الشيء ثقيل . لكن أتعرف بأي شيء حكمت بمقدار المشقة التي تتحملها في أدائه؟ . فإن رفعت قلماً تقول : هذا خفيف ، وإذا رفعت قطعة حجر كبيرة تقول : هذه ثقيلة ، بأي شيء حكمت؟ هل بمجرد النظر؟ لا . فأنت لا تستطيع أن تفرق بالنظر بين حقيبتين متماثلتين لتقول هذه ثقيلة وهذه خفيفة؛ لأن إحداهما قد تكون مملوءة بالحديد ، والثانية فيها أشياء خفيفة؛ ولا تستطيع أن تحكم باستخدام حاسة السمع ولا حاسة اللمس؛ لأنك باللمس لا تستطيع أن تحكم على حقيبة بأنها خفيفة والأخرى ثقيلة ، ولا بحاسة الشم أيضاً .

إذن فكل وسائل الإدراك عاجزة عن أن تدرك خفة الشيء أو ثقله ، فبأي شيء ندرك؟ . ونقول : قد اهتدى علماء وظائف الأعضاء أخيراً إلى أن الثقل والخفة لهما حاسة هي حاسة العضل ، فحين يجهد ثقل ما عضلات الإنسان ويحملك مشقة أنه ثقيل ، فهو يختلف عن ثقل لا يؤثر على العضل ولا تحس فيه بأي إجهاد؛ لأن هذا الثقل يكون خفيفاً .

إذن فهناك وسائل للإدراك لم نكن نعرفها في الماضي واكتشفها العلم الحديث . أنت مثلاً حين تمسك قماشاً بين أصابعك تقول : هذا قماش كثيف أو سميك وهذا خفيف أو رقيق ، ما هي الحاسة التي عرفت بها ذلك؟ نقول : إنها حاسة « البين » فقد ابتعدت أصابعك قليلاً في القماش الثقيل ، وقربت من بعضها في القماش الرقيق ، وقد يصل الفرق إلى ملليمتر واحد أو أقل لا تدركه بالنظر؛ ولكن تدركه بحاسة البين .

وإياكم أن تحسبوها رياضيا وعدديا وتقولوا إن النصر بالعدد؛ لأنكم بذلك تعزلون أنفسكم عن الله ، أو إنَّما تفتنون بالأسباب ، فكل نصر هو بإذن الله ومن عند الله تبارك وتعالى .

ولماذا لم يقل الحق سبحانه : علم فيكم ضعفاً وخفف عنكم؟ لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون الترخيص في الحكم أثبت من الحكم ، على أن هذا التخفيف قد يعود إلى عدة أسباب؛ منها أن حكم الله أزلي .

ولذلك وضع الله سبحانه وتعالى حدا أعلى يتناسب مع قوة الإيمان في المسلمين الأوائل ، وحدا أدنى يتناسب مع ضعف الإيمان الذي سيأتي مع مرور الزمن ، أو يتناسب مع العزوف عن الدنيا بالنسبة للمسلمين الأوائل ، وعلى الإقبال على الدنيا بالنسبة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم

، أو مع قلة الفتن التي كانت في عصر النبوة وكثرة الفتن في عصر كالذي نعيش فيه .
ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :
{ والله مَعَ الصابرين } [الأنفال : 66] .
وأنت قد تقول : فلان سافر إلى الخليج ومعه عشرون جنيهاً . فإذا اندهش من يسمعك وتساءل : « ماذا يفعل بهذا المبلغ الصغير »؟ تقول له : إن معه فلاناً « المليونير » فيطمئن السائل . فإن قلت : إن فلاناً وهو رجل كبير السن ذهب إلى الجبل ليحضر صخرة . . نتساءل : كيف؟ . يقال لك : إن معه فلاناً القوي فتطمئن .
إذن فمعية الضعيف للقوي أو الأدنى للأعلى تصنع نوعاً من الاستطراق ، وتعطي من القوي للضعيف ، ومن الغني للفقير ، ومن العالم للجاهل ، إذن فالمعية تعطي من قوة التفوق قدرة للضعيف .
وهنا يوضح المولى سبحانه وتعالى للمؤمنين : إن قوتكم وقدرتكم على الصبر محدودة لأنكم بشر ، فلا تعزلوا هذه القوة المحدودة عن قدرة الله غير المحدودة ، واصبروا لأن الله مع الصابرين .
ولأنه سبحانه معكم فهو يعطيكم من قوته فلا تستطيع أي قوة أن تتغلب عليكم وتقهركم .
ولقد تعرضنا لهذا وقت أن تكلمنا عن الغار ، حين دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه الغار في طريق الهجرة إلى المدينة وجاء الكفار ووقفوا على باب الغار فماذا قال أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . وهذا كلام منطقي مع الأسباب . فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم له ليطمئنه؟ . قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ ولكن ما وجه الحجة في ذلك؟ . لقد قال : ما دام الله ثالثهما ، والله لا تدركه الأبصار ، فالذين في معيته لا تدركهم الأبصار .
وفي هذه الآية مثل سابقتها؛ يتحدث المولى سبحانه وتعالى عن المعارك والنصر .
ومن الطبيعي أن يكون من معايير النصر كسب الغنائم . والغنائم التي تمت في بدر قسمان؛ منقولات ، وقد نزل حكم الله فيها بأن لله ولرسوله الخمس ، بقي جزء آخر من الغنائم لم ينزل حكم الله فيه وهم الأسرى ، ففي معركة بدر قتل من قريش سبعون وأسر سبعون ، فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس . فقال : ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ إنَّ الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس .

فقال أبو بكر : يا رسول الله أهلك وقومك ، قد أعطاك الله الظفر ونصرك عليهم ، هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان استبقهم ، وإني أرى أن تأخذ الفداء منهم ، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم بك ، فيكونوا لك عضدا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تقول يابن الخطاب؟

قال : يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنني من فلان – قريب لعمر – فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان – أخيه – حتى يضرب عنقه ، حتى ليعلم الله تعالى أنه ليست في قلوبنا مودة للمشركين ، هؤلاء صناديد قريش وأئمتهم وقادتهم فاضرب أعناقهم ، ما أرى أن يكون لك أسرى ، فإنما نحن راعون مؤلفون .

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله أنظر وادياً كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً . فقال العباس وهو يسمع ما يقول : قطعت رحمك . قال أبو أيوب : فقلنا – يعني الأنصار – إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا .

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت ، فقال أناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، ثم خرج فقال : إن الله تعالى ليلين قلوب أقوام فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله تعالى ليشد قلوب أقوام فيه حتى تكون أشد من الحجارة . مثلك يا أبا بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثلك في الأنبياء مثل إبراهيم قال : { فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [إبراهيم : **36**] ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى بن مريم إذ قال : { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } [المائدة : **118**] ، ومثلك يا عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالشدة والبأس والنقمة على أعداء الله تعالى ، ومثلك في الأنبياء مثل نوح إذ قال : { رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً } [نوح : **26**] ومثلك في الأنبياء مثل موسى ، إذ قال : { رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : **88**] لو اتفقتما ما خالفتكما ، أنتم عالة فلا يفلتن منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ، ومن بين الأسرى كان عدد من أغنياء قريش .

وسبق له صلى الله عليه وسلم أن استشار الصحابة في معركة بدر . وحدث أن اختار رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام أماكن جيش المسلمين ، فتقدم أحد الصحابة وهو الحباب بن المنذر بن الجموح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل هو الرأي والحرب والمكيدة . فأشار الحباب بن المنذر بتغيير موقع المسلمين ليكون الماء وراءهم فيشربوا هم ولا يشرب الكفار .

إذن فلو أنه منزل أنزله الله لرسوله لما جرؤ أحد على الكلام؛ لأن لله علماً آخر لا نعلمه ، فنحن ببشريتنا لنا علم محدود؛ والله له علم بلا نهاية . وكذلك في مسألة الأسرى؛ لم يكن فيها حكم قد نزل من الله . ولذلك استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته ، وكان أمامه رأي فيه

شدة لعمر بن الخطاب ومعه عبد الله بن رواحة ، ورأي لين يخالف الرأي السابق وكان لسيدنا أبي بكر الصديق .

وكان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجز ما قاله الفريقان؛ فريق اللين بقيادة أبي بكر رضي الله عنه وفريق الشدة بقيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ثم مال النبي صلى الله عليه وسلم إلى رأي الفداء . وجعل فدية الواحد من ألف درهم إلى أربعة آلاف درهم ، وكان في الأسر العباس وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع النبي أنينه من قيده فقال : فكوا عنه قيده . وفسر بعض الناس هذا على أنه ميل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمه ، ولكنه كان ردا على جميل فعله العباس في بيعة العقبة؛ حينما حضر وفد من أهل المدينة إلى مكة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام .

وقد حضر العباس هذه البيعة ، وكان أول من تكلم فيه رغم أنه كان ما زال على دين قومه . فقال : يا معشر الخزرج وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج . . خزرجها وأوسها . قال العباس : إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عز من قومه ومنعة من بلده ، أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم؛ فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده

إذن فالعباس قد وقف موقفاً لا بد أن يجازى بمثله ، ورغم أنه كان كافراً وقتئذ ، إلا أن الكفر لم يمنع عاطفة العباس أن ينجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف بمثله؛ لأن المبدأ الإسلامي واضح في قول الحق : { وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ } [النساء : **86**] .

فلا يؤخذ هذا التصرف – إذن – على أنه مجاملة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه ، ولكنها حق على رسول الله من موقف العباس في بيعة العقبة .

وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : يا عباس افد نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عقبة بن عمرو بن جحدم أخا بني الحارث بن فهر؛ فإنك ذو مال . فقال : يا رسول الله إني كنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني . فقال رسول الله : الله أعلم بإسلامك إن يكن ما تذكر حقا فالله يجزيك به . أما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك . وكان المسلمون قد أخذوا من العباس عشرين أوقية من ذهب كغنيمة ، فقال العباس : يا رسول الله احسبها لي في فدائي ، فقال الرسول : لا ، ذلك شيء أعطاناه الله عز وجل منك . قال العباس : فإنه ليس لي مال . لقد جعلتني يا محمد أتكفف قريشاً ، فضحك النبي وقال : فأين

المال الذي وضعته بمكة حيث خرجت من عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها : إن أصبت في سفري هذا؛ فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقثم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا . قال العباس : والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وغيرها ، وإني لأعلم أنك رسول الله . ففدى العباس نفسه بأربعة آلاف درهم ، وفدى كلا من ابني أخيه وحليفه بألف لكل منهم .

إذن ففي التقييم المادي دفع العباس أربعة أمثال ما دفعه الأسير العادي كفدية . ثم ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوج ابنته زينب وكان في الأسارى أبو العاص بن الربيع ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته زينب ، أسرة خراش بن الصمة ، فلما بعثت قريش في فداء الأسرى بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص وأخيه عمرو ابن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوا وردوا عليها الذي لها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ عليه أن يخلي سبيل زينب إليه ، وكان فيما شرط عليه في إطلاقه ، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعلم . ما هو ، إلا أنه لما خرج بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار ، مكانه ، فقال : كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها ، فخرجا مكانهما ، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها ، فخرجت تجهز .

ومن بعد ذلك نزل قول الحق تبارك وتعالى : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض . . . }

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67)

و « أسرى » جمع كلمة « أسير » ، وتعريف الأسير أنه مشدود عليه الوثاق ممن أخذه بحيث يكون في قبضة يده ، والأسير في الإسلام هو نبع العبودية والرق؛ لأن الأسير يقع في قبضة عدوه الأقوى منه ويمكنه أن يقتله أو يأخذه عبداً .

إذن ففي هذه الحالة لا نقارن بين أسير أصبح عبداً وبين حر ، وإنما نقارن بين قتل الأسير وإبقائه على قيد الحياة . وأيهما أنفع للأسير أن يبقى على قيد الحياة ويصبح أسيراً أم يقتل؟ .

إن بقاءه على قيد الحياة أمر مطلوب منه ومرغوب فيه . وبذلك يكون تشريع الله سبحانه وتعالى في تملك الأسرى إنما أراد الله به أن يحقن دماءهم ويبقي حياتهم؛ لأن الأسير مقدور عليه بالقتل ،

وكان من الممكن أن يترك الأسرى ليقتلوا وتنتهي المشكلة . ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يحفظ حتى دم الكافر؛ لأن الله هو الذي استدعاه إلى هذه الحياة وجعله خليفة ، ولذلك يحفظه . ولعله من بعد ذلك أن يهتدي ويؤمن . ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لعن من يهدم بنيان الله إلا بحقه .

على أن الإسلام قد اتهم زوراً بأنه هو الذي شرع الرق ، ولكن الحقيقة أنه لم يبتدع أو ينشيء الأسر والرق ، ولكنه كان نظاماً موجوداً بالفعل وقت ظهور الإسلام ، وكانت منابع الرق متعددة بحق أو بباطل ، بحرب أو بغير حرب ، فقد يرتكب أحد جناية في حق الآخر ولا يقدر أن يعوضه فيقول : « خذني عبداً لك » ، أو « خذ ابنتي جارية » ، وآخر قد يكون مَديناً فيقول : خذ ابني عبداً لك أو ابنتي جارية لك « . وكانت مصادر الرق – إذن – متعددة ، ولم يكن للعتق إلا مصرف واحد . وهو إرادة السيد أن يعتق عبده أو يحرره .

ومعنى ذلك أن عدد الرقيق والعبيد كان يتزايد ولا ينقص؛ لأن مصادره متعددة وليس هناك إلا باب واحد للخروج منه ، وعندما جاء الإسلام ووجد الحال هكذا أراد أن يعالج مشكلة الرق ويعمل على تصفيته . ومن سمات الإسلام أنه يعالج مثل هذه الأمور بالتدريج وليس بالطفرة؛ فألغي الإسلام كل مصادر الرق إلا مصدراً واحداً وهو الحرب المشروعة التي يعلنها الإمام أو الحاكم . وكل رق من غير الحرب المشروعة حرام ولا يجوز الاسترقاق من غير طريقها ، وفي ذات الوقت ، عدد الإسلام أبواب عتق العبيد ، وجعله كفارة لذنوب كثيرة لا يكفر عنها ولا يغفرها سبحانه وتعالى إلا بعتق رقبة ، بل إنه زاد على ذلك في الثواب الكبير الذي يناله من يعتق رقبة حبا في الله وإيماناً به فقال سبحانه وتعالى : { فَلاَ اقتحم العقبة * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ }

[البلد : 11-13] .

فإذا لم يرتكب الإنسان ذنباً يوجب عتق رقبة ولا أعتق رقبة بأريحية إيمانية ، فإنه في هذه الحالة عليه أن يعامل الأسير معاملة الأخ له في الإسلام . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه سيدنا أبو ذَر رَضي الله عنه . « إخوانكم خولكم جعلهم الله فتنة تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه » .

إذن فقد ساوى هذا الحديث الشريف بين العبد والسيد ، وألغي التمييز بينهما؛ فجعل العبد يلبس مما يلبس سيده ويأكل مما يأكل أو يأكل معه؛ وفي العمل يعينه ويجعل يده بيده ، ولا يناديه إلا ب « يا فتاي » أو « يا فتاتي » .

إذن فالإسلام قد جاء والرق موجود وأبوابه كثيرة متعددة ومصرفه واحد؛ فأقفل الأبواب كلها إلا

باباً واحداً ، وفتح مصارف الرق حتى تتم تصفيته تماماً بالتدريج . وبالنسبة للنساء جاء التشريع السماوي في قول الله تعالى : { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ } [النساء : 3] .

وكان ذلك باباً جديداً من ابواب تصفية الرق؛ لأن الأمة إن تزوجت عبداً مثلها تظل على عبوديتها وأولادها عبيد ، فإن أخذها الرجل إلى متاعه وأصبحت أم ولده يكون أولادها أحراراً ، وبذلك واصل الإسلام تصفية الرق ، وفي ذات الوقت أزاح عن الأنثى الكبت الجنسي الذي يمكن أن يجعلها تنحرف وهي بعيدة عن أهلها مقطوعة عن بيئتها ، وترى حولها زوجات يتمتعن برعاية وحنان ومحبة الأزواج وهذه مسألة تحرك فيها العواطف ، فأباح للرجل إن راقت عواطفهما لبعضهما أن يعاشرها كامرأته الحرة وأن ينجب منها وهي أمَة ، وفي ذلك رفع لشأنها لأنها بالإنجاب تصبح زوجة ، وفي ذات الوقت تصفية للرق .

إن هذه المسألة أثارت جدلاً كثيراً حول الإسلام ، وقيل فيها كلام كله كذب وافتراء . والآن بعد أن ألغي الرق سياسيا بمعاهدات دولية انتهت إلى ذات المبادئ التي جاء بها الإسلام وهي تبادل الأسرى والمعاملة بالمثل . وهو مبدأ أول ما جاء ، إنما جاء به الإسلام ، فليس من المعقول أن يأخذ عدو لي أولادي يسخرهم عنده لما يريد ، وأنا أطلق أولاده الأسرى عندي ، ولكن المعاملة بالمثل فإن منّوا نُمنّ ، وإن فدوا نفد . ويشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الرق الناشيء عن الأسر مقيداً في قَوله تعالى :

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض } [الأنفال : 67] .

ونقول : إن هناك فرقاً بين حكم يسبق الحدث فلا يخالفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكم يجيء مع الحدث ، ولا بد أن نفرق بين الحكمين؛ حكم يسبق الحدث إن خولف تكون هناك مخالفة ولكنَّ حكماً يأتي مع الحدث ، فهذا أمر مختلف ، لنفرض أنك جالس وجاء لك من يقول إن قريبك فلان ذهب إلى المكان الفلاني ، وأنه ينفق على كذا ، وأعطي كمبيالة على نفسه بمبلغ كذا .

اذهب إليه لتمنعه ، فتذهب إليه وتمنعه ، هنا جاء الحكم مع الحدث ، فلا تكون هناك مخالفة .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض } [الأنفال : 67] .

قد جاء هذا الحكم بعد أن تم أسر كفار قريش وأخذوا إل المدينة ، وتشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة بشأنهم ووصلوا إلى رأي . إذن فالحكم جاء بعد أن انتهت العملية ، والدليل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يغير الحكم ، فظل الأسر والفداء . إذن : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى } أي ما ينبغي لنبي أن يكون له أسرى حتى يقسو على الكفار في القتال

.

ويريد الحق سبحانه وتعالى هنا أن ينبه المؤمنين إلى أنهم لو كانوا يريدون الأسرى لعرض الدنيا ، كأن يطمع أي واحد في من يخدمه ، أو يطمع في امرأة يقضي حاجته منها ، أو في مال يبغي به رغد العيش ، كل ذلك مرفوض؛ لأنه سبحانه وتعالى لا يريد من المؤمن أن يجعل الدنيا أكبر همه ، بل يريد الحق من المؤمنين أن يعملوا ويحسنوا الاستخلاف في الأرض؛ ليقيموا العدل على قدر الاستطاعة؛ وليجزيهم الله من بعد ذلك بالحياة الدائمة المنعمة في الجنة .

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا والله يُرِيدُ الآخرة والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [الأنفال : 67] .

وسبحانه العزيز الذي لا يغلب ، والحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه .

ويجيء من بعد ذلك قوله سبحانه وتعالى : { لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ . . . }

لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68)

هذه الآية الكريمة تشرح وتبيّن أن الحق سبحانه وتعالى لا يحاسب أحداً إلا بعد أن ينزل التشريع الذي يرتب المقدمات والنتائج ، ويحدد الجرائم والعقوبات ، ولولا ذلك لنزل بالمؤمنين العذاب لأخذ الأسرى ، من قبل أن تستقر الدعوة ، وبما أن الحق تبارك وتعالى لا ينزل العذاب إلا بمخالفة يسبقها التشريع الذي يحددها ، لولا ذلك لأنزل العذاب بالمؤمنين ، ولكن بما أن هذا الفعل لم يجرَّم من قبل فلا عقاب عليه .

وينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى الغنائم التي حصل عليها المؤمنون في غزوة بدر فيقول تبارك وتعالى : { فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً . . . }

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (69)

أي إياكم أن تنفقوا ما غنمتموه بسفاهة في أي شيء لا لزوم له ، بل اتقوا الله فيما أعطاكم ومنحكم من غنائم . سواء كانت منقولات أم مالا أم أسرى تجعلونهم يقومون بأعمال يعود نفعها وعائدها إليكم . اتقوا الله في كل هذا ولا تنفقوه بحماقة ، وقوله تعالى : { إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أي أن الله تعالى قد غفر لكم ما فعلتم قبل أن تنزل هذه الآية الكريمة :

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الأسرى بعد ذلك فيقول : { ياأيها النبي قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الأسرى إِن يَعْلَمِ الله فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً . . . }

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (70)

أي إن صح كلام العباس في إسلامه وأنه كتم الإسلام؛ فالله يعلم ما في قلبه وسوف يعطيه الله خيراً مما أخذ منه . وبالفعل فاء الله على العباس بالخير . فقد أسند الطبري إلى العباس أنه قال : فيّ نزلت – أي هذه الآية – حين أعلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي أخذت مني قبل المفاداة فأبى وقال : « ذلك فَيْءٌ » فأبدلني الله من ذلك عشرين عبداً كلهم تاجر بمالي .

وفي الرواية التي ذكرها ابن كثير (قال العباس فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجوه من مغفرة الله عز وجل) ، وهكذا تحقق قول الله عز وجل

{ يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ . . } [الأنفال : 70] .

وبعد أن نزلت هذه الآية الكريمة ، وكانت موافقة لما اتخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرارات ، وأبلغ صلى الله عليه وسلم الأسرى بالحكم النهائي من الله : لا تفكون إلا بالفداء أو بضرب الرقاب . وهنا قال سيدنا عبد الله بن مسعود : يا رسول الله إلا سَهْل بَن بيضاء فإنني عرفته يذكر الإسلام ويصنع كذا وكذا ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلا سَهْل بن بيضاء ، وقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأنفال : 70] .

أي ما دام في قلوبكم الخير وقد آمنتم أو ستدخلون في الإسلام؛ فالله يعلم ما في وسيغفر لكم لأنه غفور رحيم . وعندما استقر الأمر قال بعض من الأسرى : يا رسول الله : إن عندنا مالاً في مكة ، اسمح لنا نذهب إلى هناك ونحضر لك الفداء ، وخشي صلى الله عليه وسلم أن تكون هذه خدعة واحتيال ، فماذا يفعل؟ أيطلق سراحهم ويصدقهم فيحضروا الفدية؟ أم هذه حيلة وقد أضمروا الخيانة والغدر؟ .

فنزل قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ الله مِن قَبْلُ . . . }

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (71)

ويوضح الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : لا توافقهم على ما يريدون ، فهم إن أضمروا لك الخيانة فقد خانوا الله من قبل فمكنك منهم فلا تأمن لهم ، وسبحانه يعلم ما في صدورهم .

وبعد أن تكلم سبحانه عن قصة بدر وأسرى بدر ، والمواقف التي وقفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته في هذه القصة ، أراد سبحانه وتعالى أن يصنف الأمة الإسلامية المعاصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عناصرها ، ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صاح بالدعوة الإسلامية في مكة ، ومكة هي مركز سيادة العرب ، وكانت قبيلة قريش هي سيدة جميع قبائل العرب وسيدة الجزيرة كلها ، لأن قريشاً سيدة مكة ، ومكة فيها بيت الله الحرام ، وكانت كل قبيلة من قبائل العرب يكون بعض من أبنائها في بطن سيادة قريش خلال الحج ، وما دامت كل قبيلة تذهب إلى مكة فهي تطلب حماية قريش ، ولم توجد قبيلة تعادي قريشاً أو تجرؤ على مهاجمتها؛ لأنها تعلم أنه سيجيء يوم تكون فيه تحت حماية قريش وتحت رحمتها حين الحج إلى بيت الله الحرام .

إذن فسيادة قريش نشأت من وجود البيت . ولو أن هذا البيت لم يكن موجوداً لكان مركز قريش كمركز أي قبيلة من العرب ، ولو أن البيت قد هدم من أبرهة ، لكانت سيادة قريش قد انتهت . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الفيل : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : **1-5**] .

ثم تأتي بعدها مباشرة السورة الكريمة التي توضح لنا أن الله سبحانه وتعالى حين حفظ بيته وفتك بجيوش المعتدين فجعلهم كعصف مأكول ، قد أكد هذه السيادة لقريش فيقول تبارك وتعالى في السورة التي سميت باسمها : { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : **1-4**] .

إذن فالذي أعطى السيادة لقريش هو بيت الله الحرام . ولذلك تذهب قوافلهم بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحد من القبائل أن يتعرض لها . ولو لم يكن بيت الله الحرام في مكة وقريش سادة مكة؛ لما كان لهم هذا الوضع المتميز والمكانة العالية ، إذن فعز قريش في بيت الله الحرام ، وأمنهم وسيادتهم في أنهم جالسون في راحة وتنتقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن . ثم تعود محملة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون . وحين أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوته كان ذلك الإعلان في مكة ، وقد أعلنها صلى الله عليه وسلم في وجه الجبابرة وأقوياء الجزيرة العربية كلها .

ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأ دعوته في قبيلة ضعيفة خارج مكة لقالوا : استضعفهم وغرر بهم ، أو لقالوا يريدون به السيادة ، أي أنهم كقبيلة مستضعفة لم يأخذوا رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا ، ولكنهم أخذوها سلماً ليسودوا بها الجزيرة العربية . ولكن شاء الحق تبارك وتعالى أن يكون ميلاد الرسالة في مكة وأول من سمعها هم سادة قريش؛ لتأتي في مركز السيادة ويكون المراد بها هو الحق ، وإعلاءه في وجه سادة الجزيرة العربية .

ثم كانت المعركة بين سادة قريش والإسلام وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه وحاولوا إيقاف الدعوة بكل الطرق وشتى الحيل . لكن هل انتصروا؟ ثم هل امتد الإسلام وانتشر من مكة؟ . لا ، بل كانت الهجرة إلى المدينة ، ومن هناك امتد الإسلام .

إذن فقد بدأ الإسلام من مكان السيادة في الجزيرة العربية ، ولكنه انتشر من مكان لا سيادة فيه ، لماذا؟ لأن الإسلام لو انتشر من مكة لقالوا : قوم ألفوا السيادة على الناس ، وتعصبوا لواحد منهم؛ ليمدوا سيادتهم من الجزيرة العربية إلى أماكن أخرى في العالم . ولكن النصر جاء من المدينة لتعلم الدنيا كلها : أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية لمحمد ، وهو الذي حقق النصر لمحمد ، ولم يخلق العصبية لرسول الله أنه من قريش ، أو أنه من قبيلة اعتادت سيادة الجزيرة العربية .

ويصنف الحق سبحانه وتعالى لنا المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهؤلاء منهم المهاجرون . ومنهم الأنصار ، ومنهم جماعة مؤمنة لم يهاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم هاجروا بعد ذلك . ومنهم جماعة آمنوا ولم يهاجروا من مكة وبقوا فيها حتى الفتح .

إذن : هناك أربع طوائف : الذين هاجروا مع الرسول إلى المدينة ، والأنصار الذين استقبلوهم وآووهم . وطائفة لم يهاجروا مع رسول الله ولكنهم هاجروا بعد ذلك ، وطائفة بقيت في مكة حتى الفتح .

ويقول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . . }

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)

الفئة الأولى في هذه الآية هم المهاجرون وقال فيهم الحق تبارك وتعالى :

{ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله } [الأنفال : 72] .

والفئة الثانية هم الأنصار الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى :

{ والذين آوَواْ ونصروا } [الأنفال : 72] .

ثم يوحد الله تعالى بين المهاجرين والأنصار فيقول عز وجل :

{ أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [الأنفال : 72] .

وبعض من العلماء فسر قول الحق : { بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } على أنها تشمل الالتحام الكامل ، لدرجة أنه كان يرث بعضهم بعضا أولاً – حسب قول العلماء – إلى أن نزلت آيات الإرث

فألغت ذلك التوارث الذي كان بينهم .
وقول الحق تبارك وتعالى : { وَأْوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله } [الأنفال : 75] .
أبعدت هذا المعنى ، وبعض العلماء قال : إن الولاية هي النصر ، وهي المودة ، وهي التمجيد ، وهي الإكبار ، فقالوا : هذه صفات الولاية ، وهناك آية أخرى عن الأنصار يقول فيها الحق تبارك وتعالى : { والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } [الحشر : 9] .
وقد عرفنا الكثير عن الإيثار من الأنصار الذي قد بلغ مرتبة لا يتسامى إليها البشر أبداً إلا بصدق الإيمان ، ذلك أن الرجل الذي يعيش في نعمة وله صديق أو حبيب يحب أن يتحفه بمشاركته في نعمته ، فإذا كان عنده سيارة مثلاً يعطيها له ليستخدمها ، وإذا كان له بيت جميل قد يدعوه للإقامة فيه بعض الوقت ، وإذا كان عنده ثوب جميل أو فاكهة نادرة قد يعطيه منها ، إلا المرأة فهي النعمة التي يأنف الرجل أن يشاركه فيها أحد .
ولكن عندما وصل المهاجرون إلى المدينة وتركوا نساءهم في مكة ، كان الأنصاري يجيء للمهاجر ويقول له : انظر إلى نسائي والتي تعجبك منهن أطلقها لتتزوجها . هذه مسألة لا يمكن أن يصنعها إلا الإيمان الكامل ، وحين يصنعها الإيمان ، فهذا الإيمان يجدع أنف الغيرة ويمنعها أن تتحرك ، ولا يكون هناك من له أكثر من زوجة ومن هو محروم من المرأة .
وقد حدد الحق لنا ميزة كل طائفة من طوائف المؤمنين وبين أحكامهم : فالطائفة الأولى المهاجرون الذين آمنوا وتركوا دينهم الذي ألفوه ، ثم هاجروا وتركوا أوطانهم وبيوتهم وأموالهم وزوجاتهم وأولادهم وجمالهم وزروعهم ، ثم بعد ذلك عملوا لينفقوا على أنفسهم بمال يكتسبونه وينفقون منه أيضاً على الجهاد؛ مع أنهم تركوا أموالهم وكل ما يملكون في مكة ، فكأنهم ضحوا بالمال وضحوا بالنفس . ودخلوا وهم قلة بلغت ما بلغت فلن تزيد عن ثلاثمائة ودخلوا في معركة مع الكثرة المشركة ، ولم يكونوا واثقين من النصر ولكنهم كانوا يطلبون الشهادة .
إذن فهم آمنوا ، هذه واحدة ، وهاجروا ، وهذه الثانية ، وجاهدوا بأموالهم هذه الثالثة ، وجاهدوا بأنفسهم هذه الرابعة ، وكانوا أسوة لأنهم سبقوا إلى الإيمان والجهاد فشجعوا غيرهم على أن يؤمنوا ، ولذلك فلهم أجر من سن سنة حسنة ، ولهم أجر من عمل بها ، وهؤلاء هم السابقون الأولون ولهم منزلة عالية وعظيمة عند الله عز وجل .

والطائفة الثانية الأنصار وهم الذين آووا هذه واحدة ، ونصروا هذه الثانية ، وأحبوا من هاجر إليهم ، هذه الثالثة . وهؤلاء جمعهم الله في الولاية أي النصرة والمودة والتعظيم والإكبار . ثم يأتي القول من الحق تبارك وتعالى :

{ والذين آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُواْ } [الأنفال : 72] .
وهؤلاء هم الطائفة الثالثة الذين آمنوا وتركوا دينهم الذي ألفوه . ولكنهم لم يهاجروا ولم يتركوا أوطانهم ولا أولادهم ولا أزواجهم ولا أموالهم ، إذن فيهم خصلة تمدح وخصلة ثانية ليست في صالحهم؛ فموقفهم بين بين ، ولكن لأنهم لم يهاجروا لذلك يأتي الحكم من الله :
{ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُواْ } [الأنفال : 72] .
إذن فهذه الطائفة آمنت ولم تهاجر ، ولكن عدم هجرتهم لا يجعل لهم عليكم ولاية ، إلا أن قوله تبارك وتعالى :
{ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُواْ } [الأنفال : 72] .
وفي هذا تشجيع لهم حتى يهاجروا ، كأن تقول لابنك : ليس لك عندي مكافأة حتى تذاكر .
وفي هذا تشجيع له على المذاكرة . ولم يقطع الله سبحانه وتعالى أمامهم الطريق إلى الهجرة لأنهم ربما فهموا أن الهجرة لم تكن إلا في الأفواج الأولى لأنه قال : و { الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ } أي أن الباب مفتوح .
وكلمة « هاجروا » مأخوذة من الفعل الرباعي « هاجر » ، والاسم « هجرة » والفعل « هاجر » . وهجر غير هاجر . فقد يترك الإنسان مكاناً يقيم فيه فيكون هذا معناه « هجر » أي ترك وهو عن قلة وضيق تدفع إلى الهرب ، إنما هاجر لا بد أن يكون هناك تفاعل بين اثنين ألجأه إلى أن يهاجر ، إذن فهناك عمليتان ، اضطهاد الكفار للمسلمين؛ لأنهم لو لم يضطهدوهم وعاشوا في أمان يعلنون إيمانهم وإسلامهم ، ما حدثت الهجرة . ولكن الاضطهاد الذي لاقاه المسلمون كان تفاعلاً أدى إلى هجرتهم ، والمتنبي يقول :
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ألا تفارقهم فالراحلون همو
أي أنك إذا تركت قوماً دون أن يكرهوك على ذلك تكون أنت الذي رحلت عنهم ، ولكن المهاجرة التي قام بها المسلمون كانت بسبب أن الكفار ألجأوهم إلى ذلك ، إذن هجر تكون من جهة واحدة ، واسم الهجرة مأخوذ من هاجر ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : إن الدار التي اضطهدتم فيها كان يصح أن تهجروها . ويوضح الحق سبحانه وتعالى :
{ والذين آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ استنصروكم فِي الدين فَعَلَيْكُمُ النصر } [الأنفال : 72] .

أي لا بد أن يكون هناك التضامن الإيماني دون الولاية الكاملة للمؤمنين الذين لم يهاجروا .
فالإيمان له حقه في قوله تعالى :
{ وَإِنِ استنصروكم فِي الدين فَعَلَيْكُمُ النصر } [الأنفال : 72] .
ولكن النصر هنا مشروط بشرط آخر هو :

{ إِلاَّ على قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ } [الأنفال : 72] .
فاحفظوا هذا الميثاق لأن نقض العهود الميثاقية ليس من تعاليم الدين الإسلامي . ولكن ما دام بينكم وبينهم ميثاق فيجب أن تتم التسوية عن طريق التفاهم . فعليكم احترام ما اتفقتم وتعاهدتم عليه . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير } [الأنفال : 72] .
أي يعلم ويرى كل ما تصنعون وقد جمعهم الله سبحانه وتعالى كمؤمنين في آية واحدة وكلهم في مراتب الإيمان وهم قسم واحد .
ثم يأتي الحديث بعد ذلك عن القسم الثاني المقابل فيقول سبحانه وتعالى : { والذين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . . . }

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73)

فالكفار – كما نعلم – وكما تحدثنا الآية الكريمة بعضهم أولياء بعض .
فإن لم يتجمع المؤمنون ليترابطوا ويكونوا على قلب رجل واحد ، فالكفار يتجمعون بطبيعة كفرهم ومعاداتهم للإسلام . وإن لم يتجمع المسلمون بالترابط نجد قول الحق تحذيراً لهم من هذا :
{ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الأنفال : 73] .
فسبحانه يريد لنا أن نعلم أننا إن لم نعش كمسلمين متحدين ننحاز لبعضنا البعض في جماعة متضامنة ، وتآلف وإيمان ، إن لم نفعل ذلك فسوف تكون هناك فتنة شديدة وفساد كبير . لماذا؟ . لأن المؤمنين إن لم يتجمعوا ذابوا مع الكافرين ، وستوجد ذبذبة واختلال في التوازن الإيماني جيلاً بعد جيل . ولو حدث مثل هذا الذوبان ، سيتربى الأولاد والأطفال في مجتمع يختلط فيه الكفر بالإيمان ، فيأخذوا من هذا ، ويأخذوا من ذاك ، فلا يتعرفون على قيم دينهم الأصيلة ، وقد يضعف المسلمون أمام إغراء الدنيا فيتبعون الكافرين . ولكن إن عاش المسلمون متضامنين متعاونين تكون هناك وقاية من أمراض الكفر ، وكذلك لا يجترىءعليهم خصومهم .
أما إذا لم يتجمعوا ولم يتحدوا فقد يتجرأ عليهم الخصوم ويصبحون قلة هنا ، وقلة هناك وتضيع هيبتهم ، ولكن إذا اتحدوا كانوا أقوياء ، ليس فقط بإيمانهم ، ولكن بقدرتهم الإيمانية التي تجذب غير المسلمين لأهذا الدين . وينشأ الفساد الكبير حين لا يتضامن المسلمون مع بعضهم البعض فيجترىء عليهم غير المسلمين ويصبحون أذلةً وهم أغلبيةٌ ، ولا يهابهم أحد مع كثرة عددهم ، ولا يكونون أسوة سلوكية . بل يكونون أسوة سيئة للإسلام . ويقول الحق سبحانه وتعالى :
{ والذين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [الأنفال : 73] .
فهل هذا توجيه من الله جل جلاله لهم ، أو إخبار بواقع حالهم؟
لقد طلب الحق سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض ، ولكن هل قوله تعالى : {

والذين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } هو طلب للكافرين ، كما هو طلب من الله للمؤمنين؟ نقول : لا ، لأن الذين كفروا لا يقرأون كلام الله عز وجل ، وإذا قرأوه لا يعملون به .

إذن فهذا إخبار بواقع كوني للكافرين . فعندما يطلب الله سبحانه وتعالى من المؤمنين أن يكونوا أولياء بعض ، فهذا تشريع يطلب الله لأن يحرص عليه المؤمنون ، أما إذا قال إن الكفار بعضهم أولياء بعض . فهذا إخبار بواقع كوني لهم .

إن الإسلام جاء على أهل أصنام من قريش ، ويهود في المدينة هم أهل كتاب ، وكذلك كان الأوس والخزرج كفاراً مثل قريش؛ ولكن الإسلام جمعهم وجعل بعضهم أولياء بعض ، وكان بين الأوس والخزرج وبين اليهود قبل الإسلام عداء ، وإن لم يصل إلى الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون لمال اليهود وعلمهم وأشياء أخرى ، وكان اليهود يستفتحون على الأوس والخزرج بمجيء النبي محمد المذكور عندهم في التوراة ويقولون لهم : أطل زمان نبي سنتبعه ونقتلكم قتل عاد وإرم .

إذن كان اليهود يتوعدون الكفار ، لما بينهم من عداء عقدي وديني ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر اليهود برسالته والتحموا مع كفار قريش وقالوا : { هؤلاء أهدى مِنَ الذين آمَنُواْ سَبِيلاً } [النساء : 51] .

أي أن كفار قريش أهدى من الذين آمنوا بمحمد ، فالولاء بين الكافرين واليهود جاء لهم بعد أن كانوا أعداء ، لكنهم اتحدوا بعد ذلك ضد المؤمنين ، فإذا كان هذا حدث بين الكفار واليهود؛ فيجب على المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم اجتمعوا على شيء يعاديه الجميع .

وهذا ينفي مسألة الإرث التي قال بها بعض العلماء من أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض أي يرث بعضهم بعضا؛ لأنه لو كان هذا صحيحاً فكأن الله شرع للكافرين – أيضا – أن يرث بعضهم بعضاً؛ لأنه استخدم كلمة أولياء بالنسبة لهم أيضاً . والحق سبحانه وتعالى لم يشرع للكافرين .

وبعد أن بينا أقسام المؤمنين الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفنا أنهم أربعة ، ذكرنا ثلاثة منهم هم المهاجرون والأنصار والذين آمنوا ولم يهاجروا ، وبقي من هذه الأقسام الذين آمنوا وهاجروا بعد ذلك ، ويقول الحق تبارك وتعالى : { والذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا . . . }

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74)

أي إياكم أن تقولوا بأنهم لم يهاجروا معكم . وتنكروا أنهم منكم . بل هم منكم وأولياؤكم فهم قد اتبعوكم بإحسان .

وما الذي جعل الحق سبحانه وتعالى يذكر هذا مرة أخرى؟ . لقد تكلم سبحانه وتعالى عن الذين

آمنوا وجاهدوا في سبيل الله والذين نصروا ، ولننتبه إلى أن هذا ليس تكراراً لأنه سبحانه وتعالى يذكر لنا هنا أنهم جاهدوا بالمال والنفس . وقد جاءت هذه الآية لتثبيت الحكم الشرعي . وانظر إلى عجز كل آية لتعرف . ففي عجز هذه الآية :

{ أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال : 74] .

والحكم الشرعي بالنسبة لهم هو أن يكونوا أولياء بعض ، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة حيث يقول : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [الأنفال : 72] .

أي أعطانا الحكم الشرعي في ولاية بعضهم لبعض . وأوضح أن هؤلاء لا بد أن يكونوا أولياء ، وهذا هو الحكم المطلوب منهم ، ولكنه سبحانه في هذه الآية الكريمة :

{ والذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً } [الأنفال : 74] .

فلم يتكلم الحق سبحانه وتعالى هنا عن الولاية ولم يعط حكماً بها ، وإنما قال سبحانه وتعالى : { هُمُ المؤمنون حَقّاً } وهذا حصر يسمونه قصراً ، أي أن غيرهم لا يكون مؤمنا حقا ، مثلما تقول : فلان هو الرجل ، يعني أن غيره لا تعد رجولته كاملة من كل نواحيها . وهذه مبالغة إيمانية .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله الكريم :

{ لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال : 74] .

وهنا يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجزاء . والجزاء إما أن يكون في الدنيا ، ولذلك حكم الله لهم بأنهم هم المؤمنون حقا ، وإما أن يكون الجزاء في الآخرة . وجزاء الآخرة يمحو السيئات ويرفع الدرجات فقوله : { لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ } أي تمحي سيئاتهم . وقوله تعالى : { وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } أي تضاعف لهم الحسنات في الجنة . فكأن الآية الأولى كان مقصوداً بها حكم الولاية . وهو حكم مطلوب منهم . والآية الثانية تكلمت عن الجزاء وبينت جزاءهم في الدنيا والآخرة . والجزاء في الدنيا أنهم هم المؤمنون حقا ، أمَّا الجزاء في الآخرة فهو محو الذنوب حتى لا يعاقبوا . ورفع درجاتهم بإعطائهم الثواب؛ وهو رزق كريم .

والمغفرة لهم على قليل الذنوب؛ لأنه لا يوجد أحد بلا كبوة في شيء من الأشياء ولا أحد معصوم مثل الرسل فهم وحدهم الذين عصمهم الله من الوقوع في المعاصي ، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يغفر لمن ذكرهم في هذه الآية النزوات الصغيرة ، ولهم رزق كريم أيضاً . والرزق هو ما انتفع به الإنسان ، وإن كان الناس ينظرون إلى الرزق على أنه المادة فقط؛ من مال وأرض وعقار وطعام ولباس ، ولكنَّ الحقيقة أن الرزق مجموع أشياء متعددة؛ منها ما هو مادي وما هو معنوي .

فالاستقامة رزق ، والفضيلة رزق ، والعلم رزق ، والتقوى رزق ، وكلما امتد نفع الرزق يوصف بأنه حسن وجميل . وهنا وصف الحق الرزق بأنه كريم . والكرم هو مجموع الأشياء التي فيها محاسن . وإذا جاء الرزق بلا تعب يكون كريماً ، فالهواء رزق لا عمل لك فيه؛ يمر عليك فتتنفس ، والماء رزق لا عمل لك فيه لأنه يهبط عليك من السماء ، والطعام رزق لك فيه عمل قليل ، فأنت بذرت ورويت وانتظرت حتى جاء الثمر .

إذن فهناك رزق لا عمل لك فيه مطلقاً وهو رزق في قمة الكرم ، وهناك رزق لك فيه عمل ضئيل وهو رزق كريم لأنه أكبر من العمل . وأنت حين تعطي إنساناً أجره ليس هذا مناّ أو كرما منك لأنه مقابل عمل ، ولكن الكرم أن تعطيه بلا مقابل . ورزق الجنة بلا مقابل لأنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك وتشتهيه تجده أمامك .

إذن فهو رزق في قمة الكرم ، والحق سبحانه وتعالى قد جعل الكرم من صفات الرزق ، فالرزق يعرف عنوانك ومكانك وأنت لا تعرف عنوانه ولا مكانه لأنك قد تبذل جهداً كبيراً في زراعة أرضك ثم تأتي آفة وتصيب الزرع فلا يعطيك رزقاً . وقد تذهب إلى مكان وأنت خالي الذهن فتأتيك صفقة فيها رزق وفير .

إذن فالرزق يعرف مكانك ويأتي إليك ولكنك لا تعرف أين هو . وقد حدد الله سبحانه وتعالى الرزق وقسمه على عباده ، وكل رزق مقسوم لك سيصل إليك ولن يذهب إلى غيرك ، وأنت قد تأكل طعاماً تلتذ به ثم يهيج معدتك فتفرغ معدتك منه ، ويأتي طائر ليلتقط بعضه؛ هذا رزق الطائر تعافه أنت . وقد تأكل الطعام ويتحول إلى مكونات في دمك ثم تذهب تتبرع بهذا الدم إلى غيرك .

إذن فهذا الطعام الذي أكلته وتحول إلى دم في جسدك ليس رزقك ولكنه رزق من نقل إليه الدم . ولذلك إذا قرأت القرآن تجد أن الحق سبحانه وتعالى يقول : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ } [النحل : **112**] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ . . . }

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (75)

إذن فمن آمن بعد هؤلاء الأولين وهاجر وجاهد له أيضاً مغفرة ورزق كريم .

هكذا حدد الحق سبحانه وتعالى فئات المؤمنين وجعل لكل فئة مقامها ، فالذين آمنوا هم جميعاً قد انتموا انتماء أوليا إلى الله ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مقهوراً في أشياء ومختاراً في أشياء يفعلها أو لا يفعلها ، والمؤمن يختار ما أراده الله تعالى له؛ ففعل ما قال له

: « افعل » ، ولم يفعل ما قال له : « لا تفعل » ، فكأنه اختار مرادات الله في التشريع .
إن معنى الإيمان أن يستقر في قلبك وأن تؤمن أن الله تعالى بكل صفات كماله خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وأننا جئنا إلى هذا الكون فوجدناه قد أعد لنا إعداداً جيداً ، كل ما فيه مسخر لخدمة الإنسان ، وأعطانا الله سبحانه وتعالى الاختيار في أشياء ، وجعلنا من رحمته مقهورين في أشياء .
مثلا دقات القلب والدورة الدموية وأجزاء جسمك الداخلية مقهورة لله عز وجل لا دخل لاختيارك فيها ، وكذلك التنفس فأنت تتنفس وأنت نائم ولا تعرف كيف يحدث ذلك ، ولكن الأفعال التي تصدر منك بعد فكر ، تلك هي الأفعال التي جعل الله لك فيها اختياراً . ولو أرادك الخالق أن تكون مقهورا لفعل ، ولو أراد أن يؤمن الناس جميعاً لفعل؛ ولكنه سبحانه وتعالى ترك لهم الاختيار؛ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ليعرف مَنْ مِن عباده أحب الله فأطاعه في التكليف ، ومَنْ مِن الخلق قد عصاه .
إذن فالانتماء الأول للمسلم هو انتماء الإيمان ، وللإنسان انتماءات أخرى؛ ينتمي لوطنه ولأهله ولأولاده ولماله ، ولمن الانتماء الأول يجب أن يكون لله تعالى ، بحيث يترك الناس أوطانهم وأموالهم وأهلهم إذا كان الإيمان يقتضي ذلك . والإنسان المؤمن هو الذي يترك اختياره فيختار ما أمر به الله عز وجل ، ويجعل كل ما يملكه في خدمة ذلك؛ فيجاهد بنفسه لأن الله أمره بذلك ، ويجاهد بماله لأن الله أمره بذلك . إذن فالمؤمن الحق لا انتماء له إلا لله . فالذين هاجروا والذين آووا ونصروا ، تركوا أموالهم وأولادهم وكل ما يملكون حبا في الله وطاعة له .
فالأنصار لم يهاجروا ولكنهم وضعوا كل إمكاناتهم في إيواء المهاجرين حبا لله؛ فتنازلوا عن مساكن لهم وأموال لهم ، وتنازلوا عن زوجاتهم في سبيل الله كل منهم مؤمن حقًا ، أما الفئة الثانية فهناك نقص في إيمانهم؛ ذلك أنهم لم يهاجروا رغم إسلامهم وفضلوا أن يبقوا مع أولادهم وأهلهم .
ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عنهم : { مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ } [الأنفال : 72] .
أي ليس مطلوباً أن توالوهم ، لكن إذا استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، لماذا؟ لأنهم لم يتركوا الانتماءات الأخرى مثل المال والولد والأهل ومكان الإقامة . والفئة الثالثة هم الذين جاءوا بعد ذلك ، لم تكن هناك هجرة ليهاجروا ولكن من آمن منهم وجاهد وترك اختياره وخضع لاختيار الله خضوعاً تاما يكون كالمؤمنين الأوائل؛ لأنهم تركوا كل الانتماءات من أجل الله تعالى .
ثم يختتم الحق سبحانه سورة الأنفال بهذه الآية الكريمة : { والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ . . . }

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1)

والبراءة –كما قلنا – هي انقطاع العصمة ، والعصمة استمساك ، والحق تبارك وتعالى يقول : { وَمَن يَعْتَصِم بالله فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [آل عمران : 101] .

وهو أيضا يقول : { لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله } [هود : 43] .

إذن فالبراءة يلزم منها أنه كان هناك عهد واستمساك به ، وجاءت البراءة من الاستمساك بهذا العهد الذي عهده رسول الله معهم ، وكانوا معتصمين بالمعاهدة ، ثم جاء الأمر الإلهي بقطع هذه المعاهدة . وكلمة « براءة » تجدها في « الدَّيْن » ويقال : « برىءَ فلانٌ من الدَّيْن » . أي أن الدَّيْنَ كان لازماً في رقبته ، وحين سَدَّده وأدَّاه يقال : « برىء من الدَّين » . ويُقال : « برىء فلان من المرض » إذا شُفِي منه أي أن المرضَ كان يستمسك به ثم انقطع الاستمساك بينه وبين المرض .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عاهد قريشاً وعاهد اليهود ، ولم يُوَفِّ هؤلاء بالعهود ، وكان لزاماً أن ينقض رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه العهود . وإذا سأل سائل : لماذا لم ينقض هذه العهود من البداية ، ولماذا تأخر نقضه لها إلى السنة التاسعة من الهجرة . رغم أن مكة قد فتحت في العام الثامن من الهجرة؟

لقد حرر الرسول صلى الله عليه وسلم الكعبة من الأصنام والوثنية ، وبعد أن استقرت دولة الإسلام بدأ تحرير « المكين » وهو الإنسان الذي يحيا بجانب البيت الحرام ، وكان لا بد من تصفية تجعل المؤمنين في جانب ، والكفار وأهل الكتاب والمنافقين في جانب آخر ، وقد حدث هذا في العام التاسع من الهجرة حتى لا يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا والمكان محرر والمسجد محرر والناس محررون ، ولذلك أوضح سبحانه وتعالى بهذه الآية لأصحاب العهود التي كانت بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم : أنتم لستم أهلاً للأمان ولا للوفاء بالعهود؛ لذلك نحن قد قطعنا هذه العهود . وهذه القطيعة ليست من إرادة بشرية من محمد وأصحابه ولكنها قطيعة بأمر الله تعالى ، فقد يجوز أن يعرف البشر شيئاً ويَغيب عنهم أشياء . لكن العالم الأعلى قال : { بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ } [التوبة : 1] .

ولم يقل براءة من الله وبراءة من الرسول ، ذلك لأنها براءة واحدة ، والبراءة صادرة من الله المشرع الأعلى ، ومبلغة من الرسول الخاتم ، والبراءة موجهة إلى المشركين الذين عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له حلف مع قبيلة خزاعة ، وكانت هناك قبيلة مضادة لها اسمها قبيلة بكر متحالفة مع قريش . وقد أعانت قريش قبيلة بكر على قبيلة خزاعة ، فذهب إلى المدينة شاعر من خزاعة هو عمرو بن سالم الخزاعي وقال القصيدة المشهورة ومنها هذه الأبيات :

يا رب إنِّي ناشدٌ مُحَّمدا ... حلف أبينا وأبيه الأ تلَدا

كُنت لنا أباً وكنَّا ولدا ... ثُمَّتَ أسلمنا ولم ننزع يدا

فانصر هداك الله نَصْراً عتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددَا

إن قريشاً أخلفُوك الموعدا ... ونَقَضُوا ميثاقكَ المؤكَّدا

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا ركَّعاً وسُجَّدا

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال : نصرت يا عمرو بن سالم ، لا نصرت إن لم أنصرك .

إذن فالمشركون هم الذين نقضوا العهد أولاً ، وصاروا لا يؤمن لهم جانب لأنهم لا يحترمون عهداً أو معاهدة ، ونزل قول الحق سبحانه وتعالى : { بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الذين عَاهَدْتُمْ مِّنَ المشركين } [التوبة : 1] .

الخطاب هنا للمسلمين ، والبراءة من المشركين . ونزل بعد ذلك قول الحق تبارك وتعالى : { فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله . . . }

فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2)

والخطاب هنا للمشركين . وتساءل البعض : كيف يتأتى أن يكون خطاب الحق في الآية الأولى للمسلمين بالبراءة من المشركين ، ثم يأتي خطاب من الله للمشركين؟ . وقال بعض العلماء إنه ما ما دامت البراءة قد صدرت من الله ، فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين قولوا للمشركين : { فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التوبة : 2] .

ولكننا نرد على هذا بأن المعاهدة تكون بين اثنين ، ولذلك لا بد أن يكون هناك خطاب للذين قطعوا ، وخطاب للمقطوعين ، ويتمثل خطاب الذين قطعوا في قوله تعالى : { بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الذين عَاهَدْتُمْ مِّنَ المشركين } [التوبة : 1] .

وخطابه للمقطوعين يتمثل في قوله سبحانه وتعالى :

{ فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التوبة : 2] .

ومن سماحة هذا الدين الذي أنزله الحق تبارك وتعالى؛ أن المولى سبحانه يعطي مهلة لمن قطعت المعاهدة معهم ، فأعطاهم مهلة أربعة أشهر حتى لا يقال إن الإسلام أخذهم على غرة ، بل أعطاهم أربعة أشهر ومن كانت مدة عهد أكثر من أربعة أشهر فسوف يستمر العهد إلى ميعاده .

{ فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ } [التوبة : 2] .

وكلمة « فسيحوا » تعطي ضماناً إيمانيا ، ف « ساح » معناها سار ببطء ، وهناك « ساح الشيء » و « سال الشي » عندما تقول : « سال الماء » أي تدفق وسال ، وأنت تشاهده سائلا . وإن قلت : « ساح السمن » أي سار ببطء لا يدرك حتى صار سائلا . ولماذا قال الحق

سبحانه وتعالى { فَسِيحُواْ فِي الأرض } ؟ .
والإجابة : أن سماحة الإسلام تمنع أن نأخذكم على غرة ، وعلى الذين قطع الإسلام معهم العهد أن يسيروا وهم مطمئنون وفي أمن وأمان ولا يتعرض لهم أحد . ووقف العلماء عند تحديد أربعة الأشهر ، ونظر بعضهم إلى تاريخ النزول ، وقد نزلت هذه الآية في شوال؛ إذن فتكون الأشهر الأربعة هي : شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم .
وقال علماء آخرون : إن ساعة النزول لا علاقة لها بالأشهر الأربعة ، وإن الأشهر الأربعة تبدأ من ساعة الإبلاغ أي في الحج؛ لأن الله تعالى يقول : { وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر } [التوبة : 3] .
وعلى ذلك فتكون من يوم العاشر من ذي الحجة إلى يوم العاشر من ربيع الآخر . وقال بعض العلماء : إن نزول هذه الآية كان في عام النسيء الذي كان الكفار يؤخرون ويقدمون في الأشهر الحرم ، والذي قال فيه الله سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا النسياء زِيَادَةٌ فِي الكفر يُضَلُّ بِهِ الذين كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله } [التوبة : 37] .
وأضاف صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي رواه أبو بكرة حيث قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان » .

أي أنه صلى الله عليه وسلم حسب من بداية الكون إلى هذا الوقت فرجع بالأمر إلى نصابه وألغي النسيء؛ هذا النسيء الذي كانوا يقررونه أيام الشرك لتقديم أو لتأخير الأشهر الحرم؛ لأنهم كانوا إذا أتت الأشهر الحرم ويريدون الحرب يؤجلون الشهر الحرام حتى يمكنهم الاستمرار في الحرب . ولذلك كان الحج في هذه السنة في شهر ذي القعدة . وما دام الحج في شهر ذي القعدة ، تنتهي الشهور الأربعة في العاشر من ربيع الأول . وقيل إن اختيار أربعة الأشهر جاء ليوافق ما شرعه الله في قوله سبحانه تعالى : { إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ } [التوبة : 36] .
فيكون عدد الأشهر مناسبا لعدد الأشهر الحرم . ولكن هذه المرة فيها ثلاثة أشهر حرم فقط هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع هو رجب فكيف يقال أربعة؟
ونقول : إن الأشهر الأربعة الحرم التي فيها رجب هي الأشهر الحرم الدائمة ، أمّا الأشهر الأربعة التي ذكرت في هذه الآية فهي أربعة أشهر للعهد تنتهي بانتهائها ، ولكن أربعة الأشهر الحرم الأصلية تبقى محرمة دائماً ، ولقد شرع الله عز وجل الأشهر الحرم ليحرم دماء الناس من الناس؛ ذلك أن الحروب بين العرب كانت تستمر سنوات طويلة دون نصر حاسم . فجعل الله الأشهر

الحرم حتى يجنح الناس إلى السلم ، ويتحكم فيها العقل وتنتهي الحروب .
وهنا يبلغنا الحق تبارك وتعالى أنه قد أعطى المشركين أربعة أشهر يسيرون فيها آمنين ، لماذا؟ لأن الذي يكون ضعيفا مع خصمه ينتهز أي فرصة يقدر عليه فيها ليستغلها ويقضي عليه ، ولا يمهله أربعة أشهر حتى ولا أربعة أيام . ولكن القوي لا يبالي بمد الأجل لخصمه لأنه يستطيع أن يأتي به في أية لحظة . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله } [التوبة : 2] .
ويقال فلان أعجز فلاناً ، أي جعله ضعيفا عاجزاً . ولذلك فإن كلّ شيء مُعجز شرف للمُعْجَز ، والمثال : عندما جاء القرآن الكريم معجزاً للعرب وكان ذلك شرفا لهم لأنهم كانوا أمة بلاغةٍ وفصاحةٍ . والله لا يتحدى الضعيف وإنما يتحدى القوي ، فلغة القرآن أعجزت الفصيح والبليغ . وحين يعطي الحق سبحانه وتعالى هذه المهلة للمشركين إنما كانت ببنود معينة ، وكان أمير الحج في هذا العام سيدُنا أبو بكر وكان هو الذي سيبلغ البراءة . وهي أنه لا يدخل المسجد الحرام مشرك ولا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولن يدخل الجنة إلا من آمن ، هذه هي البنود .
ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بفطنته النبوية كان يعرف أن العرب لا يقبلون نقض العهود والمواثيق إلا من أهلها : فأرسل صلى الله عليه وسلم سيدنا عليا بن أبي طالب ليعلن نقض العهود؛ لأنه علم أن الكفار كانوا سيقولون : لا نقبل نقض العهد من أبي بكر ، بل لا بد أن يكون من واحد من آل الناقض .

وحينما قال المولى سبحانه وتعالى :
{ واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله } [التوبة : 2] .
أعطى هذه المهلة الطويلة ، لأنهم مهما فعلوا في هذه المهلة ، فالله غالب على أمره . فلن يفوت أو يغيب شيء عنه سبحانه وتعالى ، ومهما حاولوا أن يجدوا حلفاء لهم فلن يستطيعوا شيئا مع الله ، صحيح أنهم ضعاف في هذه الفترة ، وصحيح أنَّ الضعيف قد تكون قدرته على القوي مميتة لأنه يعرف أن فرصته واحدة ، وإن لم يقدر على خصمه فسوف ينتهي ، لكن الله غالب على أمره . وأراد الشاعر العربي أن يعبر عن ذلك فقال :
وضعيفة فإذا أصابت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء
لأن الضعيف ينتهز الفرصة ليقضي على خصمه . أما القوي فيعرف أنه قادر على خصمه في أي وقت ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ وَأَنَّ الله مُخْزِي الكافرين } [التوبة : 2] .
الإخزاء هو الإذلال بفضيحة وعار ولا يكون ذلك إلا لمن كان متكبراً متعالياً . أي أن الله قادر

على أن يخزي الكفار بفضيحة وعار مهما بلغت قوتهم وكبرهم .

ويقول الحق عز وجل بعد ذلك : { وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر أَنَّ الله بريااء مِّنَ المشركين وَرَسُولُهُ . . . }

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3)

وبعض الناس يقول ما دام الله تعالى قد قال : { بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ } [التوبة : 1] .

فلماذا يعيد سبحانه وتعالى :

{ أَنَّ الله برياء مِّنَ المشركين وَرَسُولُهُ } [التوبة : 3] .

ونقول : إن البراءة جاءت إعلاماً بالمبدأ ، والأذن جاء لإبلاغ البراءة ، و « أذان » معناها إعلام يبلغ للناس كلهم ، تماماً كأذان الصلاة؛ فهو إعلام للناس بدخول وقت الصلاة . والأذان مأخوذ من الأذن . لأن الإنسان حين يعلم الناس بشيء لا بد أن يخطب فيهم فيسمعون كلامه بآذانهم ، ولذلك تجد الأذن هي الوسيلة الأولى للإدراك ، فقبل أن ترى تسمع ، وقبل أن تتكلم لا بد أن تسمع ، فإن لم تسمع من يتكلم لا تقدر أنت على الكلام . ولذلك يقول الحق جل جلاله : { صُمٌّ بُكْمٌ } [البقرة : 18] .

أي لا يسمعون ، وما داموا لا يسمعون لا يتكلمون . وقد يأتي بعض الناس ويقول : إنَّ وسيلة الإعلام قد تعتمد على العين ويقرأ منها الإنسان . ولكن من يقول ذلك ينسى أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ إلا إذا سمع ألفاظ الحروف ، وحين يقال له : هذه ألف وهذه باء وهذه تاء فهو يتعلم . إذن كل بلاغ إنما يبدأ بالأذن ، والأذن هي أول آلة إدراكية تؤدي مهمتها فور ولادة الإنسان؛ لأنك إن أشرت بأصبعك إلى عيني طفل مضى على ولادته أيام لا يتأثر . ذلك أن العين لا تبدأ في أداء مهمتها قبل بضعة أيام ، ولكن إذا صرخت بجوار الطفل يسمع وينزعج .

والله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن وسائل الإدراك يأتي بالسمع أولاً فيقول جل جلاله : { وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة } [النحل : 78] .

لأن الأذن تبدأ عملها فوراً – كما قلنا – والعين لا تبدأ عملها إلا بعد أربعة أو خمسة أيام .

والأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة في وقت واحد . ولكن مجال الرؤية محدود . وأنت حين لا تريد أن ترى شيئا تبعد عينيك عنه . ولكن الأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أن تستطيع منعها . ولذلك يأتي السمع مفرداً ، والأبصار متعددة؛ لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً .

لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً ، وتأتيك الأصوات ويتوحد المدرك من السمع؛ فهي آلة الاستدعاء والإيقاظ . ولذلك حين تكلم الله عن أهل الكهف يريد أن ينيمهم ثلثمائة سنة وازدادوا تسعا . رغم أن أقصى ما ينامه الإنسان هو يوم أو بعض يوم ، قال سبحانه وتعالى عنهم

في هذا الشأن : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] .
وكان الضرب على الآذان حتى لا يوقظهم صوت عال لإنسان أو حيوان . وهم عندما قاموا : { قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ } [الكهف : 19] .
لأن الإنسان عادة لا ينام أكثر من هذه المدة ، وهذا يدل على أنهم حين استيقظوا كانوا على الهيئة التي ناموا عليها لم يتغير فيهم شيء ، مما يدل على أن الله أوقف تأثير الزمن عليهم ، ولولا أن الله قد ضرب على آذانهم لأيقظهم صوت الرعد أو الحيوانات المفترسة أو غيرها من الأصوات .

وأثبت لنا العلم الحديث أن مَنْ يرقد في الفراش بسبب المرض مدة طويلة يخاف الأطباء من إصابته بقروح الفراش ، فلا يخاف الطبيب على المريض من المرض فقط ، بل يخاف أيضاً من آثار الرقود على الجسد . والله يلفتنا إلى هذه الحقيقة فيقول : { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال } [الكهف : 18] .
ولأن الأذن هي وسيلة السمع ، نجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { إِذَا السمآء انشقت * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ } [الانشقاق : 1-2] .
وهذا القول يدل على أن السماء فور سماعها من الله أمره بأن تنشق؛ تستجيب على الفور وتطيع أمره بالانشقاق وذلك يوم القيامة ، وإذا كان الذي بلغ الأذان من الله ورسوله إلى كل الناس يوم الحج هو علي بن أبي طالب؛ فكيف يقال؟
{ وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ } [التوبة : 3] .
نقول : إن الله تعالى أعلم رسوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم أعلم عليا ، وعلي هو الذي نادى وبلَّغ ، لكن هناك من يقول : إن الله طلب البلاغ إلى الناس . مع أن البراءة كانت للمشركين .
ونقول : إن الإعلام كان لكل الناس للمؤمن وغير المؤمن حتى يعرف جميع الناس موقفهم؛ فيعرف المؤمن أن العهد قد قطع ، ويعرف غير المؤمن أن العهد قد قطع ، فلا يؤخذ أحد على غرة ، وليرتب كل إنسان موقفه في ضوء البلاغ الصادر من الله عز وجل؛ والله سبحانه وتعالى أراد اعتدال الميزان بأيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك فهو لا يخاطب المؤمنين وحدهم ، بل كان الخطاب للعالم كله ، وإن كان المؤمنون هم الذين سيجاهدون لتنسجم حركة الأرض مع منهج السماء . ومن هذا يستفيد المؤمن والكافر؛ لأن الكل سينتفع بالعدل والأمانة والنزاهة التي يضعها المنهج على الأرض .
ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالمنهج لإصلاح الكون كله فقال سبحانه وتعالى : { إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله

} [النساء : 105] .

أي أن الحكم بين الناس جميعاً هو المطلوب من رسول الله صلى الله عليه وسلم حسب منهج السماء .

وقوله سبحانه وتعالى :

{ وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر } [التوبة : 3] .

وهذا القول فيه تعميم في المكان وتعميم في المكين ، فيوم الحج يجتمع الناس كلهم في مكان واحد .

وقد يتساءل البعض : لماذا سمي الحج الأكبر؟ نقول : لأنه الحج الوحيد الذي اجتمع فيه الكفار والمؤمنون . وبعد ذلك لم يعد هناك حج للكفار أو المشركين .

وبعض المفسرين يقولون : إن كلمة الحج الأكبر جاءت لتميز بين الحج الأصغر وهي العمرة وبين الحج الذي يكون فيه الوقوف بعرفات ، ونقول : إن العمرة لا يطلق عليها الحج الأصغر .

وقيل إنَّ يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة . ولكن بعض العلماء قالوا : إنه يوم النحر؛ لأن فيه مناسك كثيرة : رمي الجمرات والتقصير وطواف الإفاضة؛ لذلك سمي يوم النحر بالحج الأكب لكثرة مناسكه ، وقيل : إنها أيام الحج كلها وأنها قد سميت بيوم الحج على طريقة العرب في أداء الحدث الواحد بظرفه الملائم ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : يوم حنين؟ . وحنين استغرقت أياماً فكأن اليوم يراد به الظرف الجامع لحدث كبير ، فكأن أيام الحج كلها يطلق عليها « يوم الحج » .

أو أن الإعلان قاله سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم عرفة ، وبلغ هذا الإعلام كل من سمعه إلى غيره ، والآية الكريمة تقول : { وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر أَنَّ الله برياء مِّنَ المشركين وَرَسُولُهُ } [التوبة : 3] .

وهذا إذن من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن رسوله إلى علي كرم الله وجهه ، ومن علي للمؤنين ، ومن المؤمنين؛ من سمع لمن لم يسمع ، أن الله بريء من المشركين ، وكان هذا إعلانا بالقطيعة ، ولكن الله برحمته لا يغلق الباب أمام عباده أبداً ، ولذلك يقول : { فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } [التوبة : 3] .

أي فتح لهم باب التوبة فإن تابوا عفا الله عنهم ، وإن لم يتوبوا فالقول الفصل هو : { وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الذين كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة : 3] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قادر عليهم وقادر أن يأتي بهم مهما كانوا ، وعلى النبي والمبلغين عنه أن يبشروا الكفار بالعذاب الأليم ، والبشارة إعلام بخبر سار ، والإنذار إخبار بسوء . فهل العذاب بشارة أم إنذار؟ . نقول : إن هذا هو جمال أسلوب القرآن الكريم ، يبشر الكفار

فيتوقعون خبراً سارا : ثم يعطيهم الخبر السيىء بالعذاب الذي ينتظرهم؛ تماماً كما تأتي إلى إنسان يعاني من العطش الشديد ، ثم تأتي بكوب ماء مثلج وعندما تصل به إليه ويكاد يلمس فمه تفرغه على الأرض ، فيكون هذا زيادة في التعذيب وزيادة في الحسرة ، فالنفس تنبسط أولاً ثم يأتي القبض .

وفي هذا يقول الشاعر :

كما أبرقت قوماً عطاشاً غمامةٌ ... فَلَمَّا رَأَوْها أَقْشَعتْ وتجلَّتِ

وهكذا تكون اللذعة لذعتين ، ابتداء مطمع ، وإنتهاء ميئس بينما في الإنذار لذعة واحدة فقط . وانظر إلى قوله الحق تبارك وتعالى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ } [الكهف : 29] .

حين تسمع « يغاثوا » تتوقع الفرج فيأتي الجواب : { يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه } [الكهف : 29] .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَبَشِّرِ الذين كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة : 3] .

والعذاب من الله يوصف مرة بأنه عظيم ومرة أخرى يوصف بأنه مهين وثالثة يوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المُعَذَّبين ، وسيأخذ كل مسيء وعاص وكافر من العذاب ما يناسبه ، فهناك إنسان يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسان يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كل واحد من الناس سيأتيه العذاب الذي يتعبه ، فإن كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإن كان لا يتعبه إلا الإهانة جاءته ، وإن كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك : { إِلاَّ الذين عاهدتم مِّنَ المشركين ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يظاهروا عَلَيْكُمْ أَحَداً . . . }

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4)

هذا استثناء ، ولكنه استثناء مشروط بأن هؤلاء كانوا أمناء على العهد وموفين به ولم ينقصوا منه شيئا ، أي لم يصدوا لكم تجارة ولم يستولوا على أغنام ولم يسرقوا أسلحتكم ولم يغروا بكم أحداً ولم يظاهروا عليكم أحداً؛ وهؤلاء هم بنو ضمرة وبنو كنانة ، فلم يحث منهم شيء ضد المؤمنين فجاء الأمر بأن يستمر العهد معهم إلى مدته . ولقائل أن يقول : إن المستثنى يقتضي مستثنى منه ، ونقول : المستثنى منه هم المشركون في قوله الحق تبارك وتعالى : { إِلاَّ الذين عَاهَدتُّم مِّنَ المشركين ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً } [التوبة : 4] .

والإنقاص معناه تقليل الكمّ إمَّا في الذوات ، وإما في متعلقات الذوات ، والإنقاص في الذوات يكون بالقتل ، والإنقاص في متعلقات الذوات يكون بمصادرة التجارة أو الماشية ، وسرقة

السلاح .
إذن ففي الإنقاص هنا مرحلتان؛ مرحلة في الذوات أي بالقتل ، ومرحلة في تابع الذوات وهي الأشياء المملوكة ، ولذلك قال : { لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً } أي شيء كان ، سواء في الذوات أو متعلقات الذوات ، وأيضا لم يغروا عليكم أحداً ولم يشجعوا أحداً على أي عمل ضد الرسول .
{ وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً } [التوبة : 4] .
ويظاهر أي يعادل ، وكلها مأخوذة من مادة الظهر ، وهو يتحمل أكثر من اليد ، فالإنسان لا يقدر أن يحمل جوال قمح بيده مثلا ، ولكنه يقدر أن يحمله على ظهره . ولذلك يقول المثل العامي : من له ظهر لا يضرب على بطنه . إذن فالظهر للمعونة . والحق يقول : { فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ } [الصف : 14] .
أي عالين .
والحق سبحانه وتعالى حين قص علينا نبأ تآمر بعض من نساء النبي – صلى الله عليه وسلم – عليه ، قال : { وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التحريم : 4] .
فظهير في الآية الكريمة أي معين . ويأتي الحق هنا إلى منطقة القوة في الإنسان ، لذلك يقال : فلان يشد ظهري . أي يعاونني بقوة . ويقال : ظهر فلان على فلان . أي غلبه وتفوق عليه ، ويقال : وعلا ظهره . أي استولى على منطقة القوة منه؛ لذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم في سورة الكهف عن ذي القرنين ذكر بعض اللقطات وقال : { حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُواْ ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً } [الكهف : 93–95] .
فالله سبحانه وتعالى لفتنا هنا إلى حقيقة علمية لم نعرفها إلا في العصر الحديث . فالسد إذا كان كله من مادة صلبة؛ يتعرض للانهيار إذا ما جاءت هزة أثرت في كل جوانبه ، أما إن كان هناك جزء من بناء صلب على الحافة ، وجزء صغير في المنتصف وجزء ثالث ، ثم رابع ، ويفصل بين كُلِّ جزء ردم من تراب فالردم فيه تنفسات بحيث يمتص الصدمة ، وهي نفس فكرة الإسفنج التي نحيط بها الأشياء التي نخاف عليها من الكسر لنحفظها ، فلو أن الصندوق من الخشب أو الحديد أو أي مادة صلبة لتحطم الشيء الموضوع فيه بمجرد اصطدامه بالأرض صدمة قوية ، ولكن إذا أحطناه بوسادة من الإسفنج فهي تمتص الصدمات .

وأنواع السدود التي تتلقى الصدمات يقال عنها : السد الركامي .
ونلتفت إلى قول الحق سبحانه : { فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ } [الكهف : 95] .

وهذا يدلنا على أن القوي يجب أن يعين الضعيف معونة لا تحوجه له مرة أخرى؛ لذلك يقال : لا تعط الجائع سمكة؛ ولكن علمه أن يصطاد السمك ليعتمد على نفسه بعد ذلك ، وهذه هي المعونة الصحيحة ، ولذلك نجد أن ذا القرنين رفض أن يأخذ مقابلا لبناء الردم؛ لأن مهمة الأقوياء في الأرض من أصحاب الطاقة الإيمانية أن يمنعوا الظلم بلا مقابل حتى يعتدل ميزان الحياة؛ لأن الضعيف قد لا يملك ما يدفعه للقوي . ولو أن كل قَوِيٍّ أراد ثمناً لنصرة الضعيف لاختل ميزان الكون وطغى الناس ، ولكن الأقوياء في عالمنا يريدون أن يظلموا بقوتهم؛ لذلك يختل ميزان الكون الذي نعيش فيه . ولننظر إلى تفويض الله لذي القرنين وكيف أحسن ذو القرنين الحكم بين الناس ، وأقام العدل فيهم وكيف ترصد الظالمين ، قال القرآن الكريم على لسان ذي القرنين : { قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً الحسنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً } [الكهف : 87-88] .
هكذا أقام ذو القرنين العدل ، بتعذيب الظالم وتكريم المؤمن صاحب العمل الصالح .
وقول الحق سبحانه وتعالى على لسان ذي القرنين : « أعينوني » يعطينا كيفية إدارة العدل في الكون ، فذلك الذي أعطاه الله الأسباب إن أراد أن يعين الضعفاء فعليه أن يشركهم في العمل معه ، ولا يعمل هو وهم يتفرجون وإلاَّ تعودوا على الكسل فتفسد همة كل منهم . ولكن إذا جعلهم يعملون معه سيتعلمون العمل ثم يتقنونه فتزداد مهارتهم وقوتهم في مواجهة الحياة؛ لذلك نجد أن ذا القرنين أشرك معه الضعفاء ، وقال لهم : { آتُونِي زُبَرَ الحديد } [الكهف : 96] .
إذن فقد جعلهم يعملون معه ويبنون ، وهذه أمانة القوي فيما آتاه الله تعالى من القوة ، بل إننا نجده قد تفاهم معهم رغم أن الحق تبارك وتعالى قال فيهم : { لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً } [الكهف : 93] .
كيف تفاهم معهم؟ لعله استخدم لغة الإشارة وتحايل ليفهموا مقصده . ويدلنا القرآن على تفهمهم له أن قال الحق على لسانهم : { قَالُواْ ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً }

[الكهف : 94] .
قد تَمَّ بناء السد بمعاونة هؤلاء الضعفاء ، وكان بناء هذا السد بصورة تتحدى طاقة العدوان في كل من يأجوج ومأجوج ، وقد حاول كل منهما أن يصعد فوق السد ليتغلب عليه ، ولكنه كان فوق طاقة كل منهما فلم يستطيعا اختراقه ، وهذا وضحه لنا المولى سبحانه وتعالى في قوله : { فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً } [الكهف : 97] .
إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :
{ وَلَمْ يظاهروا عَلَيْكُمْ أَحَداً فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ } [التوبة : 4] .

أي لم يعينوا ولم يساعدوا أحداً من أعدائكم حتى يتغلب عليكم ، وسماحته سبحانه وتعالى بإتمام مدة العهد تعني أن هذه المدة كانت أكثر من أربعة أشهر . وهكذا يعطينا سبحانه جلال عدالته ، فسمح لمن كان العهد معهم أقل من أربعة أشهر ، أن يأخذوا مهلة أربعة أشهر ، والحق سبحانه لا يحب نقض العهد؛ لذلك طلب من المؤمنين أن يعطوا المشركين الذين عاهدوهم مدة العهد ولو كانت أكثر من أربعة أشهر؛ حتى يتعلم المؤمن أن يُوفِيَ بالعهد ما دام الطرف الآخر يحترمه .

وزيادة المدة هنا؛ أو زيادة المهلة نابعة من قوة الله تعالى وقدرته؛ لأن كل من في الأرض غير معجزي الله ، فإن طالت المدة أو قصرت فلن تعطي المشركين ميزة ما ، فالله يستطيع أن ينالهم في أي وقت وفي أي مكان .

ويختم الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله :

{ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين } [التوبة : 4] .

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أي شيء ، يغضب الله وقاية . وإن تعجب بعض الناس من قول الحق سبحانه وتعالى : { واتقوا الله } وقوله : { واتقوا النار } فإننا نقول : إن معنى { اتقوا الله } أي اجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت لله وقاية ، اتقوا صفات الجبروت في الله حتى لا يصيبكم عذابه ، فلله صفات جلال منها المنتقم والجبار والقهار ، وله صفات جمال مثل الرحيم ، والوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، إذن اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية لكم وحماية من أن تتعرضوا لغضب الله تعالى ، والإنسان يتقي صفات الجلال في الله بأن يتبع منهجه ويطيعه في كل ما أمر به لينال من فيض صفات الجمال . وقوله الحق سبحانه وتعالى : { واتقوا النار } أي اجعلوا بينكم وبين النار وقاية حتى لا تمسكم النار .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . . . }

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

و « انسلخ » يعني انقضت وانتهت الأشهر الحرم ، ومادة « سلخ » و « انسلخ » تدور كلها حول نزع شيء ملتصق بشيء ، فتقول : « سلخت الشاة » أي نزعت الجلد عن اللحم ، والجلد يكون ملتصقا باللحم شديداً . فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الأشهر الحرم هي زمان ، والزمان ظرف ، فالناس مظروفون في الزمان والمكان ، فكأن الأشهر الحرم تحيطهم كوقاية لهم من المؤمنين ، فإذا مرت الأشهر الحرم تزول هذه الوقاية عنهم بعد أن كانت ملتصقة بهم ، والانسلاخ له معنيان : فمرة يقال ينسلخ الشيء عن الشيء ، ومرة يقال : ينسلخ الشيء من الشيء ، ولذلك تجد في القرآن الكريم تبارك وتعالى : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي

ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فانسلخ مِنْهَا } [الأعراف : 175] .
وهذه الآية الكريمة التي نزلت في ابن باعوراء الذي أعطاه الله العلم والحكمة والآيات ، ولكنه تهاون فيها وتركها ، فكأنه هو الذي انسلخ بإرادته وليست هي التي انسلخت منه ، وصار بذلك مقابلا للشاة ، ونحن نسلخ جلد الشاة من الشاة .
والحق سبحانه وتعالى أيضا يقول : { وَآيَةٌ لَّهُمُ اليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار } [يس : 37] .
فكأن الليل مثل الذبيحة ، ثم يأتي النهار فيسلخ منه الظلمة ويزيلها عنه ويأتي بالضياء ، فكأن الليل ثوب أسود يأتي عليه ثوب أبيض هو النهار ، فإذا جاء ميعاد الليل رفع الثوب الأبيض أو سلخ النور عن ظلمة الليل؛ لتصبح الدنيا مليئة بظلام الليل ، وكأن النور هو الذي يطرأ على الظلمة فيكسوها بياضا ، أي أن الضوء هو الذي يأتي ويذهب ، بينما الظلمة موجودة ، فإذا جاءها ضوء الشمس صارت نهارا ، وإذا انسلخ منها صارت ليلاً .
وماذا يحدث عندما تنتهي الأشهر الحرم؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } [التوبة : 5] .
فكأن الله سبحانه وتعالى بعد أن أعطى المشركين مهلة أربعة أشهر ، والذين لهم عهد أكثر من ذلك يتركون إلى أن تنتهي مدة العهد ، ومن بعد ذلك يكون عقاب المشرك هو القتل ، لماذا؟ لأنه لا يجتمع في هذا المكان دينان .
ولقائل أن يقول : وأين هي حرية التدين؟ ونقول : فيه فرق بين بيئة نزل فيها القرآن بلغة أهلها؛ وعلى رسول من أنفسهم ، أي يعرفونه جيدا ويعرفون تاريخه وماضيه ، وبيئة لها أحكامها الخاصة بحكم التنزيل ، فأولئك الذين نزل القرآن في أرضهم وجاءت الرسالة على رسول منهم وهو موضع ثقة يعرفون صدقة وأمانته ويأتمنونه على كل نفيس وغال يملكونه ، وكان كل ذلك مقدمة للرسالة ، وكانت المقدمة كفيلة إذا قال لهم إنني رسول الله لم يكذبوه؛ لأنه إذا لم يكن قد كذب عليهم طوال أربعين سنة عاشها بينهم ، فهل يكذب على الله؟ الذي لا يكذب على المخلوق أيكذب على الله؟ هذا كلام لا يتفق مع العقل والمنطق؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ } [التوبة : 128] .
أي ليس غريبا عليكم ، تعرفونه جيدا حتى إنكم كنتم تأتمنونه على أغلى ما تملكون ، وتلقبونه بالأمين في كل شئون الدنيا ، فكيف ينقلب الأمين غير صادق عندكم؟ كما أن القرآن الكريم وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء بلغتكم وأسلوبه من جنس ما نبغتم فيه ، فكان إعجازاً لكم ، وتحداكم الله تعالى بأن تأتوا بسورة من مثله فعجزتم وأنتم ملوك البلاغة والفصاحة ، فكأن الإعجاز من أمانة الرسول وصدقه ، والإعجاز من بلاغة القرآن وتحديه يقتضي منكم

الإيمان فيكون عدم الإيمان هنا مكابرة تقتضي عقاباً صارماً .
فإن سأل سائل : أين هي حرية التدين؟ وأين تطبيق قول الحق تبارك وتعالى؟ { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } [البقرة : 256] .
نقول : نعم ، لا إكراه في أن تؤمن بالله وتؤمن بدينه ، ولكن ما دمت قد آمنت فلا بد أن تلتزم بما يوجبه هذا الإيمان ، أما عند التفكير في مبدأ التدين فأنت حر في أن تؤمن بالله أو لا تؤمن . ولكن إذا آمنت فالواجب أن نطلب منك أن تلتزم . ثم إن الحق سبحانه وتعالى شاء ألاَّ يجتمع في الجزيرة العربية دينان أبداً .
ولكن في أيِّ مكان آخر مثل فارس ، الروم ، فهم لن يعرفوا إعجاز القرآن الكريم كلغة ، ولكن يسمعون أنَّه معانٍ سامية بقوانين فعالة تنظم الحياة وترتقي بها .
أما الذين يعرفون الرسول وفصاحة المعجزة التي جاء بها ، فلن يُقبل منهم إلاَّ أن يسلموا ، ولا يُقبل منهم أن يظلوا في أرض الرسالة دون إسلام ، وإن أرادوا أن يظلوا على الشرك فليرحلوا بعيداً عن هذه الأرض .
وهناك من يقول : إنَّ الإسلام انتشر بالسيف أو الجزية ، ونقول : إن الإسلام انتشر بالقدوة ، أما السيف فكان دفاعاً عن حق اختيار العقيدة في البلاد التي دخلها الإسلام فاتحاً ، والجزية كانت لقاء حماية من يريد أن يبقى على دينه .
ونجد في حياتنا اليومية من يستخدم { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } في غير موضعها ، فحين يقول مسلم لآخر : لماذا لا تصلي؟ يرد عليه بهذا القول : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } . ونقول : إن { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } مسألة تخص قمة التدين ، أي مسألة اعترافك بأنك مسلم أو غير ذلك ، لكن ما دمت قد أعلنت الإسلام وحُسبت على المسلمين ، فعليك الالتزام بما فرضه عليك الدين فلا تشرب الخمر ولا تزن ، إذن ف { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين } تعني لا إكراه على اختيار الإسلام ، ولكن لا بد من الحرص ممن أعلنوا الإسلام على مطلوبات الدين .
إذن فلماذا أُكْرِه العرب على الإسلام؟
قيل في ذلك سببان : الأول أن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ، والثاني أنَّ المعجزة جاءت بلسانهم .
ويتابع الحق سبحانه وتعالى قوله : { وَخُذُوهُمْ واحصروهم } [التوبة : 5] .

فإن عز عليكم أن تقتلوهم فخذوهم أسرى؛ ما داموا لم يدافعوا عن أنفسهم بقتالكم ، ولم يهددوكم في حياتكم ، وهنا يحقن الدم ويستفاد بهم كأسرى .
وإن خفتم من شرورهم فاحصروهم في مكان مراقب . إذا قاموا بأي حركة معادية يكون من السهل عليكم كشفها ، وإنزال العقاب بهم . والحصر هنا تقييد الحركة مع السماح لهم بحركة

محدودة بحيث لا يغيبون عن نظركم .
ثم يتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :
{ واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } [التوبة : 5] .
أي ارصدوا حركاهم حتى تأمنوا مكرهم؛ وحتى لا يتصل بعضهم بالبعض الآخر ، وينشئوا تكتلاً يعادي الإسلام . ارصدوا حركاهم ، وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم ، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم وافعلوا ما بوسعكم لتكونوا في مأمن من شرورهم ، ولكن لا تخوجوا بالاستطلاع إلى حيز استذلالهم ، فالاستدلال غير الاستذلال .
وقد يتساءل البعض : لماذا هذا الاختلاف في العقوبة حيث هناك القتل وهناك الحصر وهناك الرصد لهم في طرقهم ومسالكهم ، ؟ . نقول : إن العقوبة تختلف باختلاف مواقع المشركين من العداء للإسلام ، فهناك أئمة الكفر الذين يحاربون هذا الدين؛ ويدعون الناس لعدم الإيمان ، ويحرضون على قتال المسلمين وقتلهم وإيذائهم ولا ينصلحون أبداً ، ولا يكفون أذاهم عن المؤمنين أبداً : أولئك جزاؤهم القتل .
وهناك من لا يؤذون المسلمين ، وإنما يجاهرون بالعداء للدعوة ، هؤلاء شأنهم أقل؛ فنأخذهم أسرى . وهناك من الكفار من لا يفعل شيئا إلا أنه غير مؤمن؛ فهؤلاء نراقب حركاهم ليتقي المسلمون شرّهم ليكونوا على استعداد بصفة دائمة لمواجهتهم إذا ما انقلبوا ليؤذوا المسلمين ويهاجموهم ويقاتلوهم .
إذن فلم توضع عقوبة واحدة تشمل الجميع . لأن الجميع غير متساوين في عدائهم للإسلام؛ فأئمة الكفر لهم حكم ، والذين عداوتهم للإسلام أقل لهم حكم آخر . ثم تأتي رحمة الله سبحانه وتعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده فلا ييئسهم أبداً من الرجوع إليه فيقول : { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاوة وَآتَوُاْ الزكاوة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 5] .
ويفتح سبحانه باب التوبة أمام عباده جميعاً ولا يغلقه أبداً ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيما يرويه عنه أبو حمزة أنس بن مالك – خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة » .
أي أنك وأنت مسافر في صحراء جرداء بعيدة تماماً عن أي عمران ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذي تسافر عليه؛ عليه الماء والطعام وكل ما تملك من وسائل الحياة ، ثم غفلت عن الجمل فانطلق شارداً وسط الصحراء ، وتنبهت فلم تجده ولا تعرف مكانه ، وفجأة وأنت تمضي على غير هدى وجدت الجمل أمامك ، فكيف تكون فرحتك؟ إنها بلا شك فرحة كبيرة جدا لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك ، وهذه الفرحة تملأ النفس وتغمرها تماماً ، كذلك يفرح الله

بتوبة عباده ، لذلك يوضح سبحانه وتعالى بأنه إن تاب هؤلاء الكفار من عدائهم لدين الله ورسوله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَلْيُخَلِّ المسلمون سبيلهم وليتركوهم أحراراً .

وهنا نجد ثلاثة شروط : أولها التوبة والعودة إلى الإيمان . وإقامة الصلاة ، هذا هو الشرط الثاني ، ثم يأتي الشرط الثالث وهو إيتاء الزكاة ، ولا بد أن يؤدي الثلاثة معاً؛ لأن التوبة عن الكفر هي دخول في حظيرة الإيمان ، والدخول إلى حظيرة الإيمان يقتضي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم صوم رمضان ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ولو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد يؤدي بعضها ولا يؤدي البعض الآخر ، فالمسلم الفقير الذي لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ويسقط عنه الحج ، والمسلم المريض مرضاً مزمناً يسقط عنه الصوم ، وتبقى شهادة أن لا الله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ وهذه يكفي أن يقولها المسلم في العمرة مرة ، ويبقى ركن إقامة الصلاة لا يسقط أبداً ، لا في الفقر ولا في الغنى ولا في الصحة ولا في المرض؛ لأن الصلاة هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهي عماد الدين لأنه تتكرر كلَّ يوم خمّس مرات ، فالمريض عليه أن يصلي بقدر الاستطاعة . فإن لم يستطع أن يؤديها واقفا فجالساً وإن لم يستطع أن يؤديها جالساً فراقداً .

إننا نعلم أن كل صلاة إنما تضم كل أركان الإسلام؛ ففي كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ وكل صلاة فيها زكاة؛ لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتي من العمل ، والعمل محتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذي يمكن أن تستخدمة في العمل فيعطيك رزقاً تزكي به ، فكأنك وأنت تصلي أعطيت بعض مالك لله سبحانه وتعالى؛ لأنك أخذت الوقت الذي كان يمكن أن تعمل فيه فتكسب مالاً للزكاة ، فكأن الصلاة فيها زكاة الوقت .

إن الوقت هو ما نحتاج إليه في حركة الحياة للحصول على المال فتكون في الصلاة زكاة . ونأتي بعد ذلك للصوم وأنت في الصوم إنما تمتنع عن شهوة البطن وشهوة الفرج بعضاً من الوقت؛ من قبيل الفجر إلى المغرب ، وكذلك في الصلاة . وفي الصلاة أنت لا تستطيع أن تأكل أثناء الصلاة . فكأنك لا بد أن تصوم عن شهوة البطن وأنت تصلي ، كما أنك لا بد أن تصوم عن شهوة الفرج أثناء الصلاة ، فلا تستطيع وأنت تصلي أن تفعل أي شيء مع زوجتك ، ولا تستطيع زوجتك أن تفعل معك شيئا ، بل أنت في الصلاة تكون في دائرة أوسع من الإمساك ، لأنك ممنوع من الحركة وممنوع من الكلام .

فإذا جئنا إلى حج بيت الله الحرام؛ نقول إنَّك ساعة تصلي لا بد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة ، إذن فكأن بيت الله الحرام في بالك وفي ذكرك وأنت تتجه إليه في كل صلاة .

وعلى ذلك فقد جمعت الصلاة أركان الإسلام كلها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « الصلاة عماد الدين » وإذا كانت الصلاة هي عماد الدين كما بين النبي صلى الله عليه وسلم فمن أقامها فقد أقام الدِّين – ومن عجائب ترتيب آيات القرآن أنك تجد الصلاة مقرونة دائما بالزكاة؛ لأن الزكاة بالمال ، والصلاة زكاة بالوقت ، نحن محتاجون إلى الوقت لنعمل فيه حتى نأتي بالمال ، والحق سبحانه وتعالى يقول :
{ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ } [التوبة : 5] .
ومعنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لا نخلي سبيلهم ، وما دمنا لا نخلي سبيلهم فهم يدخلون تحت العقوبات التي حددها الله وهي : « اقتلوهم » أو « خذوهم » أو : { واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ } [التوبة : 5] .
وأول العقوبات هو القتل وذلك لأئمة الكفر ، فإذا آمن كافر وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن : وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب وآمن؛ لذلك إذا لم يقوموا بالعبادات الثلاث لا نخلي سبيلهم ، ولقد أفتى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة يقتل ، ونقول : لا ، تارك الصلاة إمَّا أن يكون قد تركها إنكاراً لها وجحودا بها ، وإما أن يكون قد تركها عن كسل . فإن كان يتركها عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والدنيا تجذبه بمشاغلها فعلينا أن نحاول بالحكمة والموعظة الحسنة أن ننصحه ونستحثه حتى يعود إلى الصلاة ويؤديها في وقتها ، ثم من بعد ذلك إن تركها عمداً كسلاً ، يعاقب بالضرب الشديد ، ولكن بعض الأئمة يقولون : لقد قاتل أبو بكر أولئك الذين ارتدوا ومنعوا الزكاة ، ونقول : إنه لم يقاتلهم لأنهم عصاة ، بل لأنهم قد ردوا الحكم على الله ، وأنكروا الزكاة فكانوا بذلك قد ارتدوا كفاراً؛ لأن هناك فارقاً بين أن ترد الحكم على الله وتنكره؛ وبين أن تسلم بالحكم لله ، وتعلن أنك مع إيمانك بهذا الحكم لا تقدر على التنفيذ ، أو تعترف أنك مقصر في التنفيذ . ولذلك نقول للذين يحاولون أن يدافعوا عن الربا ويحلوه : قولوا هو حرام ولكننا لا نقدر على أنفسنا حتى لا تعودوا كفاراً : لأنك إذا قلت إن الربا ليس حراماً تكون قد رددت الحكم على الله ووقفت موقف الكافر ، ولكنك إن قلت إن الربا حرام ولكن ظروفي قهرتني فلم أستطع ، تكون بذلك عاصياً .
وهذا كما قلنا هو الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم عليه السلام ، فقد أمر الله تعالى إبليس بالسجود فعصى ، وآدم أمره الله فعصى ، فلماذا قضى الله على إبليس عليه اللعنة إلى يوم القيامة ، بينما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وغفر له؟ نقول : لأن إبليس رد الحكم على الله؛ فقال :

{ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً } [الإسراء : 61] .
وقال : { أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ } [ص : 76] .

فكأن إبليس رد الحكم على الله عز وجل ، ولكن آدم لم يقل ذلك . وإنما قال : حكمك يا ربي صحيح وما أمرتني به هو الحق ، ولكني لم أقدر على نفسي فظلمتها فتب عليّ واغفرلي وذلك مصداقا لقوله سبحانه وتعالى : { قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين } [الأعراف : 23] .

وهذا هو الفرق بين المعصية والكفر .

إذن فالتعامل مع المشركين إن لو يتوبوا ولم يُصَلُّوا ولم يُزَكُّوا ، ولم يقدر عليهم المسلمون ، ماذا يحدث؟ . إن على المسلمين أن يحاولوا تطبيق ما أمر به الله سبحانه وتعالى بشأنهم .

ولكن ماذا إن استجار واحد من المشركين بالمسلمين؟ .

وهنا ينزل قول الحق تبارك وتعالى : { وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كلام الله . . . }

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (6)

وبعد أن بَيَّن الله سبحانه وتعالى المهلة التي هي الأشهر الأربعة أو مدة العهد إذا كان هناك عهد . وبعد أن بين أن الكفار إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وقرنوا الإيمان بالعمل؛ فالحق سبحانه وتعالى يغفر لهم ما قد سلف منهم ، وبين الله سبحانه وتعالى عظمة الإسلام والرحمة التي نزل بها هذا الدين؛ فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم نقدر عليهم بأي عقوبة من العقوبات التي جاءت ، ثم جاء أحدهم مستجيراً بالمؤمنين فماذا يكون سلوكنا معه؟

جاء الحكم من الله تعالى بأنه ما دام قد استجار بك فأجره ، وإذا أجرته أسمعه كلام الله تعالى وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم؛ فإن آمن واقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله؛ ولكن أبلغه مأمنه ، أي اسأله من أين جاء؟ فإذا قال لك اسم القبيلة التي ينتمي إليها أو حدد المكان الذي جاء منه فتأكد أنه سوف يكون آمناً حتى يبلغ المكان الذي يجد فيه الأمان . وهذه هي المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر ، وهي مرحلة الإجارة والتأمين للمستجيرين بالمؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى تفضل على خلقه في الأرض فأرسل إليهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على إرسال من سبقوه من الرسل . وكان الناس قد نسوا منهج السماء ، بل وحرَّف أهل الكتاب ما نزل إليهم من تعاليم .

وكان لا بد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قد جعل في الإيمان مناعات متعددة ، توجد أولا في النفس ، فحين تستشرف النفس إلى معصية ، فالضمير الإيماني ما زال موجوداً فيها ، وهذا الإيمان هو الذي

يكبح الشهوة ويمنع النفس من الركون إلى المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح والمنهج السوي .

وهب أن نفساً ولعت بمخالفة المنج ولم تعد نفسا لوامة ، وتظل ترتكب المعاصي حتى تعتاد على المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيماني ، فتجدها قد عشقت – والعياذ بالله – مخالفة المنهج ، بل أصبحت نفساً أمارة بالسوء ، وهنا ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله ، فتجد المحيطين بمرتكب المعاصي يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يفيء إلى ربه يعود إلى رشده . وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان . أما إن فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فلا بد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقظ الناس من هذا السبات العميق الذي شمل الأفراد والمجتمعات .

وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وواجه هذا المجتمع الذي انتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لا بد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر؛ ذلك أن العداوة الشرسة واجهت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذه المواجهة للرسول إنما جاءت من المنتفعين بالفساد في الأرض . والمنتفعون بالفساد هم السادة الذين استفادوا من ضياع الحق وانتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم واستعبدوا الناس ، واستأثروا هم بالمنافع وبما فيه الخير لهم ومنعوا ذلك عن باقي عباد الله .

والمنتفعون بالفساد يكرهون أي مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة في الكون . فلا بد أن يقفوا في وجهه؛ ليدافعوا عن سيادتهم وعن منافعهم وأموالهم التي حصلوا عليها بالباطل والظلم ، ومن استعبادهم للناس . وكانت الجزيرة العربية في ذلك الوقت مكونة من قبائل متعددة ، وكان لكل قبيلة قانونها الذي يضعه شيخها ليستأثر لنفسه بكل شيء .

ومعنى ذلك أنه لا توجد رابطة تربط بين هذه القبائل ، ولا يوجد قانون عام يحكمها ، وكل قبيلة لها عزوتها ولها شوكتها ولها حروبها . وكل فرد في قبيلة لا بد أن يكون مقاتلا يحمل سلاحه مستعدا للحرب في أي وقت ، لأنه مهدد في أي لحظة أن تغير عليه قبيلة أخرى ، إلا قبيلة واحدة هي قريش . فقد أخذت السيادة ولا يعتدي عليها أحد ولا تُهَاجَم قوافلها ، ولا تستطيع قبيلة في الشمال أو في الجنوب أن تهاجم تجارتها؛ لأن هذه القبائل كلها ستأتي في يوم من الأيام قاصدة حج بيت الله الحرام في مكة . وخلال الحج تكون هذه القبائل في حاجة إلى الأمان من قريش؛ ولذلك حرصت كل قبائل العرب أن تحافظ على علاقتها مع قريش ، لأن السيادة على بيت الله الحرام التي جعلها الله لقريش هي الضمان . وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحماية البيت الحرام من أي عدوان ، حتى عندما جاء أبرهة بأفياله ليهدم الكعبة؛ جعله الله هو وجيشه كعصف

مأكول مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ } [الفيل : 1-5] .

فإذا قرأت السورة التي بعد سورة الفيل مباشرة تجد أنها : { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 1-4] .

فكأن حفظ الكعبة من الهدم كان حفظاً من الله سبحانه وتعالى لسيادة قريش . ولذلك كان من الواجب أن تستقبل قريش رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والشكر وفهم هذه النعمة وتقديرها ، بدلاً من أن تقف من الإسلام هذا الموقف المتعنت وتحاربه هذه الحرب الرهيبة ، ولكن بدلاً من ذلك فقد حدث العكس ، وأحست قريش كذباً بأن الإسلام جاء ليهدد سيادتها فقامت تحاربه .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تكن النداءات بالإسلام بعيدا عن هذه السيادة؟ لأن الحق قد أراد أن تكون صيحة الحق في جبروت الباطل وأن يواجه الإسلام في أول أيامه جبروت سادة الجزيرة العربية كلهم جميعا حتى يمحص الله قلوب المسلمين الأوائل . فهم من يحملون من بعد ذلك دعوة الإسلام في العالم؛ فلا يعتنق الإسلام منافق أو ضعيف الإيمان ، بل يعتنقه أولئك الذين في قلوبهم إيمان حقيقي ، ويتحملون كل مظاهر الاضطهاد والتعذيب بقوة إيمانهم .

لقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يبدأ الإسلام في مكة ولم يجعل الله له النصر من مكة ، وشاء سبحانه وتعالى أن يجعل نصر الإسلام من المدينة؛ لأن قريشا لو انتصرت دعوة واحد منها فهم سيحاولون احتواءه ليسودوا به الدنيا ، وحينئذ سيقال : هم قوم قد تعصبوا لواحد منهم لتظل لهم السيادة ، ويكون اعتناق الإسلام نفاقاً وليس إيماناً حقيقيا . ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى انتصار الإسلام من المدينة ليعلم الناس جميعاً؛ أن العصبية لمحمد صلى الله عليه وسلم لم تخلق الإيمان برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي خلق العصبية لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هناك مواجهة شرسة بين حملة الإيمان وبين سادة الكفر . وهذه المواجهة أخذت عدة مراحل :

المرحلة الأولى كانت الدعوة للإيمان ، والدعوة الى المحبة ، والدعوة إلى المساواة . وعدم مقابلة التعذيب والقتل بالعنف . وهذه البداية لم تعجب سادة قريش بل جعلتهم يستهينون بالمؤمنين ويمعنون في إيذائهم وتعذيبهم ويعتقدون أنهم سيقضون عليهم ، فلما وجدوا الدعوة تقوى رغم كل ما تواجهه من مراحل التعذيب والبطش؛ ازدادوا تنكيلاً بالمؤمنين ، فهاجر بعض من المؤمنين

إلى الحبشة ، وأصبحوا يبحثون عمن يحميهم ويستجيرون به؛ وشاء الحق تبارك وتعالى ذلك حتى لا يدخل الإسلام إلا من أُشرب قلبه حب الإسلام واستهان بكل الصعاب والاضطهاد والقتل والتشريد؛ وهؤلاء هم الذين سيصبحون مأمونين على الدعوة . وبعد ذلك ظل الكفر على كفره ، وظل الإيمان يأخذ إليه بهدوء بعض الأفراد ، وحاول الكفار أن يستميلوا المؤمنين بالحيلة بعد أن فشلت القوة والبطش والإرهاب؛ فقالوا : نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، فأنزل الله سبحانه وتعالى سورة فيها ما يسمى بالعرف الحديث « قطع العلاقات » ، فقال الحق عز وجل : { قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكافرون : 1-6] .

وكان هذا إعلاناً بمرحلة ثانية تتسم بأنه لا مهادنة ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان؛ لأنه لو قبل المؤمنون عبادتهم لآلهة – الكفار؛ فهذا اعتراف منهم بأن آلهتهم حق ، ولو قبلوا أن يعبدوا الإله الواحد ويشركوا به آلهة أخرى لكان ذلك تفريطاً ، ولا يمكن أن يحدث ذلك .

وكان النهي هنا في هذه الآية الكريمة يشمل الحاضر والمستقبل . وهذا ما يسمى في السياسة الدولية باسم قطع العلاقات ، بل إن قطع العلاقات الدولية إنما يكون بسبب طارئ ، أما الخلاف بين المسلمين الأوائل وأهل الشرك فلم يكن صراعاً بين فكر بشر وفكر بشر آخرين ، ولكن المسألة كانت صراعات بين منهج تريده السماء لأهل الأرض ، وبين المنتفعين بالفساد في الأرض؛ لذلك كان لا بد أن يكون القطع نهائياً ، فلا لين ولا مهادنة . ولا حلول وسط بين الكفر والإيمان ، وهكذا فشلت حيلة الكفار في تمييع وتضييع قضية الدين ، وضاع مكرهم ، وبقي الوجود الإيماني قويا متحداً في مواجهة جبروت الكفار بعد أن كان مهدداً .

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة؛ مرحلة اعتراف الكفر بقوة الإيمان ، فقد كان الكفار يواجهون المؤمنين بالقهر والتعذيب ، والمؤمنون يواجهون هذا بالصبر والاحتمال حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وحدثت المواجهة المسلحة بين الإيمان والكفر في غزوة بدر ، وانتصر المؤمنون وأصبح لهم كيان يحميهم ، فلم يعودوا هم القلة الضعيفة المستذلة والمستكينة ، بل أصبحت لهم قوة ولهم قدرة ، وإن لم تصبح لهم سيطرة . ولكنهم أصبحوا قوة قادرة على مواجهة الكفار أو قوة مساوية لهم؛ تستطيع أن تصد الاعتداءات وتواجه الضربة بالضربة .

وحين أصبح للإيمان هذه القوة والقدرة على حماية أنفسهم والمساواة والكيان تجاه الكفار؛ كانت هذه بداية المرحلة التي أعطت الإسلام تفرغاً لنشر الدعوة خارج محيط مكة ، وأمن المسلمون وهم ينشرون دعوتهم من هجوم الكفار وتنكيلهم بهم بعد صلح الحديبية ، وكان مجرد التعاقد والتعاهد هو اعتراف بدولة الإيمان ، وهي المسألة التي فطن لها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وقد ظن البعض لأول وهلة أن معاهدة الحديبية كان فيها إهدار لحق المؤمنين ، حتى إن عمر بن

الخطاب رضي الله عنه قال : علام نعطي الدنية في ديننا .
هذه المسألة أخذت جدلاً كبيراً كاد يصل إلى أن يصادم المؤمنون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما رأت أم سلمة رضوان الله عليها خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من عدم إطاعة ما قاله لهم ، ووجدت الحزن الشديد على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : « يا رسول الله لا تحزن . إن القوم مكروبون لأن أملهم أن يطوفوا بالبيت الحرام ، وها هم أولاء الآن على مقربة من البيت ولكنهم ممنوعون من الطواف به؛ إن خير ما تفعله الآن ألا تكلم منهم أحداً ، وتنفذ ما أمرك به الله؛ فإن فعلت عرفوا أن الأمر عزيمة لا نزاع فيه » ، هذا ما حدث .

فقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بذبح الهدي وتحلل من إحرامه وفعل المسلمون مثلما فعل ، وشاءت قدرة الله سبحانه وتعالى قبل أن يعود المؤمنون إلى المدينة ، أن يبين لهم سبب قبول رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلح الحديبية مع ما يبدو ظاهراً وليس حقيقة من أن فيه إجحافاً بالمسلمين .
لقد كان الصلح ينص على أنه إن جاء أحد هارباً من قريش والتجأ إلى المدينة ردوه إلى قريش مرة أخرى . وإن فر أحد بعد إسلامه والتجأ إلى كفار مكة لا يردونه . وقد وجد البعض في هذا إجحافاً وعدم مساواة ، وكان الموقف غاية في الدقة ، وعندما جاء سهيل بن عمرو ليتفاوض على المعاهدة ، وكان على بن أبي طالب رضي الله عنه يكتب عن رسول الله وأملى : هذا ما تعاقد عليه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو . اعترض سهيل قائلا : لو كنا نؤمن بأنك رسول الله ما حدث بيننا هذا القتال ، ولكن اكتب : هذا ما تعاقد عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو . هنا ثار علي بن أبي طالب رضوان الله عليه وقال : لا ، لا بد أن نكتب هذا ما تعاقد عليه محمد رسول صلى الله عليه وسلم ورفض سهيل بن عمرو .
وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينهي الموقف فنظر إلى علي وقال : « يا علي اكتب فإنَّ لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » أيْ أنه سوف يحدث لك نفس الشيء الذي ترفضه الآن فتقبل ، وكان هذا من علامات النبوة لأن عليا وقف فعلا هذا الموقف عندما جاءت معاهدة صفين وأراد أن يكتب فيها هذا ما تعاقد عليه علي بن ابي طالب أمير المؤمنين فقالوا له : لو كنت أمير المؤمنين ما حاربناك ، اكتب هذا ما تعاقد عليه علي بن أبي طالب . وتذكر علي بن أبي طالب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد » .
على أن الحق سبحانه وتعالى أراد ألا يدخل المسلمون المدينة إلا وقد صفت نفوسهم دون إحساس بأن منهم من انكسر وأن الآخرين قد انتصروا ، فنزل قول الحق تبارك وتعالى الذي يزيل

من النفوس المرارة : وينزل عليها السكينة والطمأنينة : { هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25] .

وهكذا أخبر الله المؤمنين بسبب عدم السماح لهم بدخول مكة لأن فيها عددا من المؤمنين والمؤمنات الذين يكتمون إيمانهم ، وهؤلاء غير مميزين لأنهم مختلطون بالكفار؛ وليس لهم مكان محدد بحيث يستطيع المؤمنون معرفتهم وتمييزهم ، فلا يتعرضون لهم في قتالهم داخل مكة ، ولو نشب القتال فعلاً لتم قتل عدد كبير من هؤلاء المؤمنين والمؤمنات المقيمين في مكة بأيدي المؤمنين ، ولكان عاراً أن يقتل مؤمن مؤمنا أو مؤمنة .

هنا عرف الصحابة العلة وهي صيانة دم المؤمنين . وفي الوقت ذاته نجد أن صلح الحديبية جعل الدعوة الإسلامية تنتشر في الجزيرة العربية كلها . وقد اعتبره بعض الصحابة رضوان الله عليهم الفتح الحقيقي للإيمان ، وجاء في ذلك تلك المقولة المأثورة : « لا فتح في الإسلام بعد فتح الحديبية » ولكن الناس لم يتسع فكرهم إلى الحكمة مما حدث ، والعباد دائما يعجلون . والله لا يعجل لعجلة عباده حتى يبلغ الأمر ما أراد . وقد انتشر الإسلام في الجزيرة العربية بالدعوة ، وزاد عدد المسلمين زيادة كبيرة .

إذن فمراحل الإيمان بدأت بمرحلة التعذيب والاضطهاد ، ثم مرحلة محاولة الخداع للقضاء على هذا الدين ، ثم المرحلة الثالثة وهي التعاهد والتعاقد ، ولقد وفَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعهده ، ولكن قريشاً نقضت العهد بأن أعانت قبيلة بني بكر وهم حلفاؤها على قبيلة خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام بنو بكر بمهاجمة قبيلة خزاعة وقتلوهم وهم يصلون ، وذهب مندوب قبيلة خزاعة مستنجدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهاء المعاهدة التي أبرمت بينه وبين قريش لنقض قريش العهد وأعد جيشاً لفتح مكة وتطهير البيت الحرام من الأصنام ، وبعد أن تم فتح مكة في العام الثامن الهجري ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يطهر بيته من المشركين وأن يعلن أنه لا مهادنة بين الإيمان والكفر .

لقد أراد الله أن يحرر « المكان » وهو أرض الكعبة أولاً ، ثم يحرر « المكين » وهم البشر فلا بد – إذن – أن تتطهر الكعبة من الأوثان ، وأن يُمنع العراة من الطواف حول البيت الحرام ويُمنع المشركون من الوجود في البلد الآمن بالإسلام . وسبق حج رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع العلاقات وإنهاء المعاهدات ، لكن سماحة الإيمان وحب الله لخلقه جميعا لم يجعله يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقطع المعاهدة فوراً ، أو أن يقاتل المؤمنون المشركين ويأسروهم فوراً ، لا ، بل منحهم أربعة أشهر لعلهم يفيئون إلى الإسلام وأن يتوبوا إلى بارئهم .

لقد بين سبحانه وتعالى للكافرين أن هذه المدة لن تفيدهم في حربهم ضد الإسلام؛ لأنهم غير معجزي الله في الأرض ، أي لن يعجز الله استعدادهم أو مكرهم أو أي شيء يفعلونه خلال هذه الأشهر الأربعة ، فإذا انتهت هذه الأشهر وقعت العقوبة على الكفار إما بالقتل وإما بالحصار ، أو بالترصد ، أو عليهم أن يدبروا أمر حياتهم بالسياحة في الأرض ما داموا قد أصروا على الكفر؛ لأن حكماً من الله قد نزل بعدم وجود المشركين في هذه البقعة المقدسة .

وأراد الحق سبحانه وتعالى برحمته أن يبقي الباب مفتوحاً للكفار لكي يعودوا إلى منهجه فقال عز وجل :
{ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ } [التوبة : 6] .
وبعد انقضاء مدة الأشهر الأربعة ، اذا استجار بك أحد من المشركين فأجره ، ونحن نعلم في اللغة العربية أنّ « إنْ » الشرطية لا تدخل إلا على فعل ولا تدخل على اسم أبداً؛ فتقول : إن قام زيد قام عمرو ، وأما « إنْ » في قوله تعالى : { إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ } [المجادلة : 2] .
فهذه ليست « إن » الشرطية؛ ولكنها « إنْ النافية » وهي مع « إلا » التي بعدها لإفادة التأكيد والقصر ، أي قصر الأم على الوالدة ، إلا أنه من بلاغة إعجاز القرآن الكريم جاء بعد « إن » الشرطية اسم في قوله تعالى :
{ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ } [التوبة : 6] .
وكان القياس أن يقال : « إن استجار بك أحد المشركين فأجره »؛ ولكن الله سبحانه وتعالى جاء ب « أحد » بعد « إن » في أول الكلام ، ولذلك فعندما نعرب كلمة « أحد » في الآية الكريمة السابقة نعربها فاعلاً ونقدر له فعله من جنس المتأخر ، والتقدير هو : وإن استجارك أحد من المشركين فأجره .
ولماذا هذه اللفتة من القرآن الكريم؟ نقول : إن هناك مستجيراً وهنا طلب استجارة؛ فهل الاستجارة عرف بها المستجير ، أم عُرفت الاستجارة منه؟ .
وأقول : لنفرض أن واحداً من المؤمنين قد جلس على الحدود قرب أماكن الكفار ، ثم سمع صوتاً يقول : أنا مستجير بمحمد ، ومستجير بالمؤمنين ، ومن بعد ذلك ظهر المستجير بجسده أمام المؤمنين ، هنا تكون الاستجارة قد سبقت ظهور المستجير ، وكأن الأذن هي التي استجيرت أولاً ثم رأت العين جسد هذا المستجير ، وقد يختلف الأمر؛ فيظهر المستجير أولاً ، ثم يصرخ طالباً الأمان والاستجارة ، وبذلك تكون العين قد رأت أولاً ثم سمعت الأذن طلب الاستجارة ثانياً .
وهنا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى أهمية الالتفات إلى صدق الاستجارة ، ولا يتحقق

ذلك إلا بأن يصرخ المستجير أولاً ، ويظهر من بعد ذلك ، ولا بد أن يأخذ المؤمن حذره حتى لا ينقلب عليه المستجير أو يكون قد خدعه بطلب الاستجارة .

والاستجارة تعني طلب الجوار والحماية ، ولهذا فعادة ما يكون المستجير ضعيفاً لا يقدر على حماية نفسه . وحين يستجير إنسان بآخر في مثل تلك الظروف ، فعلى المجير أن يملك الفطنة ليتعرف على الهدف من الاستجارة؛ أهي استجارة لمجرد تطويل أمد البقاء على الكفر؟ أم هي رغبة في معرفة أسس الإيمان كما وردت في كتاب الله تعالى ، أو أنه يريد أن يسمع حكم الله على الكفار في سورة براءة .

أو يريد أن يسمع كلام الله بما يقذف في قلبه الإيمان ، أو أنه يريد أن يسمع شيئا فيما يطلب فيه الدليل ، أو يسمع كلام الله فيما يرد عليه الشبهة؟ .

إن فطنة المؤمن يجب أن تتسع لتسبر أغوار المستجير ، وطلب الجوار أو الاستجارة كان معروفاً عند العرب ، فإذا استجار شخص بعدوه فعليه أن يجيره ، وهذا دليل على شهامته . وإذا كان الإيمان قد فرض على المسلمين إجازة من يطلب الجوار ، فهذا دليل على قوة الإيمان وعظمته وسماحته ، ولعل خميرة الإيمان الفطري في نفس الكفار قد استيقظت وتطلب معرفة قواعد الإسلام .

إن على الوالي أو أي واحد من المسلمين أن يجير المستجير ، ولماذا لا نسمعه ونتكلم معه عله يؤمن ، ويدخل حظيرة الإسلام وفي الإسلام يجير الوالي أو أي واحد من المسلمين؛ لأن المسلمين تتكافأ دماؤهم ولا يوجد دم سيد ودم عبد ، ولا دم شريف ودم رخيص؛ وإنما يسعى بذمتهم أدناهم ، ولذلك إذا أجار أي مسلم إنساناً غير مسلم أو إنساناً كافراً يجار من جميع المسلمين؛ حتى الصبي الذي لم يبلغ الحلم وحتى المجنون الذي لا يعقل . لهذا أو لذاك أن يجير بشرط أن يوافق الوالي أو المسلمون على ذلك . لماذا؟ لأننا نأخذ على الكفر أنه يغدر بالتعاهد ويتناسى المروءة ، فلا بد أن نتمسك نحن المؤمنين بالعهد ، فإذا استجار أحد من الكفار فلا بد أن نفي بالعهد .

ولكن كيف يكون للصبي والمجنون حق الإجارة؟ . نقول : إن الصبي من المؤمنين انتفع بالإسلام لأنه تمت تربيته تربية إيمانية وفقاً لمنهج الله ونشأ في ضوء قول الحق تبارك وتعالى : { وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً } [الإسراء : 24] .

بل إن الإسلام يعطي التربية الإيمانية للابن حتى قبل الحمل ، فيأمر الأب أن يختار الأم ذات الدين لتكون وعاء صالحاً ، ويأمر الأم أن تختار الرجل المتدين ليكون أباً صالحاً .

إذن فالإسلام يخدم الصبي قبل أن يولد باختيار الأب الصالح والأم الصالحة ، ويخدمه بعد أن يولد بتربيته التربية الإسلامية السليمة ، وعلى ذلك فالصبي قد استفاد بكل هذه القيم من

الإسلام ، والذي بلغنا منهج الإسلام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن هنا فالتربية الإسلامية لنا جميعاً؛ لذلك يجب علينا أن نرد التحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي علمنا أن المؤمنين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم . فلو أن صبيا أعطى الأمان لكافر جاء ليسمع كلام الله؛ قبلت منه هذه الإجارة أو هذا الأمان ، ذلك أن الصبي استفاد من تربية إسلامية جاء بها المنهج المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستفاد من أمه التي تحملت حمله وآلام وضعه ، ولولا أن الإسلام حمى النفس حين توجد في الرحم لأمكن للمرأة حين يتعبها الحمل أن تجهض نفسها أو أن تطرح الصبي بعيداً ، ولكن الإسلام حمى الطفل وهو في بطن أمه ، وحماه حتى تكتمل رضاعته ، وتتمثل الأم المسلمة لكل أحكام الإسلام :

{ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ } [البقرة : 233] .

لقد احترم الإسلام الطفل ، وسانده ، وطلب من الأب والأم أن يحسنا تسمية أولادهما وأن يحسنا تربيتهما .

وقبل أن يوجد هذا الطفل في رحم أمه حماه الإسلام – كما قلنا – بأن أمر الرجل أن يختار الأم الصالحة؛ لتكون وعاء صالحاً ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عنه أبو حاتم المزني قال : « » إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير « قالوا يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال » إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه « ثلاث مرات » .

وكذلك قال صلى الله عليه وسلم : في حديث له : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

والحديث فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه يقول : قال صلى الله عليه وسلم « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

فإذا كان الإسلام قد احترم هذا الصبي في كل حقوقه ، ألا يحترمه المسلمون؟ .

وقد يقال إن الصبي منتفع بالإسلام ، أما المجنون فلا عقل له حتى إن الله عز وجل قد أعفاه من التكاليف ، ونقول : انظروا إلى المجنون بالنسبة لأصحاب العقول ، صاحب العقل قصارى ما يصل إليه أن تكون كلمته نافذة لا يعترض عليه أحد ، وأن يقول ما يريد ولا يحاسبه أحد ، أما المجنون فهو يصل إلى هذا؛ لأنه إن قال قولاً فلا أحد يعترض عليه ، وإن فعل فعلاً غير لائق فلا أحد يحاسبه ، بل إنه سبحانه وتعالى لا يحاسبه يوم القيامة .

إذن فالمجنون قد أخذ حظا أكثر مما يأخذه العقلاء ، وصار جنونه حماية وحصانة له إن قال كلمة الحق التي قد تؤذي ذوي النفوذ فلا يعاقبه أحد ، ويكفي أن يقال إنَّه مجنون حتى يعفى من العقاب ، ورب كلمة حق واحدة تصدر من مجنون؛ تكون أرجح عند الله عز وجل من أصحاب

عقول كثيرة ظلوا طوال حياتهم ينافقون ويكذبون ويفعلون ما يغضب الله .
إذن فهناك مهمة في الحياة قد يؤديها المجنون ولا يؤديها العاقل ، لأن بعض الناس يعتقد أنه إذا سلب الله أحد البشر شيئا فإنه يميز عنه الآخرين ، نقول : لا ، لأن عدل الله يأبى إلا أن يعوضه ، ولذلك تجد من فقد عينيه يجعل الله عز وجل عيون الناس في خدمته؛ هذا يأخذ بيده؛ وهذا يقوده في الطريق ، وهذا يحضر له الطعام والشراب ، وهذا يسقيه . . . إلخ
وإن كان الإنسان أعرجَ مثلاً ، تجد هذا يعاونه ، وهذا يأخذه معه في سيارته ، وقد تقف له سيارة أجرة تأخذه إلى حيث يريد .

بينما يقضي السليم الساعات يبحث عن سيارة الأجرة بلا فائدة . بل إنك إن نظرت إلى الفقير تجد أنَّ الله قد جعل له عدداً من الأغنياء في خدمته ، ففلان يحرث ويعزق ويعطيه الله خير الزراعة ليبيعه ويفيض منه على الفقير ، وآخر يصنع ويتعب ويشقى ليعطي بعضاً من دخله للفقير ، بل إنه يشقى مرة أخرى ليعثر على الفقير حقا ليعطيه بعضاً من ماله ، والفقير بالفعل يستحق أن يأخذ شريطة ألا يكون مدعيا للفقر . فما دام قد قبل حكم الله بالفقر والعجز ، يوضح له ربه : لقد رضيت بأني أعجزتك ، فخذ من قدرة الأغنياء ما يعينك في حياتك ، فهذا مُلْكٌ كَوْنِي له نظام ، وأقول ذلك حتى نفهم أن الغنى والفقَر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف ، إنما هي أغيار ، ولذلك لا أحد يضمن غَدَهُ ، وعلى الواحد منا إن كان قادراً أن يعطي الفقير ، حتى إذا ضاع منا المال وجدنا من يعطينا ، وأن نساعد المريض ، حتى يكونوا في خدمتنا وقت شدتنا .
وفي نفس الوقت حين نرى من رحمه الله من البصر يجب علينا أن نشكر نعمة الله علينا ، ولو رأينا إنساناً يعاني في مشيه تنبهنا إلى نعمة الله في أن أعطانا قدرة المشي .
وهكذا فالإنسان لا يتنبه إلى النعمة إلا إذا رأى من هو محروم منها . وكذلك أراد الحق أن يرضي كل ذي آفة قَبل آفته ولم يتمرد عليها؛ لذلك يفيض عليه بالخير .
إذن فكل إنسان أسلم يستفيد من الإسلام حتى الصبي والمجنون استفادا من الإسلام ، ولذلك فلا بد أن نرد التحية لمن بَلَّغنا هذا المنهج الذي أعطانا الحماية ، فنقرأ المنهج ونعمل به .
وحين نستقرئ حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجده يرد جميل كل من ساعده ، ومثال ذلك حليمة السعدية التي نالت شرف إرضاعه صلى الله عليه وسلم وهو صغير ، ثم أكرمها الرسول هي وأسرتها بعد أن صار نبيا .
ثم ألم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليطلب النصير له في تبليغ الدعوة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ووفاة عمه أبي طالب ، وعز عليه النصير وفكر في العودة إلى مكة ، والتمس من يجيره حين يدخلها فأجاره واحد من الكفار هو المطعم بن عدي ، فإذا كان كافرٌ قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يدعو لمحاربة الكفر؛ أفلا نجير واحداً من الكفار لنرد

التحية بخير منها؟

وإذا كان واحد من الكفار قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة فلا بد أن يرد المؤمنون كلهم التحية بأن يجيروا من يستجير بهم من الكفار . وبعد أن يجير المسلمون من استنجد بهم من الكفار على أن يسمعوه كلام الله . وبعد ذلك هناك أحد أمرين إما أن يعلن الكافر الإيمان ، وفي هذه الحالة أصبح من المؤمنين ، وإما أن يصر على كفره وعناده ، وفي هذه الحالة يصبح على المسلمين مسئولية أن يبلغوه مأمنه ، وذلك بأن يساعدوه على الوصول إلى المكان الذي يصبح آمنا فيه على نفسه وماله ، وبعد أن يبلغ مأمنه ويسمع كلام الله فليس على المسلمين أن يطلقوا سراحه كما كان الأمر من قبل :

{ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ } [التوبة : 5] .

لا ، بل على المسلمين أن يبلغوه مأمنه ، ثم ينفذون فيه حكم الله إما أسراً ، وإما حصاراً ، أو قتلاً؛ حسب الحكم النازل من الله . وعلة تأمين الكافر هي أنه من قوم لا يعلمون حسبما قال الله تعالى :

{ ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ } [التوبة : 6] .

إذن فالإيمان ليس بالفطرة فقط؛ لأن العلم له وسائل كثيرة؛ علم بالفطرة ، وعلم بالاكتساب ، ومرة تكون أداة العلم الأذن ، ومرة بالعين ، ومرة بالعقل ، والمعلومات كلها تنشأ عند الإنسان إما بالإذن مما يسمع ، وإما بالعين مما يرى ، ثم بعد ذلك تستقر المعاني في نفس الإنسان .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة } [النحل : 78] .

وهكذا حدد لنا القرآن الكريم وسائل العلم بالسمع والبصر ، فإذا استقرت هذه المعلومات في الفؤاد ، لأنه الذي يحفظ كل القضايا العقلية والفكرية . وإذا كان الإنسان يسمع ولا يفقه شيئا فهو لا يعلم .

إذن فالمستجير جاء ليطلب وسائل العلم وأدلة الإيمان؛ وعذره أنه لا يعلم .

وعلينا أن نحسن الظن وأن نعتبر المستجير طالب علم بالحقيقة ، ويريد أن يأخذ أدلة الإيمان .

ثم يعود الحق سبحانه وتعالى إلى مسألة العهد فيقول : { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ الله وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الذين عَاهَدْتُمْ عِندَ المسجد الحرام . . . }

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7)

أي لقد جربتم العهود مع المشركين ، وفي كل مرة يعاهدونكم ينقضون عهدهم ، وقد نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاهدة الحديبية ، إذن فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أننا يجب ألا نأمن لعهود المشركين لأنهم لا يحفظون العهد ولكنهم ينقضونه ، وعلى ذلك فعلة نقض العهد أنهم لم يستقيموا للعهد من قبل . ويكون بقاء العهد هو الأمر العجيب .
و « كيف » هنا للاستفهام عن الحالة ، كيف حالك؟ . تقول : بخير والحمد لله . إذن ف « كيف » يُسأل بها عن الحال ، والحال قد يكون عاما ، أي كيف حالك وحال أسرتك وأولادك ومعيشتك إلى آخره ، وقد يكون خاصا أن تسأل عن مريض فتقول : كيف حال فلان؟ . فيقال : شُفِي والحمد لله . أو تسأل عن معسر فتقول كيف حاله؟ . فيقال : فرّج الله ضائقته . أو تسأل عن ابن ترك البيت هارباً فيقال : عاد والحمد لله .
إذن ف « كيف » إن أطلقت تكون عامة ، وإن خصصت تكون خاصة ، ولكنها تُطلق مرة ولا يراد بها الاستفهام ، بل يراد بها التعجب؛ إما تعجب من القبح ، وإما تعجب من الحسن . كأن يقال لك : كيف سب فلان أباه؟ . هنا تعجب من القبح لأن ما حدث شيء قبيح ما كان يصح أن يحدث . وتأتي لإنسان اخترع اختراعاً هاماً وتقول : كيف وصلت إلى هذا الاختراع؟ . وهذا تعجب من الحسن . والتعجب من القبح يكون تعجب إنكار والتعجب من الحسن تعجب استحسان كأن نقول : كيف بنيت هذا المسجد؟ وفي هذه الآية الكريمة يقول سبحانه وتعالى : { كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ } [التوبة : 7] .
وهذا تعجب من أن يكون للمشركين شيء اسمه عهد؛ لأنهم لا يعرفون إلاَّ نقض العهد ، ولا يتمسكون بالعهود ولا يحترمونها ، إذن يحق التعجب من أن يكون لهم عهد بينما في الحقيقة لا عهد لهم .
وهذا التعجب للاستهزاء والإنكار ، فأنت مثلا إذا جاء أحد يهددك ، فقلت له : من أنت حتى تهددني؟ . يكون هذا استهزاء واستنكارا لأنك تعرفه ، وأيضا تستهزىء أن يملك القدرة على أن ينفذ تهديده لك . ومرة تكون استفهاما حقيقيا ، كأن تسأل إنسانا لا تعرفه : من أنت؟ . فيقول لك : أنا فلان بن فلان . وأحيانا تكون الإجابة عن الكيفية بالكلام ، وأحيانا لا ينفع الكلام فلا بد أن يجاب بالفعل .
واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى } [البقرة : 260] .
كيف هذه تحمل معنى التعجب الاستحساني؛ لأنك إذا بعثت الحياة في ما لا حياة فيه؛ فهذه مسألة عجيبة تستوجب الاستحسان . ولم يجب سبحانه وتعالى على سيدنا إبراهيم باللفظ ، بل أجاب بتجربة عملية ، ودار حوار بين الحق سبحانه وتعالى وخليله إبراهيم عليه السلام فسأله المولى سبحانه :

{ أَوَلَمْ تُؤْمِن } [البقرة : 260] .
رد إبراهيم عليه السلام : { قَالَ بلى } [البقرة : 260] .
أي أنني يا رب آمنت ، وأضاف القرآن الكريم على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام { وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة : 260] .
والإيمان هو اطمئنان القلب ، فكيف يقول إبراهيم آمنت؟ أليس في ذلك تناقض؟ . وأقول : إن إبراهيم واثق من أنَّ الله سبحانه خلق الكون كله ولكنه يريد أن يعرف كيفية الإحياء وكيف يحدث ، حينئذ لم يجبه الحق سبحانه وتعالى بالكلام ، بل أراه تجربة عملية ، فقال له : { فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطير فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ } [البقرة : 260] .
أي عليك أن تختار أربعة طيور وتضمها إليك وتتأكد من شكلها حتى إذا ماتت وأحييت تكون متأكدا من أنها هي نفس الطير . { ثُمَّ اجعل على كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادعهن يَأْتِينَكَ سَعْياً واعلم أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } [البقرة : 260] .
أي قطّع هذه الطيور بنفسك ، وضع على كل جبل قطعة ، وبعد ذلك ادْعُها أنت تأتك سعياً أي مشياً ، حتى لا يقال إنها طيور قد جاءت من مكان آخر ، بل تجيئك نفس الطيور سيراً ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعطي القدرة لمخلوق عندما يستدعي الميت أن يأتيه حيا ، فما بالك بقدرة الله عز وجل؟
إذن فقول الحق : سبحانه وتعالى
{ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ الله وَعِندَ رَسُولِهِ } [التوبة : 7] .
وهذا استفهام للإنكار والتعجب من أن المشركين ليس لهم عهد ، بل تمردوا وتعودوا دائما على نقض العهود ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :
{ إِلاَّ الذين عَاهَدْتُمْ عِندَ المسجد الحرام فَمَا استقاموا لَكُمْ فاستقيموا لَهُمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين } [التوبة : 7] .
أي أن الله عز وجل وهو يخبر المؤمنين بأن هؤلاء الكفار لا عهد لهم ، لا يطالب المؤمنين أن يواجهوا المشركين بالمثل ، بل يأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يحافظوا على العهد ما دام الكافرون يحافظون عليه ، إلى أن يبدأ الكافرون في نقض العهد وهنا يلزم سبحانه المؤمنين أن يقابلوا ذلك بنقض مماثل وهذا ما يفسره قوله تعالى :
{ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين } [التوبة : 7] .
والمتقي هو الطائع لله فيما أمر وفيما نهى ويجعل بينه وبين صفات الجلال من الله وقاية ، إذن فأساس التقوى هو ألا ينقض المؤمن عهداً سواء مع مؤمن أم مع كافر ، وإنما الذي يبدأ بالنقض هو الكافر ، وعلى المؤمن أن يحترم العهد والوعد .

ويقول الحق تبارك وتعالى من بعد ذلك : {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً . . . }

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8)

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل كيف يكون للمشركين عهد ، بل اكتفى ب « كيف » ، لأن غدرهم صار معروفا ، وكانت « كيف » الأولى استفهاما عن أمر مضى . والتساؤل هنا يوضح لنا أنهم سيخونون العهد دائما ، كما فعلوا في الماضي ، فكأن الذي يخبر في الماضي يخبر عن المستقبل ويعلم ما يكون منهم . ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

{ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ } [التوبة : 8] .

ومعنى « يظهروا » ، أي يتمكنوا منكم ، وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يرقبون فيهم إلاّ ولا ذمّة ، و « يرقب » من الرقيب الذي يراقب الأشياء . إذن فهم لا يراقبون بمعنى لا يراعون ، أي أنهم لو تمكنوا من المؤمنين لا يراعون ذمة ولا عهدا ولا ميثاقا ، بل يستبيحون كل شيء . وهذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عما في نفوس هؤلاء الكفار من حقد على المؤمنين .

ونلاحظ أن كلمة « يرقبون » غير « ينظرون » ، وغير « يبصرون » ، وهي أيضا غير « يلمحون » وغير « يرمقون » ، مع أنها كلها تؤدي معنى الرؤية بالعين ، ولكن يرقب تعني يتأمل ويتفحص باهتمام حتى لا تفوته حركة ، لذلك إذا قلنا : إن فلانا يراقب فلاناً ، أي لا تفوته حركة من حركاته وهو ينظر لكل حركة تصدر منه . أما كلمة « نظر » فتعني رأى بجميع عينيه ، وكلمة « لمح » تعني رأى بمؤخر عينيه ، « رمق » أي رأى من أعلى . وقوله سبحانه وتعالى { لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً } يعني لا يراعون فيكم عهداً ، ولا يمنع الواحد منهم وازع من أن يفعل أي شيء مهما كان قبيحا؛ والمثال : أن يرفع الرجل القوي يده ليضرب طفلاً صغيراً لا يتحمل ضربته ، هنا يمسك أحدهم بيده ويطلب منه أن يراعي أن الطفل صغير لا يتحمل ضربته ، وأنه ابن فلان قريبه ، وأنهم جيران؛ فلا يراعي هذا كله ، وإنما ينهال على الطفل ضرباً .

وقوله سبحانه وتعالى : « إلاًّ » هي في الأصل اللمعان أي البريق ، و « إلاّ » أيضاً هي الصوت العالي ، واللمعان والصوت العالي لافتان لوسائل الإعلام الحسّية ، وهي الأذن والعين ، والإنسان إذا عاهد عهداً فهذا العهد يصبح أمراً واضحاً أمامه يلفت عيونه كما يلفتها الشيء اللامع ، ويلفت أذنه كما يلفتها الصوت العالي ، وسُمي العهد والكلام « إلاّ » لأنه معلوم بالعين والأذن .

هذا هو المعنى اللغوي ، لكن المعنى الاصطلاحي لكلمة « إلاّ » هو الغصب ، بأن تشد شيئا كأنك تغصبه على عدم الالتصاق بشيء آخر ، ولذلك سُمِّي سلخ جلد الشاة غصباً؛ لأن صاحب المال متمسك بماله تمسك الشاة الحية بجلدها .

وإذا أطُلق الغصب في الفقه لا ينصرف إلى المعنى اللغوي وهو اللمعان والصوت العالي ، وللعلماء في هذا المعنى أكثر من رؤية ، وكل واحد منهم أخذ لقطة من ال « إل » وأصله اللمعان ، أَلَّ . . يؤلّ . . إلاًّ ، بمعنى لمع . . يلمع . . لمعاً . وال « إل » أيضاً هو الصوت العالي ، وقال ابن عباس والضحاك رضي الله عنهما : إن « إلاّ » هي القرابة؛ لأن القرابة سبب للتراحم ، فأنت يعز عليك أن تخون قريباً لك؛ لأن القرابة لا تحتاج إلى عهد ، وقيل إن « إلاّ » هي العهد .

وقال سيدنا الحسن : إن « إلاّ » هي الجوار وما يوجبه من حقوقه . وقال قتادة : إن « إلاّ » هي الحلف والتحالف . وقال أبو عميرة : إن « إلاّ » هو اليمين أو القسم .

والمعاني كلها تلفتنا إلى وجود نوع من التراحم ، بحيث لا تتملك الإنسان القسوة أو انفلات الانفعال ، وليجعل الإنسان لنفسه من يقول له : « اهدأ إنه جارك أو من قوم بينهم وبين من تعاهون صلة قرابة »؛ لأن الذي يجعل الإنسان لا يميل إلى الشر ولا يشتري فيه ساعة يحفزه الأمر؛ هو مراعاة الملابسات كلها ، وهكذا يتدخل الحوار ، ولكن قد توجد قرابة أو عهد أو قسم أو جوار ليمنع البطش بقسوة ، أي إن « إلاّ » هو الأمر الذي يمنع الرد بقسوة على شيء قد يكون وقع خطأ . والمعنى أيضا هو عدم احترام لكل القيم؛ عدم احترام للقرابة أو الجوار أو العهد أو القسم ، فإذا تمكن رجل قوي من طفل صغير لم يراع فيه أيا من هذه الأشياء .

ويريد الحق أن نعلم أن المشركين إذا تمكنوا من المؤمنين فهم لا يراعون فيهم قرابة ولا عهداً ولا حلفاً ولا جواراً ولا قسماً ولا أي شيء . إذن فكيف يكون للمشركين عهد؟ وهم إن تمكنوا من المؤمنين لا يراعون فيهم شيئا أبداً .

ثم يضيف الحق سبحانه وتعالى قوله :

{ وَلاَ ذِمَّةً } [التوبة : 8] .

والذمة هي الوفاء بالأمانة التي ليس عليهما إيصال ولا شهود ، فإذا اقترض واحد مبلغاً من شخص آخر إيصالاً عليه بذلك المبلغ ، فهذا الإيصال هو الضامن للسداد ، وكذلك إن كان هناك شهود فشهادتهم تضمن الحق لصاحبه . ولكن إن لم يكن هناك إيصال ولا شهود ، يصبح الأمر موكولاً إلى ذمة المقترض؛ إن شاء هذا المدين اعترف بالقرض ، وإن شاء أنكره ، وهناك ذمة أخرى هي التي بينك وبين نفسك ، والمثال على ذلك قد تعاهد نفسك بأن تعطي فلاناً كل شهر مبلغاً من المال ، وهذا أمر ليس فيه عهد مكتوب أو شهود لكنه متروك لذمتك ، إن شئت فعلته ، وإن شئت لم تفعله . وما في الذمة – إذن – هو شيء إنْ لم تفعله تُفضَح ، مثال ذلك : أن تقرر بينك وبين نفسك أن تساعد أسرة ما ، وهذا أمر خاضع لإرادتك ، فلا عهد يجبرك على ذلك ولا قرابة ولا جوار ، لا شيء إلا ذمتك ، ولذلك فأنت تراعي الوفاء بما وعدت نفسك به لتحافظ على سمعتك ورؤية الغير لك .

وكذلك أيضاً حين تأخذ ديناً بلا إيصال منك أو شهود عليك ، ولكنك تحرص على أن ترده لأنه في ذمتك .

{كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وتأبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة : 8] .

وهكذا نعرف أن « كيف » هنا تعجب من أن يكون للمشركين الآن أو في المستقبل عهد لأنهم يحترفون نقض العهود ولو تمكنوا من المؤمنين فهم ينكلون بهم أبشع تنكيل دون مراعاة لأي اعتبار ، وقد يقول قائل : إنهم معنا على أحسن ما يكون؛ بشاشة وجه وحسن استقبال إلى آخره ، فكيف إذا تمكنوا منا انقلبوا إلى وحوش لا ترحم؟ . ونقول : إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يظهر وما يخفي ، وقد علم ما يدور في خواطر المؤمنين فرد عليهم حتى لا يترك هذه الأشياء معلقة داخل نفوسهم ، ولذلك يريد سبحانه وتعالى على هذا الخاطر :

{ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وتأبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة : 8] .

أي أن الله عز وجل ينبه المؤمنين ويحضهم ألا يصدقوا الصورة التي يرونها أمامهم من المشركين؛ لأنها ليست الحقيقة ، بل هو خداع ونفاق؛ فهم يقولون القول الحسن ، ويقابلونك بوجه بشوش وألفاظ ناعمة ، لكن قلوبهم مليئة بالحقد عليكم أيها المسلمون بحيث إذا تمكنوا منكم تظهر مشاعرهم الحقيقية من البغض الشديد والعداوة ، ولا يرقبون فيكم إلاّ ولا ذمّة . فإذا قال الله سبحانه وتعالى :

{ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ } [التوبة : 8] .

فعلى المؤمنين أن يصدقوا ما جاء من الحق ، ويكتشفوا أن اللسان الحلو وحسن الاستقبال ليس إلا خداع ، من هؤلاء الأعداء ، وهو سبحانه بهذا الكشف إنما يعطينا مناعة بألاَّ ننخدع بما نراه على وجوههم؛ فهذا مجرد أمر استقبالي ، لا يمثل ماضياً أو حاضراً ، وحين يبرم سبحانه وتعالى أمراً استقباليا فهو يخبر به عباده المؤمنين ، ولذلك نجده سبحانه وتعالى يرد بنفس الأسلوب على هذه الخواطر والمثال : في قوله سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } [التوبة : 28] .

والبلاغ هنا نهي عن دخول المشركين المسجد الحرام أو اقترابهم منه ، ومن الطبعي أن تدور الخواطر هنا في نفوس عدد من المؤمنين الذين يستفيدون من المشركين في مواسم الحج ، لأنهم أمة تعيش على اقتصاد الحج ، حيث يبيعون السلع لهؤلاء القوم ليكسبوا قوت العام ، فإذا ما تم منع المشركين من الحج أو الاقتراب من المسجد الحرام ، فمن أين يأتي الرزق الذي يحصلون عليه من البيع لهم؟ ولا بد أن يفكر المؤمنون : من أين سنأكل؟ . نحن نحضر بضاعتنا وننتظر طوال الموسم حتى الحج؛ فإذا نقص عدد الحجاج فلمن نبيع؟ .

فيرد الله سبحانه وتعالى على هذه الخواطر بقوله تعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ } [التوبة : 28] .

أي لا تخافوا الفقر ، لأن الله يعلم ما سوف يحدث ، والله هو الغني وعنده مفاتيح كل شيء وسوف يغنيكم من فضله ويفتح لكم باب الرزق مما يعوضكم وزيادة . وهكذا يرد الله سبحانه وتعالى على الخواطر التي تدور في نفس المؤمن ساعة نزول القرآن؛ حتى تطمئن قلوب ونفوس المؤمنين فيقول عز وجل :

{ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وتأبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة : 8] .

وفي هذا القول رد على الخواطر التي دارت في نفوس المؤمنين؛ وهم يرون المشركين يستقبلونهم بألفاظ ناعمة ووجوه تملؤها البشاشة ، فأوضح لهم الحق سبحانه وتعالى : لا تنخدعوا فما في القلوب عكس ما هو على الوجوه .

وقوله تعالى : { وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } [التوبة : 8] .

يبين أنهم بعيدون عن المنهج ، فالفسق هو الخروج عن الطاعة ، وهل الكافر والمنافق له طاعة؟ .

نقول : إنك إن نظرت لهؤلاء تجدهم خارجين حتى عن المنهج الذي اتخذوه لأنفسهم؛ فهم لا يلتزمون بمنهج الباطل الذي يعتنقونه ، إذن فهم فاسقون حتى في المنهج الذي ينتسبون إليه ، فإذا كانوا كذلك مع منهج الباطل ، فكيف بهم مع منهج الحق؟ .

وقوله تعالى : { وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ } يوضح بأنه قد تكون هناك قلة ملتزمة ، وهذا احتياط قرآني جميل ، كما أنها ردت على السؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كافرون – وليس بعد الكفر ذنب – فكيف يقال إنَّهم فاسقون أي عاصون أو خارجون عن الطاعة وهم غير مؤمنين أصلا؟ .

نقول : إنهم خارجون حتى عن مناهج الكفر التي اختاروها لأنفسهم ، ولذلك يبين الله سبحانه وتعالى وضعهم حين يقول : { اشتروا بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً . . . }

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9)

وهكذا يرينا الله عز وجل انقلاب المعايير عندهم ، فما الشراء؟ . الشراء هو : الحصول على سلعة مقابل ثمن ، فإذا قلت : اشتريت ساعة مثلاً ، تكون أنت المشتري ما دمت تدفع الثمن ، والذي أخذ الثمن هو البائع ، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

{ اشتروا بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً } [التوبة : 9] .

وكان المفروض – إذن – أن يكونوا قد دفعوا الثمن ، لأن المشتري هو الذي يدفع الثمن ، ولكن هنا عُكست القضية؛ فجعل الحق سبحانه وتعالى الثمن هو ما يشترونه ، مع أن الثمن هو الذي يدفع ، فتكون القضية مخالفة لواقع البيع والشراء ، والذي يجب أن نلاحظه أيضاً هو أن

الثمن يساوي السلعة . فأنت تأخذ السلعة وتعطي للبائع ثمناً يساويها ، لأن ثمن كل شيء يجب أن يكون مناسباً له ، فإذا اشتريت شيئا بسيطاً دفعت له ثمناً بسيطاً ، وإذا اشتريت شيئا ثميناً دفعت فيه ثمناً غالياً .

هذا كله ملحوظ حتى في الأعمال ، وقد تكون ممن يرغبون في مشاكسة الغير ، وقد تجد من يشاكس غيره؛ يطلب من أحد أتباعه أن يسب فلاناً ويعطيه عشرة جنيهات ، فإذا أراد أن يجعل التابع يضرب خصمه ، يقول له : اضرب وأعطيك خمسين ، وإن أراد أن يقتل التابع خصمه فهو يعطيه الألوف من الجنيهات ، وغالبا ما يقول هؤلاء الذين بلا إيمان : كل ذمة قابلة للانصهار بالذهب ، لكن المختلف قيمة هو الكمية التي تصهر أي ذمة ، فهناك من تنصهر ذمته بريال ، وآخر تنصهر ذمته بعشرين أو ثلاثين ، وهناك من تنصهر ذمته بملايين .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن هؤلاء الكفار قد حوّلوا الإيمان إلى سلعة تباع وتشترى ، فهم قد باعوا إيمانهم ، وبدلا من أن يتقاضوا عنه ما يساوي الإيمان والإيمان أغلى من كنوز الدنيا؛ باعوا إيمانهم بثمن قليل ، أي أنهم حتى لم يقدروا قيمة الإيمان فباعوه رخيصاً . كيف باعوا الإيمان بثمن رخيص؟ .

نقول مثلاً : إن الذي يرتشي يفعل ذلك ويريد أن يعوجّ ميزان الحق ، والذي يغير ميزان الحق يشكك الناس في العدالة ، وإذا شك الناس في العدالة؛ فقدوا سندهم الأمني؛ لأن كل مظلوم أمله أن يرفع الأمر للقضاء فينصفه ، أو أن يرفع أمره للمسئول فيعطيه حقه ، فإذا أحس الناس بأن الحق قد ضاع نتيجة أنه أصبح هناك ثمن للإيمان . وإن دفع اختلت الموازين ، في هذه الحالة يفسد المجتمع كله ، فكأنهم باعوا فساد المجتمع كله بثمن قليل جدا .

كما أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الحساب يوم القيامة؛ وكيف أن المؤمنين سيخلدون في الجنة وينعمون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وسيدخل هؤلاء الكافرون النار وبذلك يكونون قد باعوا إيمانهم مقابل ثمن رخيص مهما كان المال الذي سيحصلون عليه؛ لأن مال الدنيا كلها لا يساوي يوماً في الجنة؛ لأن الدنيا موقوتة بزمن ، ومتاعها محدود وقليل ، فكأنهم باعوا الخلود في النعيم بمتعة وقتية قد لا تستمر إلا أياماً أو سنوات .

وحينئذ يعرف الكافرون أن الثمن الذي تقاضوه قليل جدا بالنسبة لما خسروه . وليتهم جعلوا الإيمان ثمناً يدفعونه للحصول على متاع قليل في الدنيا ، ولكنهم زادوا على ذلك أنهم صدوا عن سبيل الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ اشتروا بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ } [التوبة : 9] .

والصد يحدث حين تكون هناك دعوة معروضة بأدلتها فتمنع الناس من أن يستمعوا إليها ، لأنك

تعرف أنهم لو سمعوها لاعتنقوها واقتنعوا بها ، ولذلك نجد الكفار مثلاً حين نزل القرآن والعرب أمة بلاغة وأمة بيان؛ عرفوا أنه لو سمع الناس القرآن لأحسوا بإعجازه وبلاغته وحلاوته ولآمنوا به ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى على ألسنتهم في القرآن : { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : 26] .

لأن الكفار يعرفون أن الناس لو استمعوا للقرآن لآمنوا به ، ولذلك فهم ينهونهم عن السماع ، وإن قرأ أحد القرآن يأمرون بعضهم البعض باللغو فيه حتى لا يفهم شيئا ، وهذه شهادة من الكفار بأن الآذان لو استقبلت القرآن لآمنت ، واللغو هو نوع من الصد عن سبيل الله ، وكان هناك نوع آخر من الصد عن سبيل الله أنهم كانوا يمنعون الناس من الاستماع إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل من يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها . ولذلك فهم يصدون الناس عن كلام الله تعالى وعن الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يقولون لأهل الحجيج : لا تصدقوا الرجل الذي يقول إنه نبي ، وهذه شهادة منهم أن الآذان لو استقبلت القرآن لسحبت أفئدتهم إلى الإيمان ، وهذه شهادة ضدهم وليست لهم؛ لأنهم واثقون أن سماع الحجيج لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستبعدهم عن الكفر؛ لذلك كانوا يخافون من أن يتأثر الناس بهذا الدين الذي هو دين الحق فيؤمنوا به وهذا ما جعلهم يصدونهم عنه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [التوبة : 9] .

وساء أي قبح ، وليس هو قبح الآن فقط ، ولكنه قبح حاليا وعظمت العقوبة عليه مستقبلاً .

وقوله تعالى :

{ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [التوبة : 9] .

يرينا دقة القرآن الكريم في أن السيىء منهم ليس عملاً واحداً ولكنه أعمال متعددة؛ قول وفعل ، أي هم يصدون الناس بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة في بعض الأحيان . وباستخدام الحق لكلمة « يعملون »؛ يلفتنا إلى أن أعمالهم ليست قولاً وليست فعلاً فقط ، فهناك القول وهناك الفعل وكلاهما عمل؛ القول عمل اللسان ، والفعل عمل الجوارح . فلو قال الحق : ساء ما كانوا يفعلون ، لقلنا فعلوا ولم يقولوا . ولو قال : ساء ما كانوا يقولون ، لقلنا : قالوا ولم يفعلوا .

وسبحانه أوضح لنا أن القول والفعل كلاهما عمل ، وقال سبحانه : { يأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2] .

ليبين لنا أن هناك فرقاً بين القول والفعل؛ القول أداته اللسان ، والفعل أداته بقية الجوارح ، والمعنى في قوله تعالى : { إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } أي ساء قولهم وفعلهم .

ويتابع المولى سبحانه وتعالى فيقول : { لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً . . . }

لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10)

ومن لا يرقب إلاّ ولا ذمة في غيره إنما يظلمه ، فإذا كان بيني وبينك قرابة ، أو عهد ، أو إيمان ، فإن لم تراع ذلك تكون قد اعتديت على حقوقي عندك ، وليتك قد اقتصرت في الاعتداء على حقوق الغير ، لكنك – أيضا – اعتديت على نفسك ، لأنك أعطيتها متاعاً قليلاً في الدنيا ، وتصلى في الآخرة ناراً ، إذن فقد ظلمت نفسك . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ } [آل عمران : **135**] .

ويقول سبحانه وتعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : **118**] .

وأليس الذي فعل فاحشة ، يظلم نفسه؟ بلى ، ظلمها في الآخرة بعد أن أعطاها شهوة في الدنيا ، أي أنه أخذ متعة عاجلة بعذاب آجل . لكن الذي يظلم نفسه ظلما شديدا وبيّناً هو الذي يرتكب إثما دون أن يأخذ متعة في الدنيا ، فلا هو أخذ متعة دنيا ولا أخذ متعة آخرة ، مثل الذي يتطوع لشهادة الزور ، هو يأخذ عذاباً في الآخرة ولم يأخذ متعة في الدنيا .

وقد يقول قائل : إن هذه الآية مكررة لأن الله تعالى قال من قبل : {كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً } [التوبة : **8**] .

ونقول : إن الموضوع يختلف ، ففي الآية الثامنة من سورة التوبة يبين الحق أنهم إن تمكنوا من المؤمنين فلن يراعوا قرابة ولا جواراً ولا حلفاً ، وإن أظهروا عكس ذلك . أما في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فهم يظلمون أنفسهم ويبيعون إيمانهم بثمن قليل ، وهناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس .

وهم في صدهم عن سبيل الله تعالى وعدوانهم على المؤمنين ، لم يحصلوا على فائدة دنيوية ، بل حاربوا الإيمان وحاربوا الدين فأخذوا الإثم ولم يستفيدوا شيئا ، فكأنهم لا يرقبون إلاّ ولا ذمة حتى مع أنفسهم . ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بأنهم هم المعتدون ، لأنهم دون أن يُعتدى عليهم تطوعوا بالعدوان على دين الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ثم قاموا بالعدوان على أنفسهم . ومن بعد ذلك تأتي رحمة الله لترينا كيف أن الله تعالى رحيم بعباده وخلقه ، فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم إن تابوا يقبل الله توبتهم ، لذلك يقول الحق جل جلاله : { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاوة وَآتَوُاْ الزكاوة فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين . . . }

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11)

وهذه الآية الكريمة تؤكد لنا أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وأن الباب مفتوح دائما لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم ، وهكذا تكون رحمة الله تعالى . ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : { فَإِن تَابُواْ } ولم يقل إذا تابوا ، لأنه لو قال : إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة ، ولكن قوله

: { فَإِن تَابُواْ } فيها شك ، لأن ما فعلوه ضد الإيمان كثير ، والذي نأمله فيهم قليل ، ولكن التوبة تفترض أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

{ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاوة وَآتَوُاْ الزكاوة } [التوبة : 11] .

إذن فالمهمة الإيمانية بعد التوبة إنما تكون بشهادة أن « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وبطبيعة الحال لا بد من مباشرة الصلاة لأنها تجمع كل أركان الإسلام ، وهي عمل يومي ، وليست عملاً مطلوباً من الإنسان مرة واحدة كالحج ، وليست كالصوم ، فالصوم مدته شهر واحد من السنة . إذن لكي تتأكد التوبة فلا بد أن يؤدي التائب الصلاة في وقتها كل يوم فهي العمل اليومي الذي لا يؤجل ولا يتأخر عن وقته ، والصلاة قرنت غالباً بالزكاة في آيات القرآن الكريم؛ لأن الزكاة تضحية بالمال ، والمال ناتج العمل ، والعمل ناتج الوقت ، والصلاة تضحية بالوقت ، فكأن الصلاة -كما قلنا - فيها زكاة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاوة وَآتَوُاْ الزكاوة فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين وَنُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [التوبة : 11] .

إنه لا بد أن نلاحظ في التفصيل هنا المراحل الإيمانية التي بينها الله عز وجل لنا؛ المرحلة الأولى وهي تحمل الاضطهاد والصبر ، والمرحلة الثانية أنه لا مهادنة بين الإيمان والكفر ، وهذه حسمت محاولة الكفار تمييع قضية الإيمان بأن نعبد إلهكم فترة وتعبدون إلهنا فترة ، وكانت هذه عملية مرفوضة تماماً الآن وفي المستقبل وحتى قيام الساعة . ثم جاءت مرحلة المعاهدات ثم نقض العهود ثم مهلة الأشهر الأربعة الحرم التي أعطيت للكافرين . وكل هذه مسائل مقننة ، ولم تكن الأمة العربية تعرف التقنينات .

إذن فكل هذه التقنينات جاءت من السماء ، والتقنينات في الأمم تأخذ أدوارا طويلة ، ولا يوجد قانون بشري يولد سليماً وكاملا ، بل كل قانون يوضع ثم تظهر له عيوب في التطبيق ، فيعدّل ويطور ويفسر ويحتاج إلى أساطين القانون الذين يقضون عمرهم كله في التعديلات والتفصيلات ، فكيف ترتب هذه الأمة العربية الأمية التي لم يكن لها حظ من علم ولا ثقافة كل هذه التقنينات؟ .

نقول : إنها لم ترتب ، وإنما رتب لها ربها الذي أحاط بكل شيء علماً ، فكل هذه المراحل التي مر بها الإيمان نزلت فيها تقنينات من السماء تبين للمؤمنين ما يجب أن يفعلوه .

{ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاوة وَآتَوُاْ الزكاوة فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين } [التوبة : 11] .

ونحن عادة نعرف أخوة النسب ، فهذا أخي من أبي وأمي ، أو هذا أخي من الأب فقط ، أو هذا من الأم فقط ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ } [يوسف : 58] .

هذه أخوة النسب ، ونحن نعلم أن مادة الأخوة تأتي مرة لتعبر عن أخوة النسب ، وتأتي مرة كلمة « إخوان » لتعبر عن الأخوة في المذهب والعقيدة ، وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يرفع الإيمان إلى مرتبة النسب ، فقال عز وجل : { إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ } [الحجرات : 10] .

ليدلنا على أنهم ما داموا قد دخلوا معنا في حظيرة الإيمان فلهم علينا حق أخوة النسب فيما يوجد من تواد وتراحم ، وترابط وحماية بعضهم البعض دائما ، وحب ووفاق إلى آخر ما نعرفه عن حقوق الأخوة بالنسب .

ولكن نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

{ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين } [التوبة : 11] .

ولم يقل إخوانكم ، لماذا؟ .

نقول : ليس من المعقول أن يخرجوا من كل ما كانوا فيه من آثام بالتوبة ، ثم يصبحوا في نفس التو واللحظة إخوة ، لكن ذلك يحدث عندما يتعمق إيمانهم ، ويثبت صدق توبتهم حينئذ يصبحون إخوة .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَنُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [التوبة : 11] .

كيف يكون التفصيل لمن يعلم؟ . وما دام يعلم فلماذا التفصيل؟ .

ونقول : إن المعنى هنا أن الله سبحانه وتعالى يفصل الآيات لمن يريدون أن يعلموا العلم الحقيقي الذي يأتي من الله ، لأن هذا العلم له أثر كبير على مستقبل الإيمان ، ولذلك فغير المسلمين الذين يهتمون بدراسة الدين الإسلامي دراسة جادة للبحث عن العلم الحقيقي ينتهون إلى إعلان إسلامهم ، لأنهم ما داموا أهل علم وأهل مواهب وأهل طموح في فنونهم ، وما دامت شهوة العلم قد غلبتهم ، وأرادوا أن يدرسوا منهج الإسلام بموضوعية ، لذلك تجدهم يعلنون الإسلام لأنهم ينظرون النظرة الحقيقية للدين الذي يدرسونه ، وهم يأخذون الإسلام من منبعه الإيماني وهو القرآن الكريم والسنّة النبوية ، ولا يأخذون الإسلام من المنسوبين للإسلام ، أي من المسلمين؛ لأن المسلمين قد يكون فيهم عاص ، وقد يكون فيهم سارق ، وقد يكون فيهم مُرْتشٍ ، وقد يكون فيهم كذاب ، وقد يكون غيهم منافق ، ولو أخذوا الإسلام عن المسلمين لقالوا : ما هذا؟ معصية وسرقة وكذب ورشوة ونفاق؟!

إنني أقول دائماً لمن لم يدرس الإسلام من أهل البلاد الأخرى : لا تنظر إلى المنسوبين للإسلام ، ولكن انظر إلى الإسلام في جوهره ومنهجه : (القرآن والسنة) ؛ هل جرم الرشوة والسرقة والكذب والنفاق وجعل لها عقوبة أو لا؟ نعم جرّمها .

إذن فهذه الأفعال كلها التي وجدتها في عدد من المسلمين واستنكرتها ليست من الإسلام في شيء ، ولكنك إذا ذهبت إلى الإسلام لتعرفه من منابعه العلمية وهي معزولة عن المنسوبين إليه لانتهيت إلى الإيمان .

ولذلك لو عرف المسلمون الذين ينحرفون عن المنهج ، ماذا يفعلون بالإسلام وكيف يسيئون إليه؛ لعلموا أنهم يفعلون شيئا خطيراً؛ لأن الإسلام منهج وسلوك ، وليس منهجا نظريا فحسب ، بل هو منهج عملي يطبق في الحياة ، ولذلك فإذا كان القرآن الكريم يمثل قواعد المنهج ، فسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل المنهج العملي التطبيقي للإسلام .

ويقول الحق سبحانه : { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر } [الأحزاب : 21] .

والمسلم حين يطبق منهج الإسلام يلفت نظر غير المسلم إلى هذا الدين ويحببه فيه ، وحين يفعل ما لا يرضاه الإسلام يُنَفِّرِ غير المسلم من الدين ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ *كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ } [الصف : 2 - 3] .

لأن فعلك حين يختلف مع الدين الذي تدعو إليه وتؤمن به ، فهو يتحول إلى حجة ضد الدين ، فيقول غير المسلم : لقد رأيت المسلم يغش ، ورأيته يسرق ، ورأيت يده تمتد إلى الحرمات ، إذن فكل منحرف عن الدين إنما يحمل فأساً يهدم بها الدين ، ويكون عليه وزر عمله ، ووزر من اتخذوه قدوة لهم .

ولقد قلنا : إننا حين ننظر إلى التمثيل الدبلوماسي في العالم الإسلامي ، نجد اثنتين وسبعين دولة إسلامية لها سفارات في معظم دول العالم ، وأتساءل : كم من أفراد هذه السفارات يتمسك بالمظهر الإسلامي؟ . أقل القليل . وكم من الجاليات الإسلامية في الدول الأجنبية يتمسكون بتعاليم الدين؟ . أقل القليل . ولو أنهم تمسكوا جميعا بتعاليم الإسلام لعرفت دول العالم أن لهذا الدين قوة ومناعة تحميه . وأن هذه المناعة هي التي منعت الحضارة المادية المنحرفة من أن تؤثر في هؤلاء ، ولكان لفتة قوية لشعوب العالم لكي تدرس هذا الدين ، ولكنك تجدهم يذوبون ويتهافتون على الحضارة المادية للدول التي يقيمون فيها ، مما يجعل شعوب هذه الدول تقول : لو كان دينهم قويا لتمسكوا به ، ولم يتهافتوا على حضارتنا .

وإذا درسنا تاريخ الإسلام نجد أنه لم ينتشر بالقتال أو بالسيف؛ لكنه انتشر بالأسوة الحسنة ، وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاوة وَآتَوُاْ الزكاوة فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين وَنُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } [التوبة : 11] .

أي نبينها لقوم يبحثون عن العلم الحقيقي ، الذي بينه الله عز وجل في منهجه ، ولذلك نجد مثلا أنه إذا وصلت أمة من الأمم إلى كشف جديد فأهل العلم في الإسلام يعرفون أنه ليس كشفا جديداً؛ لأن الإسلام ذكره منذ وقت طويل .

فمثلا في القانون في ألمانيا وصلوا إلى مادة في القانون سموها : « سوء استغلال الحق » فأنت لك حقوق ، ولكنك قد تسيء استغلالها . وبدأت الدولة في ألمانيا تتجه نحو تشريع قوانين تهدف لمنع إساءة استغلال الحقوق ووضع شروح لهذه القوانين وتطبيقها إلى آخره ، وذهب محام مسلم من بني سويف ليحصل على الدكتوراه من ألمانيا ، فاطلع على هذه المسألة ، وقد كان يحضر محاضرة يلقيها صاحب قانون نظرية « سوء استغلال الحق » ، فقام المحامي المسلم وقال له : أنت تقول إنَّك واضع هذه النظرية؟ .

فقال المحاضر الألماني : نعم . فقال المحامي : لقد جاءت هذه النظرية منذ أربعة عشر قرناً في منهج الإسلام . وارتبك المحاضر الألماني ارتباكا شديداً ، وجاء بالمستشرقين؛ ليناقشوا هذا المحامي المسلم ، وجاءوا بكتب السيرة النبوية ، وأخرج المحامي للمستشرقين قصة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : إن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان جالسا فجاءه صحابي يشكو من أن أحد الصحابة له نخلة في بيته ، والبيت مملوك للصحابي الشاكي ، والنخلة مملوكة لصاحبي آخر ، وقد تعوَّد أن يأتي الصحابي صاحب النخلة إليها كثيراً ليشذبها ويلقحها ويطمئن عليها ، وكأنه قد جعلها « مسمار جحا » كما يقول المثل الشعبي ، فتعرضت عورة أسرة الصحابي صاحب البيت إلى الحرج ، فذهب يشكو الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحضر الرسول صاحب النخلة وأوضح له بما معناه : « إما أن تهب النخلة لصاحب البيت ، وإما أن تبيعها له بالمال ، أو أن تقطعها » .
لقد أوضح له الرسول صلى الله عليه وسلم : أن النخلة حقك ولكنك أسأت استعمال الحق بكثرة ذهابك إلى مكانها بسبب وبغير سبب ، مما عرَّض عورة صاحب البيت للمتاعب . وكان هذا الفعل هو المثل الحي لسوء استغلال الحق . وكان من أمانة العلم أن يعدل أستاذ القانون الألماني في محاضرته ويقول : لقد ظننت أنني قد جئت بشيء جديد ، ولكن الإسلام سبقني إليه منذ أربعة عشر قرنا . وفعلا تم التعديل . واعترف القانون الألماني بأن الإسلام قد سبقه في نظرية « سوء استغلال الحق » منذ ألف وأربعمائة سنة .
ولذلك تجد أن صفة الأمية في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي أمته ، كانت شهادة تفوق؛ لأنها لم تأخذ علمها بالقراءة عن حضارات الأمم السابقة ، وإنما أخذته عن الله؛ لأن أقصى ما يصل إليه غير الأميين في علمهم أن يجيء إليهم العلم من بعضهم البعض ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم جاء لها العلم من الله ، وسادت الدنيا أكثر من ألف عام .
ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { وَإِن نكثوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ . . } .

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12)

ونكثوا الأَيمان : أي لم ينفذوا بنود العهود ، والله سبحانه وتعالى يعطينا هنا حيثية قتال الكفار بعد كل المراحل التي حاربوا فيها الإيمان ، فهم قد نقضوا العهود ، ولم يكتفوا بذلك بل طعنوا في الدين . أي عابوا في الدين عيباً مقذعا . وعندما يقال : إنَّ فلاناً طعن في فلان ، فلا بد أنه قد تجاوز مرحلة السب إلى مرحلة أكبر بكثير . وهنا يأمرنا الحق – سبحانه وتعالى – إما بقتالهم ، وإما أن يعلنوا الإيمان . وهذا حق للمسلمين لأنهم قدموا من قبل كل سبل المودة ، لكن أئمة الكفر رفضوها .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر } ، أي : أن القتل يأتي أولاً لزعماء الكفار الذين يحرضون أتباعهم على محاربة دين الله ، فالأتباع ليسو هم الأصل ، ولكن أئمة الكفر؛ لأنهم هم الذين يخططون وينفذون ويحرضون . وهم –كما يقال في العصر الحديث – مجرمو حرب؛ والعالم كله يعرف أن الحرب تنتهي متى تخلص من مجرمي الحرب؛ لأن هؤلاء هم الذين يضعون الخطط ويديرون المعارك ويقودون الناس إلى ميادين القتال ، تماماً كأئمة الكفر ، هؤلاء الذين اجترأوا على أساليب القرآن الكريم ، ومنعوا القبائل التي تأتي للحج من الاستماع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاربوا الدين بكل السبل من إغراء وتحريض ، وتهديد ووعيد .

والأمر العجيب أنك ترى من يبرر لك قتل مجرمي الحرب ويستنكر قتل أئمة الكفر ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

{ وَإِن نكثوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ } [التوبة : 12] .

ويقول الحق عز وجل في ذات الآية :

{ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ } [التوبة : 12] .

وفي هذا يأتي المستشرقون ومن يميلون إليهم بقلوبهم ويُحسَبون علينا بقوالبهم وظواهرهم ليقولوا : إن هناك تناقضاً ، فالله يقول : { وَإِن نكثوا أَيْمَانَهُم } أي أثبت أن لهم أيماناً ، ثم قال : { لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ } . فكيف يثبت لهم الأيمان ثم ينفيها عنهم؟ . والنفي والإثبات لا يجتمعان في وصف الشخص الواحد؛ ونقول : إنهما لا يجتمعان عند من يفكر تفكيرا سطحيا ، أو يأخذ الأمور بظواهرها . ولكن من يعرف مرامي الألفاظ ، يعلم أن نفي الشيء وإثباته في القرآن الكريم يعني : أن الجهة منفكة . فالله سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى } [الأنفال : 17] .

فقوله : { وَمَا رَمَيْتَ } نفي للرمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و { إِذْ رَمَيْتَ } إثبات

للرمي . ويجيء نفي الشيء وإثباته في آية واحدة ، والفاعل والفعل واحد . وهذه تسمى في الأسلوب انفكاك الجهة ، أي أن كل جهة تطلب معنى مختلفاً عن الجهة الأخرى ، تماماً مثلما يقال : إن فلاناً يسكن أعلى مني . فهذا قول صحيح ، ولكنه في ذات الوقت يسكن أسفل بالنسبة لمن فوقه ، إذن فهو عالٍ وأسفل في نفس الوقت؛ عالٍ عمن تحته وأسفل ممن فوقه .

أو تقول : -كمثال آخر - فلان أب وابن . هنا يبدو تناقض ظاهري ، أي أنه أب لا بنه ، وابن لأبيه ، فهو أب من جهة الابن ، وابن من جهة أبيه ، ولا يوجد تعارض . وهذا ما نسميه انفكاك الجهة .

إذن فلا يوجد أدنى تعارض بين نفي الرمي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإثباته له؛ لأن رسول الله أخذ حفنة من الحصى ورمى بها جيش الكفار ، هذا ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو من البشر ، لكن قدرة الله سبحانه وتعالى أخذت هذا الحصى وأوصلته إلى كل جندي من جيش الكفار ، وفي قول الحق سبحانه وتعالى : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياوة الدنيا } [الروم : 6-7] .

لقد قالوا : إن الله نفى العلم وأثبته لنفس الأشخاص ، ونقول : لا ، إنه نفى العلم الحقيقي ، وأثبت لهم ظاهر العلم ، وهذا مختلف عن ذلك تماماً ، وهنا يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن نكثوا أَيْمَانَهُم } [التوبة : 12] .

أثبتت الآية أن لهم أيماناً ، وفي آخر الآية ينفي عنهم الأيمان فيقول :

{ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ } [التوبة : 12] .

ونقول : فائدة الأيمان أو العهد أن يُحافظ عليه ، ومن لا يحافظ على يمينه أو عهده يكون لا أيمان له؛ لأن أيمانه أي عهده لا قيمة له؛ لأنه مجرد من الوفاء . وعندما يحلف الكذاب نقول : هذا لا يمين له . وهؤلاء أيمانهم لم تأخذ قداسة الأيمان ، فكأنهم لا أيمان لهم ،كأن يكون لك ابن اقترب امتحانه وتجبره على المذاكرة ، وتجلس تراقبه فيقلب الكتاب ولكنه لا يفهم شيئاً . وإن حاولت أن تحسب حصيلة المذاكرة لم تجد شيئا ، فتقول : ذاكرت وما ذاكرت ، وهذا نفي للفعل وإثباته ولا تناقض بينهما : لأن الجهة منفكة .

ونفي الأيمان في آخر الآية معناه : أنهم لا وفاء لهم ، وما داموا بلا وفاء فلا قيمة لأيمانهم . وقوله تعالى :

{ فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ } [التوبة : 12] .

هذا أمر بقتالهم لا بقتلهم ، فيكون المعنى : قاتلوهم ، فإن لم يقتلوا فقد يجعلهم القتال ينتهون عن عدائهم للدين؛ لأنهم حين يرون البعض منهم قد قتل وهم أضعف من المواجهة ، هنا ستخف حدة محاربتهم للإسلام ، وتنتهي اللجاجة في أمر الدين .

ثم يقول الحق من بعد ذلك : { أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نكثوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . . }

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13)

في هذه الآية الكريمة يحض المولى سبحانه وتعالى على جهاد ، وقتال أئمة الكفر ، وعدم تركهم يستشرون في حربهم للدين ، ومنع الناس عن الإيمان ، وصدهم عن سبيل الله . و « أَلاَ » تسمى أداة تحضيض ، مثل قولنا : ألا تذهب إلى فلان ، وهي حث على الفعل؛ لأن التحضيض نوع من أنواع الطلب . وقوله تعالى : { نكثوا أَيْمَانَهُمْ } أي نقضوا عهودهم ، وقوله تعالى : { وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول } أي : هم الذين بدأوا بالعداوة ومحاولة إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ، وَ { هَمُّواْ } ، أي عقدوا النية على العمل ، وقوله تعالى : { وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } أي : أنهم هم الذين بدأوا بعداوة المسلمين والصد عن الإسلام من أول أن بدأ يدعو إليه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . والبدء هو : العمل الأول ، و « المرة » هو فعل لا يتكرر؛ لأنه إن تكرر نقول : { مَرَّتَيْنِ } ، مثل قول الحق سبحانه : { الطلاق مَرَّتَانِ } [البقرة : 229] .
هم إذن الذين بدأوا الفعل الأول بالعداوة . والإسلام –كما نعلم – قد واجه قوتين في مرحلتين مختلفتين من مراحل الدعوة للإسلام : قوة المشركين من قريش ، وقوة اليهود ، وأما قريش فقد هموا بأن يخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة ، وقد يقول قائل : لكن المؤمنين هم الذين بدأوا القتال في بدر . وأقول : لم يذهب المسلمون إلى بدر للقتال ، بل ذهبوا من أجل العير تعويضا عن مالهم الذي تركوه في مكة ، ولكن الكفار قالوا : لن نرجع حتى نستأصل محمداً ومن معه ، وجاءوا بالنفير ليقاتلوا في بدر .
إذن فعلى الرغم من سلامة العير بحيلة من أبي سفيان إلا أن قريشا هي التي أرادت القتال فجمعوا الجند والفرسان؛ ليقاتلوا المسلمين .
وكذلك فعل اليهود ، فقد نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول من المدينة .كما حاول المشركون إخراجه من مكة ، وكان بينه صلى الله عليه وسلم ، وبين اليهود معاهدة ، وهذه المعاهدة كانت من أوائل أعمال رسول الله في المدينة ، فهل حافظ اليهود على هذه العهود؟ . لا ، فقد تعهدوا ألا يعينوا عدوا عليه ، ونكثوا أيمانهم ونقضوا العهد فأعانوا قريشا على المسلمين .
وكذلك فعل بنو النضير ، فقد أرادوا اغتياله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بإلقاء صخرة عليه ، بل وتمادى اليهود في غزوة الأحزاب وأعانوا قريشا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتفقوا معهم على أن يدخلوهم من أرضهم بالمدينة ليفاجئوا رسول الله وجيش المسلمين من الخلف .
إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : { وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } لها أكثر من حيثية ، ونقضهم العهود

وبدْؤُهم القتال يجعلكم تقاتلونهم؛ لتأمنوا شرهم .
{ أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نكثوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } [التوبة : 13]
.

وقوله تعالى : { أَلاَ تُقَاتِلُونَ } حث على القتال ، أي : ما الذي يمنعكم من قتالهم إلا أن تكونوا خائفين منهم ، ولذلك يقول تبارك وتعالى :
{ أَتَخْشَوْنَهُمْ فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [التوبة : 13] .

وهنا يلفت الحق سبحانه نظر المؤمنين إلى أنهم إن كانوا أمام حالين ، خشية من البشر وإيذائهم ، وخشية من الله ، فالأحق بالخشية هو الأشد والأعظم والأدوم عقاباً . ولأنكم إذا ما قارنتم قوة هؤلاء بقوة الله ، فالله أحق بالخشية قطعاً . وإذا كنت بين اختيارين فأنت تقدم على أخف الضررين ، فكيف يخاف المؤمنون ما يمكن أن يصيبهم على أيدي الكفار؟ ولا يخشون ما يصيبهم من الله .
وأوضح الله سبحانه وتعالى أنه لا خشية من الكفار في آية أخرى من ذات السورة ، هي قوله سبحانه : { قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فتربصوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ } [التوبة : 52] .
وهكذا أزال الحق سبحانه وتعالى الخوف من نفوس المؤمنين ، فماذا سيحدث لكم من جنود الكفر؟ إما أن تستشهدوا فتدخلوا الجنة وإما أن تنتصروا . وقوله تعالى : { أَتَخْشَوْنَهُمْ } استفهام استنكاري معناه : ما كان يصح أبدا أن تخشوهم وتخافوهم؛ لأنهم لو كانوا أقوى منكم وتغلبوا عليكم فزتم بالشهادة ، ولو كانوا أضعف منكم وتغلبتم عليهم فزتم بالنصر . وكلاهما أمر جميل مُحبَّب لنفوس المؤمنين بالله يحدث تثبيتا لقلوبهم وأقدامهم في مواقف القتال والنزال .
ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالحكم النهائي فيقول :
{ فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [التوبة : 13] .
أي : راجعوا إيمانكم ، فإن كنتم مؤمنين بالله فأنتم راغبون في الشهادة . وإن كنتم مؤمنين بالله القادر القوي القهار فأنتم تعرفون الله وقدرته وقوته ، وهي لا تقارن بالقوة البشرية . فإما أن تنتصروا عليهم فتكون لكم فرحة النصر ، وإما الاستشهاد وبلوغ الجنة ، وكلتا النتيجتين خير ، أما ما يصيب الكفار فهو ينحصر في أمرين : إما أن يصيبهم الله بعذاب بأيدكم ، وإما أن يصيبهم بعذاب من عنده .
إذن ففي أي معركة يدخلها الإيمان مع الكفر ، نجد أن الجانب الفائز هم المؤمنون ، سواء استشهدوا أم انتصروا . والخاسر في أي حال هم الكفار؛ لأنهم إما أن يعذبوا بأيدي المؤمنين ، وإما أن يأتيهم عذاب من الله تعالى في الدنيا أو في الآخرة . وهكذا وضع الله المقاييس التي تنزع

الخشية من نفوس المؤمنين في قتالهم مع الكفار ، فلا تولوهم الأدبار أبدا في أي معركة؛ لأنه مهما كبرت قوة الكفار المادية ، فقوة الحق تبارك وتعالى أكبر . ويقول المولى سبحانه : {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله } [البقرة : 249] .

وهكذا لا يحسب حساب للفارق في القوة المادية ، فهذه خشية لا محل لها في قلوب المؤمنين في جانب الإيمان؛ لأن الله مع الذين آمنوا .

ثم يؤكد الحق سبحانه وتعالى حثه للمؤمنين على القتال فيقول : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ . . . }

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (14)

وقوله تعالى : { فقاتلوا } في الآية السابقة كانت حثا للمؤمنين على القتال ، و { قَاتِلُوهُمْ } الثانية التي في هذه الآية؛ للتحريض والترغيب في القتال ، وأمر إيماني للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار . ثم يأتي المولى سبحانه وتعالى في هذه الآية بالحكمة من الأمر بالقتال فيقول : { يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } ونتساءل : إذا كان الله يريد أن يعذبهم فلماذا لا يأتي بآية من عنده تخضعهم للعذاب؟ نقول : لو انتصر المؤمنون بحدث كوني غير القتال لقال الكفار : حدث كوني هو الذي نصرهم . ويشاء الله سبحانه وتعالى أن ينهزم هؤلاء الكفار بأيدي المؤمنين؛ لأن الكفار ماديون لا يؤمنون إلا بالأمر المادي ، ولو أنهم كانوا مؤمنين بالله لانتهت المسألة ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يُرِيَ الكفار بأس المؤمنين لتمتلىء قلوبهم هيبة وخوفاً من المؤمنين ، ويحسبوا لهم ألف حساب ، فلا تحدثهم أنفسهم بأن يجترئوا على الإيمان وعلى الدين أو أن يستهينوا بالمؤمنين .

ولقائل أن يقول : إن الحق هنا يأمر فيقول : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } .

وفي آية أخرى يقول : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } [الأنفال : 33] .

فكيف يثبت الله العذاب وينفيه؟ . ونقول : لقد نزلت الآيتان في الكفار . وسبحانه وتعالى يقول : { قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } ولو قال : قاتلوهم تعذبوهم بأيديكم لاختلف المعنى ، ولكن الآيتين تثبت إحداهما العذاب والأخرى تنفيه ، ونقول : إن الجهة منفكة ، فقوله تعالى : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ } أي : لا ينزل الله تعالى عليهم عذابا من السماء ما دمت فيهم ، وقد وضح هذا في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 32-33] .

فقد سبق أن طلب الكفار عذابا من السماء ينزل عليهم إن كان القرآن هو الحق؛ فرد الحق سبحانه وتعالى بأنه لا يعذبهم ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم؛ لأنه أرسله رحمة للعالمين . ولكن عدم تدخل السماء بالعذاب بعد بعث رسول الله بالرسالة ، لا يعني أن العذاب

قد انتهى بالنسبة للكفار . وائتمن سبحانه المؤمنين على نصرة منهجه ودينه وهو معهم . ولكن العذاب يتم بالأسباب الأرضية ، ولا يوجد تناقض . لأن العذاب من السماء قد يكون استئصالا لكل الكافرين؛ صغارا وكبارا ،كأن يغرقهم الطوفان ، أو تأتي الصيحة فتبيدهم عن آخرهم ، أو تجيئهم ريح صرصر عاتية تدمرهم ، أو تصيبهم الرجفة فتجمدهم ، وفي كل هذه الحالات لا يبقى أحد من الكفار ، ولكن القتال البشري لا يقضي على الكفار نهائيا ، فالإسلام يمنعنا من قتال النساء والصبيان ، ومن قتال الذين لم يقاتلونا .
إذن فالعذاب بعد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عذاب استئصال وإبادة كما كان في الأمم السابقة .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد عذَّب الأمم السابقة بتلك الوسائل ، فكان على الرسول من السابقين على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة ، وإن لم يؤمن قومه برسالته تتدخل السماء ضدهم بألوان العذاب السابقة . ولكن الحق تبارك وتعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن تدعو لدين الله ، وتؤدب من يختصم الإيمان ، ويدخل في عداوة مع المؤمنين فمنهم من يفر أو يقع في الأسر ويبقى الطفل والمرأة دون تعذيب .
{ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ } [التوبة : 14] .
وما الفرق بين العذاب والخزي؟ نقول : قد نجد واحدا له كِبْرٌ وجَلَدٌ ، وإن أصابه العذاب فهو يتحمله ولا يظهر الفزع أو الخوف أو الضعف ، ويمنعه كبرياؤه الذاتي من أن يتأوه ، ولمثل ذلك هناك عذاب آخر هو الخزي ، والخزي أقسى على النفس من العذاب؛ لأن معناه الفضيحة ، كأن يكون هناك إنسان له مهابة في الحي الذي يسكن فيه ، مثل فتوة الحي ، ثم يأتي شاب ويدخل معه في مشاجرة أمام الناس ويلقيه على الأرض ، هذا الإلقاء لا يعذبه ولا يؤلمه ، وإنما يخزيه ويفضحه أمام الناس ، بحيث لا يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى ، والخزي هنا أشد إيلاما لنفسه من العذاب . ولا يريد سبحانه أن يعذب الكفار بأيدي المؤمنين فقط ، بل يريد لهم الافتضاح أيضا ، بحيث لا يستطيعون أن يرفعوا رءوسم . وجاء الحق سبحانه وتعالى بنتيجة ثالثة لهذا القتال فقال :
{ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ } [التوبة : 14] .
وعلى هذا فعندما يقاتل المؤمنون الكفار يصيب الكفارَ العذاب والخزي والهزيمة . إذن { يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ } مرحلة ، { وَيُخْزِهِمْ } ، مرحلة ثانية { وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ } مرحلة ثالثة ، ثم تأتي المرحلة الرابعة :
{ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ } [التوبة : 14] .
أي : أن النصر الذي سيحققه المؤمنون بعون الله تعالى في قتالهم مع الكفار سيشفي صدور

المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم ، فكأن هذا النصر يشفي الداء ، الذي ملأ صدور أولئك المؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، أي : يخرج الغيظ والانفعال المحبوس في الصدور ، فكأن قتال المؤمنين للكفار لا يحقق فقط العذاب والخزي للكفار والنصر للمؤمنين عليهم ، ولكنه يعالج – أيضا – قلوب المؤمنين التي ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخذ حقوقهم . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ . . . }

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (15)

وهكذا يرى الذين غدروا بالعهد وتعاونوا ضد أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرون انتقام الله تعالى لهم ، فتشفي صدور المؤمنين ويذهب منها الغيظ . والشفاء –كما نعلم – إنما يكون من داء ، والدواء ضرورة للشفاء ، وكأن انتقام الله عز وجل فيه شفاء لصدور المؤمنين من كفار قريش الذين أعانوا أبناء بكر على أبناء خزاعة حلفاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعذبهم الله بأيديكم ، وينصركم عليهم ، ويخزيهم سبحانه وتعالى .

ونلمس أنه – سبحانه وتعالى – رغم تعذيبه لهم ، وتشديد النكير عليهم ، إلا أنه يفتح باباً للتوبة ، وهي مسألة لا يقدر عليها إلا رب حكيم؛ لأن الكل عبيد له؛ مؤمنهم وكافرهم ، هو خالقهم ، وسبحانه يغار على صنعته ، فبعد أن يشتد عليهم بالعذاب والخزي ، ويشفي بهذا صدور القوم المؤمنين ، بعد ذلك يفتح باب التوبة ، وبهذا يعطي المؤمنين قوة سماحة إيمانية ، فلا يصطحبوا التعالي على هؤلاء إن جاءوا تائبين مؤمنين فيقول سبحانه وتعالى :

{ وَيَتُوبُ الله على مَن يَشَآءُ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة : 15] .

أي : أنه سبحانه يعلم كل متطلبات الأحكام ، ولكل أمر عنده حكمة ، فالقتال أراده الله عز وجل لِيدُكَّ به جبروتهم ، والتوبة حكمتها لمنع تمادي الكفار وطغيانهم في الشر؛ لأن مشروعية التوبة هي رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه ، ولو لم يشرع الله التوبة لقال كل من يرتكب المعصية : ما دامت لا توجد توبة ، وما دام مصيري إلى النار ، فلآخذ من الدنيا ما أستطيع ، وبذلك يتمادى في الظلم ويزيد في الفساد والإفساد؛ لأنه يرى أن مصيره واحد ما دامت لا توجد توبة ، ولكن تشريع التوبة يجعل الظالم لا يتمادى في ظلمه ، وبهذا يحمي الله المجتمع من شروره ، ويجعل في نفسه الأمل في قبول الله لتوبته والطمع في أن يغفر له؛ فيتجه إلى العمل الصالح عَلَّهُ يُكفِّر عما ارتكبه من الذنوب والمعاصي؛ وفي هذا حماية للناس ومنع لانتشار الظلم والفساد .

إذن فالقتال له حكمة ، والتعذيب له حكمة ، والخزي له حكمة ، والتوبة لها حكمة ، وسبحانه وتعالى حين يعاقب ، إنما يعاقب عن حكمة ، وحين يقبل التوبة فهو يقبلها عن حكمة .

ثم يقول الحق عز وجل بعد ذلك : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ . . } .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (16)

ساعة تسمع « أم » فاعلم أنها إضرابية ، أي : ما كان الله سبحانه ليترككم حتى يعلم - علم الواقع - من منكم يؤمن إيمانا يؤهله للجهاد في سبيل الله؛ فإن ظننتم أن الله تارككم بدون ابتلاء وبدون أن يختبركم ويمحصكم ، فيجب أن تعرضوا عن ذلك وتفهموا ما يقابله .
إذن فالابتلاء أمر ضروري لمن أراد الله تعالى له أن يتحمل أمر الدعوة ليواجه شراسة التحلل والفساد ، لذلك يُصفِّي الله من آمنوا حتى يقف كل واحد منهم موقف الانتماء إلى الله مضحيا في سبيل الله . وساعة يقول الحق عز وجل في شيء كلمة { وَلَمَّا يَعْلَمِ } فليس معنى ذلك أنه لم يعلم وسيعلم ، لا ، فسبحانه يعلم كل شيء أزلا ، ولكن العلم الأزلي لا يكون حجة على البشر . ودائماً أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نجد عميد إحدى الكليات أحيانا يعلن عن جائزة علمية يريد أن يعطيها للمتفوقين؛ فيقول له المدرس الذي يشرف على تحصيل التلاميذ : إن فلاناً هو الأول وهو يستحق الجائزة ، فيقول العميد : ولكني أريد أن تعقد امتحاناً؛ ليكون حجة على غير المتفوقين؛ وهذا هو علم الواقع العملي الذي أراده الحق عز وجل من الابتلاء ، وسبحانه وتعالى يعلم كل شيء أزلا ، ولكن العلم الواقعي هو حجة على المخالفين .
{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ } [التوبة : 16] .
أي بدون ابتلاء أو تمحيص . وقوله تعالى :
{ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله } [التوبة : 16] .
« ولمَّا » للنفي ، ومثلها مثل قولنا : « لما يأت » أي : أنه لم يتحقق المجيء حتى الآن ، وتختلف « لما » عن « لم » ، ف « لم » لا تؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها ، فما يأتي بعدها لن يتحقق أبدا ، أما « لما » فتؤذن بتوقع ثبوت ما بعدها ، أي أن ما بعدها . . لم يتحقق إلى لحظة نطقها ، ولكنه قد يتحقق بعد ذلك . فإن قلت : « لما يثمر بستاننا » أي : أن البستان الذي تملكه لم يثمر ، ولكنه قد يثمر بعد ذلك . وسبحانه وتعالى يقول : { قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : 14] .
ومعنى القول الكريم : أن الإيمان لم يدخل في قلوبهم إلى الآن ، ولكنه سوف يدخل بعد ذلك ، وهذه بشارة لهم . فقد قالت الأعراب : « آمنا » فأوضح الحق سبحانه وتعالى : بل أسلمتم ولم يدخل الإيمان قلوبكم؛ لأن الإيمان هو الاعتقاد القلبي الجازم ، والإسلام انقياد لما يتطلبه إيمان القلب من سلوك ، أي : أنتم قد سلكتم سلوك الإسلام ، ولكنه سلوك سطحي لم يأت من

ينابيع القلب . وقول الحق هنا :
{ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ } [التوبة : 16] .
لا يعني أن علمه متصل بوقت الكلام ، فعلم الله تعالى موصول أزلي وسبحانه مُنزَّهٌ عن الأغيار .

إذن فالعلم المراد هنا هو علم الواقع الذي سوف يكون حجة عليكم؛ لأن الله سبحانه وتعالى لو لم يختبركم لقلتم : لو أمرتنا يا رب بالقتال لقاتلنا ، ولو أمرتنا بالصبر في الحرب لصبرنا ، وَلَكُنَّا أكبر المجاهدين .
ولذلك جاءت الابتلاءات كتجربة عملية ، ومن هذه الابتلاءات مواجهة العدو في حرب ، فمن هرب ثبت له التقصير في المواجهة ، ومن لم يصبر على الابتلاءات ، عرف تقص إيمانه وأصبح ذلك علما واقعا .
{ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً } [التوبة : 16] .
إذن فالله يريد بعلم الواقع التمييز بين صدق الجهاد وبين الفرار منه ، وأن يكون هناك سلوك إيماني واضح؛ يبين أن هؤلاء القوم لم يتخذوا من دون الله ولا رسوله وليجة ، و « الوليجة » من فعلية ، بمعنى فاعل ، و « والجة » يعني « داخلة » . { ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل } [الحج : 61] .
أي : يُدخْل الليل على النهار ويُدخل النهار على الليل ، والمراد ب « الوليجة » الشيء الذي يدخل في شيء ليس منه ، وهي من الكلمات التي تطلق ويستوي فيها المفرد المذكر والمؤنث ، والمثنى والمثناة وجمع المذكر وجمع المؤنث ، وتقول : « امرأة وليجة » و « رجال وليجة » . كما تقول : « رجل عدل » و « امرأة عدل » ، و « رجلان عدل » ، « امرأتان عدل » ، و « رجال عدل » و « نساء عدل » ، لا تختلف في كل هذه الحالات .
والمراد بالوليجة هنا بطانة السوء التي تدخل على المؤمنين الضعاف ، وتتخلل نفوسهم ليفشوا أسرار المؤمنين ويبلغوها للكفار . ولذلك شاء الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا { وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ } أي : أن يعلم سبحانه علما واقعيا من جاهدوا ، ولم يتخذوا بطانة سوء من الكفار يدخلونهم في شئونهم دخولا يكتشفون أسرارهم .
{ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً } [التوبة : 16] .
فالممنوع هنا – إذن – أن يتخذ المؤمنون الكفار وليجة؛ لأن الكافر من هؤلاء سيأخذ أسرارهم ويفشيها لعدوهم . وبذلك يتعرض المؤمنون للخطر . وعلى المؤمن أن يجعل الله عز وجل هو وليجته ، وأن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو وليجته ، وأن يجعل المؤمنين هم وليجته ، ويسمح لهم أن يتداخلوا معه ، وهم مأمونون على ما يعرفونه من بواطن الأمور ، أما الأعداء

والخصوم من الكفار فهم غير مأمونون على شيء من أسرار المؤمنين . ويذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

{ والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [التوبة : 16] .

والمعنى : إن كنتم تحسبون أنكم تتداخلون مع الكفار وتعطونهم أسرار المؤمنين ولا أحد يعرف ، فاعلموا أن الله تعالى يسمع ويرى ، وأن الله خبير لا تخفى عليه خافية ، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إن أخفيتم شيئا عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبدا؛ فلن يخفى شيء عن عيون الخالق؛ لأنكم إن عمَّيتُم على قضاء الأرض ، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء .

وينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى في قوله عز وجل : { مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ }

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (17)

وكأن هذه الآية قد جاءت حيثية للبراءة التي حَمَّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ليعلنها يوم الحج الأكبر؛ لأن البراءة هي القطيعة ، ومعناها ألاَّ يدخل المسجد مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فكأن البراءة من الله عز وجل ورسوله من المشركين مَنْعٌ لهم من دخول المسجد الحرام ، وكان عدد من المشركين قد جعلوا من المسجد الحرام منتدى لهم ، وكانوا يجلسون فيه للتسامر والتجارة ولغير ذلك ، كما كانوا يقومون بسقي الحجيج من شراب الزبيب الذي لم يختمر؛ ومعهم حجاب البيت ، ويطعمون زوار بيت الله الحرام .

كل ذلك كان يحدث في مكة من الكفار ولكن هذا انتهى بالبراءة التي أعلنها علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ الذي أوحى إليه ربه بأن يفعل ذلك ، ولم يعد للمشركين حق في { أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله } . والعبارة لها معنيان؛ المعنى الأول هو الجلوس في هذه المساجد بحيث تكون عامرة بزوارها ، والمعنى الثاني هو المحافظة على بناية المسجد ونظافته وإصلاحه . وقد منع الله المشركين من كلا النوعين من العمارة . والكلام هنا عن المسجد الحرام؛ لقوله تعالى : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } [التوبة : 28] .

نقول : إنَّ المسجد الحرام هو مكان تتجه إليه كل اتجاهات الناس في كل بقاع الأرض حين يقيمون الصلاة لأن كل مكان يسجد فيه إنسان مسلم يسمى مسجدا ، وبتعدد الساجدين ، يعتبر المسجد الحرام مساجد ، أو لأن جهات السجود تتعدى في المسجد الحرام؛ فواحد يسجد شمال الكعبة ، وآخر جنوب الكعبة وثالث شرق الكعبة ، ورابع غرب الكعبة؛ هذا في الجهات الأصلية ، وهناك الجهات الفرعية؛ فهناك أناس يتجهون شمال شرق ، وأناس يتجهون جنوب

شرق ، وغيرهم يتجه جنوب غرب ، وتتعدد الجهات الفرعية في الاتجاه إلى الكعبة؛ إذن فكل جهة متجهة هي مسجد وهناك ممن لا يرون الكعبة في بقاع الأرض يتجهون إليها .

وحين تسمع قول الحق سبحانه وتعالى يقول :

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النار هُمْ خَالِدُونَ } [التوبة : 17] .

نلحظ أنَّ « كان » هنا جاءت منفية ومنها نفهم المعنى : ليس مقبولا في عرف العقل أو المنطق أو الدين أن يقرب الكفار المسجد ، ولا أن يرعى مشرك المسجد أو يصونه؛ لأن المسجد للعبادة ، والعبادة تقتضي معبودا هو الله سبحانه وتعالى ، والكفار يشركون بالله ، فمن المنطق – إذن – ألا يكون لهم دخل بالمساجد ، إذن فمنعهم من المسجد إقامة وعمارة وزيارة هو شيء منطقي بشهادتهم على أنفسهم بالكفر ، وهي سبب منعهم من الاقتراب من مساجد الله .

والشهادة إما أن تكون شهادة قول؛ وإما أن تكون شهادة حال ، أما شهادة القول فذلك لأنهم كانوا يقولون لليهودي : على أي دين أنت؟ فيرد بديانته ، وكذلك القول للنصراني ، وحين يسأل المشرك؛ فهو يقر بشركه ، هذه هي شهادة القول .

أما شهادة الحال فهي أنهم يسجدون للأصنام ويعبدونها من دون الله .

فكيف يكون الإنسان مشركا ثم لا نقول له : ليس لك علاقة بالمسجد؛ ارفع يدك عنه؟ وما أغنى الإسلام عن أن يبني له مشرك مسجدا أو يعمر كافر بيتا من بيوت الله وما أغنى الله أن يزوره في بيته من هو غير مؤمن به سبحانه . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

{ شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } [التوبة : 17] .

وهم قد نسوا الشهادة الأولى بالحق حينما أشهدهم الله سبحانه وتعالى على أنفسهم ، فالحق سبحانه هو القائل : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون } [الأعراف : 172–173] .

هم إذن قد أقروا لحظة الخلق الأولى بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك ، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا في بيت الله الحرام أصناما . وادعوا الكذب وقالوا :

{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى } [الزمر : 3] .

وهذا هو الإشراك بعينه ، وهذه هي شهادتهم على أنفسهم بالكفر .

{ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } [التوبة : 17] .

والمسجد –كما نعلم – هو المكان الذي نسجد فيه ، وكل بقعة في الأرض بالنسبة للمسلمين

تصلح للسجود وتعتبر مسجدا ، وهذا مما خص به الله تعالى أمة الإسلام ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فَلْيُصَل ، وأُحلَّتْ لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

فهذا الحديث يبين أن مما خص الله به الأمة المحمدية أن جعل لها كل بقاع الأرض صالحة لأداء الصلاة فيها ، كما جعل لها الأرض أيضا طهوراً ، ويكفي المسلم أن يتيمم من الأرض ويصلي عليها ، ولكنْ هناك فارق بين مكان يصلح لك أن تصلي فيه ، وأن تباشر نشاط حياتك ، وبين مكان مخصص للعبادة ، فالحق الذي تزرع فيه ، لك أن تصلي فيه وتزرع ، والمصنع لك أن تصلي فيه ، ولك أن تصنع ، وكذلك المدرسة لك أن تتعلم فيها ، ولك أن تصلي فيها ، وهذه كلها مساجد بالمعنى العام ، وهي أماكن سجود لله تعالى ، لكن كلمة « مسجد » إذا أطلقت انصرفت إلى الحيز المحدود من المكان الذي أخرج من نشاطات الحياة كلها ، وخُصّ بأن يكون للصلاة والسجود فقط ، فإذا حيزت مكاناً بخط أبيض من الجير ، أو حيزته بسلك وقلت : هذا مسجد ، فلا يزاول فيه نشاط إلاَّ الصلاة ، هذا هو المسجد الاصطلاحي الشرعي .

وكل بيت لله بنيته في أي مكان يسمى مسجدا ، وقبلة المساجد المنتشرة في بقاع الأرض هي المسجد الحرام؛ فهي أماكن حيزت للمسجدية ، أو للعبادة ، أو للصلاة وليست لغير ذلك من حركات الحياة ، ولكن تحييز المكان كان باختيار البشر . وقبلته المسجد الحرام وهو المسجد الجامع الأكبر باختيار الله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى هو القائل : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } [آل عمران : **96**] .

ولأن هذا البيت الحرام هو باختيار الله ، وموضوع للناس . فلنا أن نسأل : هل الناس هم الذين وضعوه؟ لا ، بل وضعه غير الناس ، لأن تعريف الناس هم آدم وذريته ، ولا بد إذن أنه موضوع قبل آدم ، وبمنطق القرآن الكريم وجد البيت من قبل آدم ، وإذا تعمقنا قليلا ، نجد أن هذا البيت الحرام هو { هُدًى لِّلْعَالَمِينَ } ومن العالمين الملائكة .

وهكذا نرى أن قول بعض القوم : إن إبراهيم هو الذي حدد مكان وقواعد البيت ، قول لا يثبت صدقه ، لأن البيت هو المكان لا المكين ، فالبيت ليس هو الحجر أو المبنى ، وهو ما نسميه الكعبة ، فالكعبة هي « المكين » أما البيت فهو المكان الذي أقيمت فيه الكعبة؛ لأنه إن جاء سيل وأزال الكعبة ، جعلها أرضاً مسطحة فأين نصلي؟ نصلي إلى اتجاه المكان ، فالسيل يُذْهِبُ المكين لكن المكان باق .

وعندما جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أثر البيت ضائعا ، وأمره ربنا أن يرفع البيت ، ولم

يقل له : حدد المكان ، بل أمره أن يبني البعد الثالث؛ لأن كل حيز له بعدان؛ الطول والعرض ، وإن كان دائرة فله المحيط ، وإن كان مثلثا يكون من ثلاثة أضلاع . لكن الارتفاع يدخل بالشيء إلى الحجم ، وقد رفع الخليل إبراهيم القواعد من البيت . بعد أن حدد المولى سبحانه وتعالى له المكان وأظهره له : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت } [البقرة : **127**] .

فكأن البيت مخصص قبل الرفع ، بدليل أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن مجيء هاجر وابنها إسماعيل الرضيع ، وإسكان إبراهيم عليه السلام لهما في هذا المكان قال : { رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم } [إبراهيم : **37**] .

وقد رفع إبراهيم عليه السلام القواعد وساعده ابنه إسماعيل بعد أن كبر واشتد عوده ، ولكن ساعة أن أسكنه وأمه بجانب البيت كان طفلا صغيرا . إذن فالبيتية والمكانية موجودة ، ولكن إبراهيم أقام المكين وهو البعد الثالث أي الارتفاع .

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضا : { وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت } [الحج : **26**] .

أي أظهرنا وحددنا المكان ، وهو الذي سيبني فيه سيدنا إبراهيم بالأحجار ليبرز البيت ، فالبيت – إذن – كان موجوداً من قبل .

ونلحظ أن المساجد المنتشرة في الأرض لا بد أن يكون لها متجه واحد ، لإله واحد ، وحدد الحق هذا المكان بالقبلة إلى الكعبة . وبعض المتحللين يحاول أن يقلب الفهم في قول الحق : { فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله } [البقرة : **115**] .

يقولون : إننا إن اتجهنا إلى أي مكان سنجد وجه الله تعالى ، ونقول : الصحيح أن وجه الله عز وجل في كل الوجود ، ولكن إياك أن تفهم أن تحديد الله للكعبة لتكون متجهنا ، أنها هي وجه الله ، لا ، لكننا مأمورون بالاتجاه لها في الصلاة . وأنت إذا نظرت أيضا إلى المسلمين في كل الدنيا سوف تجد أن كل مسلم في الأرض يتجه للكعبة في صلاته ، وما دامت الكعبة مركزا ، وكلنا نتجه إليه؛ فسوف تجد من يتجه وهو شرقه ، وواحد يتجه وهو غربه ، وواحد يتجه وهو شماله ، وواحد يتجه وهو جنوبه .

إذن { فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله } ، وما دمنا قد عرفنا أن المساجد مميزة ومخصصة للعبادة؛ فلا يجوز أن يأتي إليها مشرك ، ولا نقبل أن يساهم في إصلاحها ولا نظافتها مشرك؛ لأن الله غني عن ذلك ، وعلينا أيضا ألا نناقش أمورنا الدنيوية في مسجد ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتي على الناس زمان يتحلقون في مساجدهم وليس همتهم إلا الدنيا ، ليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم »

كأنه لم يكفهم حب الدنيا خارج المسجد ويطمعون في الدقائق التي يخصصونها للصلاة ، فيجرجرون الدنيا معهم إلى المسجد ، وأقول لهم : لماذا لا تتركون مصالح الدنيا في تلك الدقائق؟

إن الواحد منكم إنما يحيا في سائر الدنيا في نعمة الله . إذن فليجعل نصيبا من وقته لله صاحب النعمة .

إذن لا بد أن نعرف أننا ما دمنا قد خصصنا مكانا لعبادة الله ، فلا بد أن نصحب هذا التخصيص في المكانية إلى التخصيص في المهمة التي يدخل الإنسان من أجلها للمسجد ، فيتجه إلى الله؛ لأن المسجد خاص لعبادة الله؛ ومع أن الأرض كلها تصلح للصلاة ، لكنك حين تأتي إلى المسجد اصحب معك أخلاق التعبد . ويجب أن يكون الانفعال ، والتفاعل ، والحركة والنشاط كله في الله ، ولذلك فأفضل ما تفعله ساعة تدخل المسجد ، هو أن تنوي الاعتكاف فتنزع نفسك ممن ينوي أن يتكلم معك في أحوال الدنيا .

لقد ورد الأثر النهي عن الحديث في المساجد لأنه يحبط العمل ويمحو الحسنات ، وأنت قد تصنع الحسنات كثيرا خارج المسجد ، ولكن عليك ألا تدخل المسجد إلا بأدب المسجد؛ فالحضور بين يدي الله تعالى في مسجده وفي بيته له آدابه وسلوكه ، فيجب عليك ألاَّ تتخطى الرقاب وهذه لا تحتاج إلى تنظيم ، بمعنى ألا تجعل الأماكن في الأمام خالية ، وفي الخلف مزدحمة؛ حتى يستطيع أن يجلس كل من يحب أن يصلي دون أن يتخطى الرقاب ، ويكون الجلوس في المساجد ، الأول فالأول ، وهكذا يتحقق الأدب الإيماني في المساجد .

ونعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بالبوار على كل صفقة تعقد في المسجد . ودعا على كل من يريد شيئاً دنيوياً من السجد ألا يوفقه الله فيه ، ودعا على كل من ينشد ضالة في المسجد ألا يرد الله عليه ضالته ، حيث قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالته فقولوا : لا ردها الله عليك » وفي حديث آخر له رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سمع رجلا ينشد ضالته في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا » .

فلنجعل الجلوس في المسجد – إذن – خاصا بالمنعم وهو الله ، أما في خارج المسجد وفي سائر الأوقات ، فنحن نعيش مع النعمة التي أنعم الله بها علينا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ } [آل عمران : 96-97] .

وما دام بيت الله تعالى { هُدًى لِّلْعَالَمِينَ } أي أنه بيت لكل الناس وليس لمن يجلس فيه فقط ، فكأن إشراقات الحق وتجلياته ، أعظم ما تكون في بيته أولا ، ثم تشيع الإشراقات والتجليات في جميع بيوت الله ، وعلى عمارها والمتعبدين فيها ، وبيوت الله هي الأماكن التي تتنزل فيها الرحمات من الحق سبحانه وتعالى ، بدليل أنه سبحانه وتعالى حين تكلم عن نوره في سورة النور

قال : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه } [النور : 36] .
أي أن الذين يرون هذا النور ويتنزل عليهم هم عمار المساجد ، وسورة النور جاء فيها – أيضاً – قول الله تعالى : { الله نُورُ السموات والأرض } [النور : 35] .
أي : أن نوره يملأ السماوات والأرض . حين يضرب الحق سبحانه وتعالى مثلا للمعنويات ليتعرف إليها الناس فهو يقدم لها بأمر مادي يتفق عليه الكل ، ليقرب الأمر المعنوي أو الغيبي إلى أذهان الناس؛ لأن المعنويات والغيبيات يصعب إدراكها على العباد . فلذلك فهو سبحانه وتعالى يقرب هذا الأمر ويبينه بأن يضرب لنا مثلا من الأمور المادية؛ حتى تقترب الصورة من الأذهان؛ لأننا جميعا نرى الماديات . وبهذا يلحق سبحانه الأمر المعنوي وهو غير معلوم لنا بالأمر المادي الذي نعرفه؛ فتقترب الصورة من أذهاننا وتتضح لنا ، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يلحق المجهول بالنسبة للناس بالمعلوم عندهم .
وإذا كنا في كون الله تعالى نجد النهار إنما يكون نهارا بإشراق الشمس الواحدة التي تنير نصف الكرة الأرضية ، ثم تنير النصف الثاني من بعد غروبها عن النصف الأول ، فيتميز النهار بالضوء ، ويتميز الليل بالظلمة ، ومعنى النور في الحسيات أنه شعاع يجعل الإنسان يرى ما حوله؛ حتى يستطيع أن يتحرك في الحياة دون أن يصطدم بالأشياء المحيطة به .

ولكن إن كانت الدنيا ظلاما فسيصطدم الإنسان بما حوله ، وأمر من اثنين : إما أن يكون الإنسان أقوى من الشيء الذي اصطدم به فيحطمه ، وإما أن يكون هذا الشيء أقوى من الإنسان فيصاب الإنسان إصابة تتناسب مع قوة الشيء الذي اصطدم به . والذي يحميك من أن تحطم أو تتحطم هو النور الذي تسير على هداه .
إذن فساعة أن يأتي النور ، تتضح أمامك معالم الدنيا ، وتكون خطاك على بينة من الأمر؛ فلا ترتطم بما هو أضعف منك فتحطمه ، ولا يرتطم بك ما هو أقوى منك فيحطمك ، هذا هو النور الحسي ، وأكبر ما فيه نور الشمس الذي يستفيد منه كل الخلق ، المؤمن والعاصي ، والكافر والمشرك ، والمسخر من حيوان أو نبات أو جماد ، وهذا النور نعمة عامة خلقها الله سبحانه وتعالى بقانون الربوبية الذي يعطي النعم لجميع خلقه في الدنيا سواء من آمنوا أم لم يؤمنوا .
فإذا غابت الشمس نجد كل واحد منا يستعين بنور يعطيه الضوء في حيز محدود وعلى قدر إمكاناته؛ فواحد يوقد شمعة ، وواحد يأتي بمصباح « جاز » صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتي بمصبح « نيون » ، وواحد يأتي بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكان بالنور ، كل على قدر إمكاناته ، فإذا طلعت شمس الله فهل يبقى أحد على مصباحه مضاء؟ إن الجميع يطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعت تنير للجميع ، ذلك هو النور الحسي .
والفرق بين نور بقدرات الإنسان ونور من خلق الله يتمثل في أن النور الذي من خلق الله يطفىء

المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع .
وفي المعنويات نور أيضا فالنور المعنوي يهديك إلى القيم حتى لا ترتطم بالمعنويات السافلة التي قد تقابلك في مسيرة الحياة ، إذن فكل ما يهدي إلى طريق الله يسمى نورا . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : { قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ } [المائدة : 15] .
إنه نور المنهج الذي ينير لنا المعنويات ، وينير لنا القيم؛ فلا يحقد أحدنا على الآخر ، ولا يحسد أحدنا الآخر ، ولا يرتشي أحد . ويرعى كل منا حقوق غيره .
وإذا كانت التجربة قد أثبتت أن نورا من خلق الله وهو الشمس ، إذا سطعت فالجميع يطفئون مصابيحهم . فكذلك إذا ما جاء نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أن تطفأ بقية الأنوار من مقترحات أفكار البشر ، فلا يأتي أحد بفكر رأسمالي ، أو يأتي آخر بفكر شيوعي ، أو ثالث بفكر وجودي ، لأن كل هذه القيم تمثل أهواء متنوعة من البشر ، وتعمل لحساب أصحابها ، أما منهج الله تعالى فهو لصالح صنعة الله وهم البشر جميعا ، فلا يحاول أحد أن يضع قيما للحياة تخالف منهج الله؛ لأنَّ الله قد بيَّنَ لنا منهج العبادة ومنهج القيم ، لذلك لا يصح أن يأتي إنسان بشرع يخالف تعاليم الله .

ونقول لأصحاب الهوى في المذاهب والعقائد المخالفة لمنهج الله جميعا : لماذا لا تقيسون الأمور المادية على الأمور المعنوية؟ لماذا إذا سطعت شمس الله تطفئون مصابيحكم ، ولا يحاول أحد أن يوقد مصباحا ليهديه في نور الشمس؟ . إذن . فما دام سبحانه وتعالى قد أنزل نور الهدى منه فلا بد أن نطفىء جميعا مصابيح الأفكار القائمة على الهوى ، ونأخذ النور كله من منهج الله القويم والصالح لكل زمان ومكان ، كما نأخذ النور في النهار من شمس الله .
وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطانا التجربة الحسية التي لا يختلف فيها اثنان ، إلا أننا رفضنا أن نطبق هذا على منهج الله؛ وهو النور الذي أهداه لنا سبحانه وتعالى ليبين لنا الطريق ، وأبى بعضنا إلا أن يأخذ من ظلمات العقل البشري المحدود ما يعطيه طريقاً معوجاً في الحياة ، فامتلأت الدنيا بالشقاء والفساد ، ونسينا أن السبب في ذلك أننا تركنا نور منهج الله عز وجل الذي يعطينا الحياة الآمنة الطيبة ، ووضعنا لأنفسنا مناهج سببت التعاسة والفساد في الكون .
ويقرب لنا الحق سبحانه وتعالى الأمر في مثل مادي عن معنى نور الله فيقول سبحانه وتعالى : { الله نُورُ السموات والأرض } [النور : 35] .
أي : أن نوره سبحانه وتعالى يملأ السموات والأرض ، وأنه يحيط بكل جوانب الحياة على الأرض فلا يترك جانبا منها مظلما ، وقال جل جلاله : { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ } [النور : 35] .
والمشكاة هي « الطاقة المسدودة بالحائط » ، وهي عبارة عن مكعب مفرغ في البناء داخل

حجرة وكان أهل الريف يضعون فيها المصابيح لتنير ، واستبدله أهل الريف والبادية حاليا ب « رف » صغير يوضع عليه المصباح ، ودائرة صغيرة يخرج منها النور ، ولأن ضوء المصباح مركز في هذه الفتحة ، فهي تمتلىء بالنور الذي بدوره يشع في الحجرة . وحيز المشكاة بالنسبة للحجرة التي توجد فيها قليل وصغير ، والنور الذي يخرج منها ، هو نور مركز يملأ الدائرة التي يخرج منها فلا يوجد فيها « ملليمتر » واحد مظلم ، بل كلها نور ، وإلا ما استطاع ضوءها أن ينير الحجرة . لأن هذا النور قبل أن يضيء الحجرة؛ لا بد أن يكون مركزا بأعلى درجة من التركيز في الدائرة التي يخرج منها .

إذن فنور الله سبحانه وتعالى في السموات والأرض نور شامل عام لا يدع مكاناً مظلماً . ولا مكاناً يختفي فيه شيء بسبب الظلام ، تماما كمثل تلك الدائرة الصغيرة التي يشع منها نور المصباح فلا تجد فيها ملليمترا واحدا من الظلام ، وقد سمي ما يعطي النور مصباحا؛ لأنه يعطينا بشائر الصبح . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ } [النور : 35] .

ونحن إذا أردنا أن نكثف النور فإننا نحيطه بالزجاج ، ليحجب عنه الهواء الذي قد يؤثر على النور ويمنع تركيزه ، والزجاجة التي تحيط بالمشكاة عاكسة للنور ، وهذا كله يعطينا معنى للتكثيف والتركيز داخل المشكاة . ثم ينتقل المثل من بعد ذلك إلى الحجرة ، فيقول الحق : { الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ } [النور : 35] .

أي : أن الزجاجة ليست عادية ، ولكنها مضيئة بنفسها لتزيد النور نوراً . ومن أي شيء يوقد هذا المصباح؟ يجيب الحق سبحانه وتعالى : { مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ } [النور : 35] .

أي : أن الشجرة المباركة ليست زيتونة فقط؛ ولكنها { لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ } أي أن النور يخرج منها غير متأثر بمزاج حار أو بارد بل يخرج منها النور الصافي في مزاج معتدل ، وقد أطلقت كلمة « النور الصافي » على آخر مرحلة من مراحل الترقي في الضوء . ومراحل الترقي بدأت من مشكاة ضيقة فيها مصباح غير عادي ، والمصباح في زجاجة غير عادية بل تكثف الضوء ، فتظهر وكأنها كوكب دري مضيء بذاته ، والزيت الذي يضيء يخرج من زيتونة مباركة ، بأعلى درجات النقاء . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } [النور : 35] .

أي : أن كل شيء مضيء بذاته ، ويضيف من قوة الضوء للنور ، فالدائرة الصغيرة مضيئة؛ يزيد نورها زجاجة تكثف النور ، والزجاجة ذاتها مضيئة فتعطي إضافة ، والزيت مبارك ليست فيه أية شوائب فيعطي ضوءا ساطعا ، وفوق ذلك كله تجد الزيت مضيئاً بذاته ، دون أن تمسه النار ،

فكأنه نور على نور ، فلا يصبح في هذه الدائرة الصغيرة أي نقطة مظلمة ، كذلك تنوير الله لكونه المتسع فلا توجد فيه نقطة واحدة مظلمة ، بل كله مغمور بنور الله ، وإياك أن تظن أن هذا القول : { الله نُورُ } هو تشبيه لله ، بل هو تشبيه لتنوير الله سبحانه وتعالى لكونه الذي يشمل السموات والأرض وما بينهما .

وهناك قصة مشهورة للشاعر أبي تمام حين كان يمتدح أحد الخلفاء فقال :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

وهكذا جاء الشاعر بأولئك الذين اشتهروا بالإقدام والشجاعة كعمرو ، وبالسماحة والكرم كحاتم ، وبالحلم كأحنف بن قيس ، وبالذكاء كإياس ، وقال الشاعر ممتدحا الخليفة : إنك قد جمعت كل هذه الصفات ، التي لم تجمع في واحد من خلق الله من قبل .

ولكن أحد المحيطين بالخليفة قال : كيف تمدح الأمير بصفات موجودة في رعاياه ، والأمير فوق كل ما وصفت ، فهو أشجع من عمرو ، وأكرم من حاتم ، وأحلم من أحنف ، وأذكى من إياس .

وأعطى الله الشاعر بصيرة ليرد على ارتجال ويقول :

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

أي : أن الشاعر قال مثلا فقط وليس تحديدا .

والحق سبحانه وتعالى قال : { يَكَادُ زَيْتُهَا يضيء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ } [النور : 35] .

وقال سبحانه وتعالى : { نُّورٌ على نُورٍ } [النور : 35] .

أي أن كل شيء مضيء بذاته ليضيف نورا على النور الموجودة ، فكما أن الماديات تحتاج إلى نور يضيء لك الطريق ، كذلك تحتاج المعنويات إلى نور يضيء لك البصيرة والسلوك ، فخذ منهج الله تعالى لأنه النور الساطع الذي لا يمكن أن يضيء مثله ولا معه نور آخر ، وإذا أردنا أن نقرب الصورة إلى الأذهان ، فالله سبحانه وتعالى قال للقوم الذين يستمعون إلى دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم : { يأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .

والذين يخاطبهم الله سبحانه وتعالى بهذا الكلام أحياء ، فكيف يقول لهم : { لِمَا يُحْيِيكُمْ } ؟ .

نقول : إنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نفرق بين حياة وحياة . فالحياة المادية المتمثلة في الحس والحركة والجري ، هي الحياة الدنيا بأجلها المحدود ، وإمكاناتها البسيطة ، ولأنها حياة أغيار؛ لا تبقى فيها النعمة ولا تدوم لأحد ، بل كل إنسان فيها إما أن تفارقه النعمة بالزوال ، وإما أن يفارقها هو بالموت ، وهذه ليست هي الحياة التي يريد الله من الإنسان أن يعمل لها وحدها . أو

يسعى ليتمسك بها . فبسببها يفعل كل ما يستطيع لكي يأخذ منها حلالا أو حراما ، ولكن الحياة التي يطالب الله سبحانه وتعالى عباده أن يعملوا لها هي الحياة المستقيمة الحركة على منهج الله وتقود إلى حياة آخرة فيها نعيم لا يفارقك ولا تفارقه ، وفيها أبدية تبقى ولا تنتهي ، وفيها نعم عظيمة تأتي بقدرة الله تعالى ، وليس بقدرة البشر المحدودة .

إذن فقوله سبحانه وتعالى : { استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] .

معناه أن الحياة حياتان؛ حياة تحرك هذه المادة؛ فتتحرك وتجري وتروح وتجيء ، وهي تنصلح بالمنهج الذي يقود إلى حياة أخرى فوق الحياة الدنيا .

إذن فالحياة الدنيا بما فيها من سعي وتعب وجهد وفناء ليست هي الغاية التي يجب أن يسعى إليها الإنسان ، بل على الإنسان أن يسعى إلى الحياة الأرقى . وسبحانه لا يريدنا أن نأخذ المرحلة الأولى من الحياة التي تحرك المادة فتتحرك وتجري ، بل يريد لنا حياة تقودنا بالقيم ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد قال عن الحياة التي تحرك المادة : { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [ص : 72] .

فهذه حياة المرحلة الأولى التي لا يريدنا الله سبحانه وتعالى أن نأخذها كغاية ، ولكنه يريدنا أن نأخذها وسيلة لنصل بها إلى الحياة الراقية في كل صورها الخالدة بكل معانيها؛ المنعَّمة في كل درجاتها . وكما سمَّى الحق سبحانه وتعالى الروح التي تنفخ في المادة فتعطيها المرحلة الأولى من الحياة روحاً ، فإنه كذلك سمَّى المنهج الذي يعطينا المرحلة الثانية من الحياة روحا ، حيث يقول : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }

[الشورى : 52] .

هذه هي روح المنهج التي تعطينا المرحلة الثانية من الحياة . فإن أخذنا نور الهداية من الله سبحانه وتعالى فهو ينير لنا طريقنا في القيم والمعنويات ، تماما كما تنير لنا شمس الله طريقنا في الحياة المادية . إذن فالحق لم يتركك للنور المادي ليحافظ على ماديتكم من أن تحطموا أو تتحطموا ، وإنما أرسل إليكم نورا لتهتدوا به في مجال القيم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : { نُّورٌ على نُورٍ } [النور : 35] .

ولم يقل سبحانه : « نور مع نور »؛ لأن الإنسان لا يُكَلَّفُ من الله إلا بعد أن يصل إلى سن البلوغ ، فالنور المادي يراه ويستفيد به قبل التكليف ، ثم يأتي النور المعنوي فيتلقاه من الكتاب الذي أنزل على رسول الله عندما يبلغ سن التكليف فيتعرف على منهج الله . { نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ } [النور : 35] .

فلا يحجب الحق سبحانه وتعالى نور الشمس عن أحد؛ لأنه نور لكل الخلق وكذلك أنزل سبحانه وتعالى نور الهداية ليختاره كل من التمس الطريق إلى الهداية ، وهذا النور المعنوي يختلف عن النور المادي ، فالحق لم يحرم – إذن – أحدا من النور المادي ، وشاء أن يجعل النور المعنوي ضمن اختيارات الإنسان؛ إن شاء آمن واهتدى ، وإن شاء ضل . وكل ذلك مجرد مثل من الأمثال التي يضربها الله تعالى للناس؛ قال عز وجل : { وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيِمٌ } [النور : 35] .

وجاءت الآية التي بعدها لتوضح لنا أين ينزل نور الله على عباده؛ فقال سبحانه وتعالى : { فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه } [النور : 36] .

وعندما تسمع جارا ومجرورا لا بد أن تبحث عن المتعلق بهما ، فما الذي في بيوت الله؟ إنك حين تبحث عن إجابة لن تجدها إلا في قوله تعالى : { نُّورٌ على نُورٍ } [النور : 35] .

فكأن المساجد وهي بيوت الله هي أماكن تلقى النور المعنوي من عند الله سبحانه وتعالى ، وهو النور الذي يعطينا ارتقاء الروح؛ لنصل إلى المرحلة الثانية من الحياة ، تماما كما يحدث في الدنيا عندما تصاب آلة بعطب أو لا تؤدي مهمتها على الوجه الأكمل ، فالذي يصلحها ويصونها لتؤدي مهمتها المطلوبة منها هو المهندس الذي صنعها . والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، فلا أحد يستطيع أن يدعي مهما اجترأ على الله سبحانه وتعالى أنه خلق نفسه أو خلق الناس . وهذه دعوى لم يدَّعِهَا أحد قط .

وما دام الله عز وجل هو الذي خلق ، إذن فهو سبحانه وتعالى الذي يضع المنهج الذي يصون حياة الناس ويجعلها تؤدي مهمتها كاملة . وما دام ربنا هو الذي يخلق ويرزق ، ويحيي ويميت ، فكيف يأتي إنسان من البشر ليفتئت على الحق سبحانه وتعالى ويقول : إنه وضع منهجا لحياة البشر ، ويعلم الإنسان ما يفسد حياته لا ما يصلحها .

ونقول لكل من يفعل ذلك : لماذا تلجأ إلى من يصنع التليفزيون ليصلح لك الجهاز إن أصابه عطل ، ولماذا لا تلجأ إلى صانعك الذي يصلح لك نفسك؟

إن تردد المسلم على بيت الله ليكون في حضرة ربه دائما هو إصلاح لما في النفس ، فحين يقف المؤمن بين يدي الله ويصلي ، يمتلىء بالرضا والتوازن النفسي؛ لأن الواحد منا لا يعرف ما الذي يصيب أي ملكة من ملكاته بالارتباك .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر يقوم إلى الصلاة ، وما معنى حز به؟ . أي : إن جاءه شيء أو أمر ، وكان فوق طاقته . وفوق أسبابه ، ولا يستطيع أن يفعل شيئا تجاهه ، وتضيق عليه الأمور . فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأسوة حسنة ، فإن قابل أمرا مكروها وشاقا يقول : إن لي ربا أذهب إلى بيته وأصلي فأقف في حضرته ، فتحل

أصعب وأعقد المشكلات . إذن فساعة يأتينا أمر شديد ، لا بد أن نتجه إلى الله عز وجل . وأفضل مكان نلتجىء فيه إلى الله تعالى هو بيته . فقدكان صلى الله عليه وسلم إذا كانت ليلة ريح شديدة كان مفزعه إلى المسجد حتى تسكن الريح ، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر كان مفزعه إلى الصلاة حتى تنجلي

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول : ماذا سيفعل الله لي أو لذلك الذي يعاني من شيء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو؟ ونقول : هذا الظاهر من الأمر ، ولكنك لا تعرف ماذا حدث في داخله ، أنت تتحدث عن العالم المادي الذي فيه العلاجات المادية ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعالج داخل النفس دون أن تحس انت لن المساجد هي مطالع أنوار الله تعالى وهي التي يتنزل فيها النور على النور الذي يُصلح الحياة الدنيا ويرتقي بها؛ لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن ، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن .

إذن فالمساجد لها مهمة العيادة للطبيب الخالق الذي خلق هذه النفس ويعرف كيف يداويها ، وليس للطبيب الدارس في كلية الطب الذي يعرف أشياء وتغيب عنه أشياء . ونحن في المساجد إنما نعيش في حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التي تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم ، على أننا إذا دخلنا المسجد فلنعرف أن لهذا المكان قدسيته ، ولا بد أن يحرص الإنسان على نظافته ومظهره ، ولنرتد أحسن ثيابنا؛ لأن الله لا ينظر إلى نظافتنا أو أناقتنا ، ولكن ليحرص كل منا ألا يتأفف منه من يصلي بجانبه؛ فمن يعمل في مصنع ويحضر إلى المسجد إلا بعد أن يغتسل؛ إن ملابسه شرف له في عمله ، ولكن عليه أن يغيرها حين يذهب إلى المسجد ، ومن يعمل في مكتب قد يكون الجو حارا أو امتلأ جسده بالعرق ، وملابسه التي يوجد بها في وظيفته هي شرف له في عمله ، ولكن عليه أن يغتسل ، وأن تكون رائحته طيبة حين يدخل المسجد .

ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكل ثوماً أو بصلاً أن يأتي المسجد حتى لا يتأذى أحد بالرائحة التي تصدر من فمه . وقال صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف الذي يرويه جابر رضي الله عنه : « من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو فليعتزل مسجدنا » .

وفي رواية لمسلم : « من أكل البصل والثوم والكرات فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » ولذلك على المسلم أن يحرص أن تكون الإقامة في المسجد طيبة ، لتكون الأفئدة منشرحة . ويجب أن نراعي جلال المسجد؛ لأننا نعرف أن الرحمات تتنزل على الصف الأول ثم الذي يليه ، فلا يحاول واحد منا أن يحجز مكاناً بالصف الأول بأن يضع فيه سجادة خاصة أو كوفية ، ثم يأتي أحيانا بعد إقامة الصلاة ويحاول اقتحام الصفوف ليصل إلى الصف الأول .

وإياك أن تعتقد أن الصف الأول محجوز لشخص معين ولو أتى متأخرا ، فكل إنسان يأتي للمسجد عليه أن يأخذ دوره ، ويقعد في المكان الخالي . وإياك أن تعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يعرف الذين يتكوَّن منهم الصف الأول ، إنهم هؤلاء الذين جاءوا للمسجد أولا . أما أن تحضر إلى المسجد وتحجز مكاناً في الصف الأول لصديق أو قريب بحيث إذا جاء إنسان آخر ليصلي في هذا المكان قلت له : إن المكان محجوز . نقول لك : أنت حر أن تفعل ذلك في الحجز للأماكن في مواسم الحج والعمرة . وعلى من يجد مكاناً قد حُجِزَ بسجادة أو أي شيء آخر أن يزيحها بعيدا ويصلي .

وأنت في بيت الله تكون في ضيافة الله . وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد في بيتك على غير دعوة فأنت تكرمه ، فإذا كان المجيء على موعد فكرمك يكون كبيرا . فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟ إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوي زيارته في بيته ، فأنت في صلاة منذ أن تبدأ في الوضوء في بيتك استعداداً للصلاة في المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون في حضرته . وسبحانه وتعالى حين يدعونا إلى بيته بالأذان ، فلك أن تعلم أنك إن خالفت هذه الدعوة تعاقب ، ولكن ليس معنى هذا أن الله لم ييسر لك بيته لتزوره في أي وقت . فهذه الدعوة بالأذان للصلاة تمثل الحرص من الله سبحانه وتعالى على أن يلقاك ليعطيك من فيوضاته ما تستعين به على مكدرات الحياة .

ولكن إن أحببت أن تجلس في المسجد قبل الصلاة أو بعدها فافعل . تعالَ في أي وقت وصلِّ كما تشاء ، فإذا قلت : « الله أكبر » تكون في حضرة الله . وإن لم تستطع فصلواتك الخمس في اليوم الواحد هي القسط الضروري لصيانة نفسك المؤمنة؛ لأنك تقابل ربك أثناء الصلاة وتعلن الولاء له .

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة ، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى منهجه الذي يصلح بالك ، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب ، بل تأخذ أنت بالأسباب . وحين تسمع « الله أكبر » ينادي بها المؤذن لصلاة الظهر – مثلا – فعليك أن تترك أسباب الدنيا وتذهب لتقف بين يدي الله عز وجل ، ثم تخرج من الصلاة إلى الأخذ بالأسباب إلى أن تسمع أذان العصر ، ثم أذان المغرب ، ثم أذان العشاء ، وكل هذا تذكير لك بالله الخالق العظيم حتى لا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد خالقك سبحانه . وأطول فترة بين العشاء والفجر نكون فيها نائمين فلا يأخذنا متاع الدنيا .

إذن فالله سبحانه وتعالى يريد من الولاء دائما . فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة ، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له ، فإنه سبحانه يزيدك عزة ويكون معك دائما ، ويقيك ذل الدنيا .

وقلنا قديما : إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيما من العظماء فهو يطلب المقابلة ، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل ، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان وفترة الزيارة . فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت .

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا ، فبيته مفتوح دائما حين يدعوك للصلوات الخمس ، فهذا أمر ضروري ، ولكن بين الصلوات الخمس إن إردت لقاء الله فسبحانه يلقاك في أي وقت وتدعوه بما تشاء ، وتطيل في حضرته كما تريد ، ولا يقول لك أحد : إن الزيارة قد انتهت . وأذكركم دائما بقول الشاعر :

حَسْبُ نفسِي عِزًّا بأِنّي عَبْدٌ ... يَحْتفِي بِي بلا مَواعِيد ربُّ

هُوَ في قُدْسهِ الأعزّ ولكِنْ ... أنَا ألقَى متَى وأينَ أُحبُّ

ونعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

{ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله } [التوبة : 17] .

لأن المساجد مخصصة لعباده الله تعالى ، فمن غير المنطقي أن يبنيها أو يجلس فيها مشرك أو كافر ، وقوله تعالى : « ما كان » أي ما ينبغي ، وقوله تعالى : { شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ } أي هم الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر؛ فشهادتهم بالحال ، وبالمقال . كما نشهد على أنفسنا بالإيمان حين نلبي في الحج والعمرة ونقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، أي أننا ننزه الله تعالى عن الشرك .

وقوله سبحانه وتعالى : { أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ } ، وُ { أُوْلَئِكَ } إشارة إلى المشركين الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر ، وحكم الله ألا يعمروا مساجد الله ، و { حَبِطَتْ } أي نزلت من مستوى عال إلى مستواها الحقيقي دون مستواها الشكلي ، فتجد العمل وكأنه منفوخ كالبالون الضخم ، وهو في حقيقة مجرد فقاعة ضخمة ما تلبث أن تنكمش أو تسقط ، فهي أعمال لا قيمة لها ، . وليس لها حصيلة؛ لأنها أ؛مال باطلة . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياوة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } [الكهف : 103-104] .

وتجد الواحد من هؤلاء يظل يعمل ويعمل ، ويظن أنه سوف يجني خيراً كثيراً من هذا العمل ، وقد يكون العمل مفيداً لغيره من الناس . ولكنه افتقد النية ، ففسد نتيجة لذلك . والقرآن الكريم يعرض لحبوط الأعمال في آيات كثيرة والمثال هو قول الحق تبارك وتعالى : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ } [النور : 39] .

والسراب هو ما يخيل إليك بلمعانه أنه ماء في الصحراء . وعندما تذهب إليه لا تجد شيئا .

والذي لا يحس بالظمأ قد لا يلتفت إلى ذلك . ولكن الظمآن تتعلق نفسه بالماء ، فيجيل بصره في كل مكان يبحث عنه ، فإذا رأى أي لمعان حسبه ماء ، وعندما يجيء إليه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر يقتصر على ذلك ، بل هو يجد الله عنده ليوفيه الحساب . ومثل هذا الانسان لم يضع الله في باله يوماً من الأيام ، وليس لمثل هذا الإنسان عند الله تكريم أو ثواب . لأن الإنسان يطلب أجره ممن عمل له ، وهو لم يعمل عمله وفي باله الله .

وأنت إذا صنعت معروفاً تقصد به وجه الله عز وجل جزاك الله عنه خيرا ، ولكن إن عملت معروفا لتحقق به مصلحة دنيوية خاصة بك أو تأخذ به شهرة فلا جزاء لك عند الله ، ولا بد أن يصنع الإنسان المؤمن كل عمل وفي باله الله خالقه والمتفضل عليه بالنعم ، فإن أطعمت فقيرا فلتطعمه لوجه الله ، وعليك ألا تفعل المروءة من أجل أن يقال عنك : إنك صاحب مرءة . ومن يفعلون الخير عليهم أن يحرصوا على أن يكون الله عز وجل في بالهم ، لا أن ينالوا شهرة من هذا الخير ، وألا يأتي منهم خبر هذا الخير لا بمقال ولا بحال .

وعلى سبيل المثال تلك اللافتات التي توضع على المساجد بأسماء من قاموا بتأسيسها . فمن بُنِي من أجله المسجد وهو الله عليم بكل شيء ، ويعلم اسم من أقام البناء ، وعليك أن تسميه بأي اسم لا يمت لك بصلة ، حتى لا تدخل في دائرة « عملت ليقال وقد قيل » . وحتى المقاتل الذي يحارب بين صفوف المؤمنين عليه أن يعقد النية لله ، لا أن يقاتل من أجل أن يقال إنه شجاع ، لأنه إن فعل ، حبط عمله وكان من الخاسرين لأن عمله قد شابه الرياء والسمعة .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء المرائين في حديثه الشريف الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام : « أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة : رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرىء ، فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتى به ، فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : فما عملت فيها؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكن ليقال؛ إنه جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه فألقي في النار » .

وعلى ذلك فالإنسان إن لم يضع الله في باله وهو يعمل فسوف يجد الله يحاسبه على أساس أن عمله غير مقبول .

ويقول الحق سبحانه وتعالى في آية ثانية : { مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ

الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ } [إبراهيم : 18] .
ولك أن تتصور ماذا تفعل العاصفة في الرماد؛ إنها لا تبقي منه شيئاً . والمشرك الذي كان يدخل المسجد ويسقي الناس من عصير العنب غير المخمر ، ويقوم بعمارة المسجد الحرام قبل تحريم الله لدخول أمثاله إلى هذا المكان ، هذا المشرك لم يكن ليأخذ ثواباً؛ لأنه ارتكب خيانة عظمى بأن أشرك بالله ، بينما يأخذ المؤمن الثواب لأنه يدخل المسجد ويعمره وهو مؤمن بالله ولا يشرك به شيئاً .
ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك :
{ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النار هُمْ خَالِدُونَ } [التوبة : 17] .
لأنهم عملوا لغير الله فلقوا الله بلا عمل . ويقول سبحانه وتعالى بعد ذلك : { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَأَقَامَ الصلاوة وآتى الزكاوة . . . }

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)

الإيمان : هو إيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وقمة الإيمان شهادة أن « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » . وكانت هناك حساسية عند أهل قريش من مسألة الرسول هذه ، وأنه محمد بن عبد الله ، وبعضهم قد قال : القرآن جميل ورائع فلماذا جاء على لسان محمد؟ وكان اعتراض كفار قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القول الذي حكاه القرآن عنهم : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .
إذن فالمشكلة عندهم لم تكن في القرآن ذاته ، بل كانت في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ويرد الحق سبحانه وتعالى بقوله : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياوة الدنيا } [الزخرف : 32] .
أي أن رحمة الله تعالى خاصة به ، لا يقسمها إلا هو بمشيئته ، يقسمها كيف يشاء كما قسم بينهم معيشتهم وأعطاهم الرزق المادي ، وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم في الأدنى ، فكيف يريدون هم أن يتصرفوا في الأعلى؟ لقد قالوا ما جاء في القرآن على ألسنتهم : { اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32] .
وكان المنطق الصواب أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولكنهم بغبائهم طلبوا الموت بدلاً من الهداية . فقد كانت عصبيتهم – إذن – ضد شخص الرسول صلى

الله عليه وسلم .
وكان على من يعلن إيمانه بالله منهم أن يشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله .
والحق تبارك وتعالى يقول :
{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر . . } [التوبة : 18] .
وهذا القول يحمل في مضمونه إيماناً برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله يقول بعدها : { وَأَقَامَ الصلاوة } وإقامه الصلاة لا تصح منهم إلا إذا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي قال لنا إنها خمس ، وهو الذي علمنا كيف نؤديها وماذا نقول فيها ، وهو الذي نشهد له ونحن نصلي؛ في الإقامة وفي التشهد ، إذن فساعة نقيم الصلاة لا بد أن نكون مؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى ذلك فقوله تعالى : { وَأَقَامَ الصلاوة } يقتضي ضرورة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم . واشترط سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الإيمان به وباليوم الآخر وإقام الصلاة وفي طيها الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إيتاء الزكاة ، وطلب منا ألا نخشى غيره ، والخشية هي الخوف . وسبحانه وتعالى قد قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ } [الأنفال : 58] .

إذن فهناك خوف من أشياء أخرى ، ونقول : إن الحق حين قال : { وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ الله } أي لم يخش في دينه إلا الله ، لكن لا مانع من الخشية التي تجعلك تعد لعدوك وتحذر عدوانه عليك .
وانظر إلى دقة القرآن الكريم وعظمته ، فقد جمع في آية واحدة بين الإيمان بالله واليوم الآخر والصلاة والزكاة ، ولم يأت فيها ذكر الإيمان بالرسول؛ لأنه مسألة مطوية في أركان الإيمان . ومن يفعل ذلك يدخل في زمرة من وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله :
{ فعسى أولئك أَن يَكُونُواْ مِنَ المهتدين } [التوبة : 18] .
ولقائل أن يقول : كيف بعد أن آمنوا بكل هذا نقول : عسى؟ . . إذن فما حكم الذي لم يؤمن؟
ونقول : إن « عسى » و « لعل » أفعال رجاء ، وذكرها يعني الرجاء في أن يتحقق ما يأتي بعدها ، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير بالنسبة لله تختلف ، أنت تقول مثلاً : اسأل فلاناً لعله يعطيك ، هذه مرتبة من الرجاء ، وتقول : لعلِّي أعطيك ، وهذه أقرب إلى التحقيق من أن أرجو غيري أن يعطيك .
إذن فهي مرحلة أعلى في الإجابة ، وأن تقول : لعل الله يعطيك مرحلة ثالثة وعالية من الرجاء؛ لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر . والله سبحانه وتعالى كريم يعطي بسخاء . ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه : لعلي أعطيك ، فيكون هذا توقعاً مؤكداً للعطاء .
إذن فمراحل الرجاء؛ رجاء لغيرك من غيرك ، ورجاء منك لغيرك ، ورجاء من الله لسواك ، وقول من الله بالرجاء . فإذا قال الله سبحانه وتعالى : { عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ } [لإسراء : 8] .

نقول : إنه الرجاء المحقق؛ لأنه سبحانه وتعالى كريم يحب أن يرحمنا ولا شيء يمنعه من أن يحقق ذلك . إذن فيكون الرجاء قد تحقق . وقوله تعالى :

{ فعسى أولئك أَن يَكُونُواْ مِنَ المهتدين } [التوبة : 18] .

والهداية إما أن تكون هداية إلى سبيل يؤدي لغاية ، أي يهدينا الله للمنهج ، فإن عملنا به نصل إلى الجنة ، لأن المنهج هو الطريق للجنة ، بدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول عن الكفار : { وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ } [النساء : 168-169] .

إذن فالهداية مرة تكون للمنهج فنؤمن به ونعمل به ، وإما لطريق يوصل إلى غاية . والذين ذكرهم الله في هذه الآية الكريمة هم كل :

{ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَأَقَامَ الصلاوة وآتى الزكاوة وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ الله } وما داموا قد فعلوا ذلك؛ فهذا هو تطبيق المنهج ، وبذلك فَهُمْ - إن شاء الله - لا بد أن تكون نهايتهم الجنة .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله . . . }

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (19)

جاءت هذه الآية رداً على كفار مكة الذين أسروا في غزوة بدر ، وكان منهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تحدث إليه بعض من الصحابة يدعونه للإسلام وللجهاد في سبيل الله فقال : إننا نسقي الحجيج ونرعى البيت ، ونفك العاني ، ونقوم بعمارة البيت الحرام قال العباس ذلك ولم يكن قد أسلم بعد . وما قاله العباس هو موجز رأي أهل الشرك من قريش ، الذين جعلوا هذه المسائل مقابل الإيمان بالله والجهاد في سبيله . وجاء قول الحق ليؤكد أن الكفة غير راجحة فقال : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج . . } [التوبة : 19] .

وكلمة { سِقَايَةَ } تطلق ثلاث إطلاقات : فهي المكان الذي يجتمع فيه الماء ليشرب منه الناس والذي نسميه . السبيل . وكذلك تطلق السقاية : على الإناء الذي نشرب منه الماء ، والذي يرفع إلى الفم كالكوب والكأس أو يسمى صواع الملك ، وفي قصة يوسف عليه السلام يأتي القول الكريم : { فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ } [يوسف : 70] .

أما المعنى الثالث : فهو الحرفة نفسها؛ فنقول : هذه خياطة ، وهذه حدادة وهذه سقاية ، أي أنه عمل يتصل بسقاية الناس ، فالسقاية - إذن - هي المكان الواسع الذي يتجمع فيه الماء ، أو الإناء الذي نستعمله في الشرب ، أو الحرفة التي يقوم بها السقا .

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى :

{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر } [التوبة : 19] .

فإن كنتم تفتخرون بأنكم تحترفون سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام وتجعلون هذا في مقابل الإسلام ، فذلك لا يصلح أبدا كمقابل للإيمان ، ولا تتساوى كفة الإيمان بالله واليوم الآخر أبداً مع كفة سقاية الحجيج ، وعمارة المسجد الحرام . ومن يقدر ذلك هو الله سبحانه وتعالى ، وله مطلق المشيئة في أن يتقبل العمل أو لا يتقبله . والمؤمن المجاهد في سبيل الله إنما يطلب الجزاء من الله ، أما من يسقي الحجاج؛ ويعمر بيت الله دون أن يعترف بوحدانية الله كالمشركين – قبل الإسلام – فهو يطلب الجزاء ممن عمل من إجلهم ، ولأنه سبحانه هو معطي الجزاء ، فهو جل وعلا يوضح لنا : أن هذين العملين لا يستويان عنده ، أي لا يساوي أحدهما الآخر في الجزاء .
ويقال : إن سيدنا الإمام عليا رضي الله عنه ، وكرم الله وجهه ، مر على طلحة بن شيبة؛ والعباس ووجدهما يتفاخران ، أي : يفاخر كل منهما الآخر بالمناقب التي يعتز بها؛ ليثبت أنه أحسن وأفضل منه . وكانت المفاخرة من طبع العرب حتى في الأشياء التي ليس لهم فيها فضل ، والممنوحة لهم من الله عز وجل مثل الشكل والنسب إلى آخره ، لأن أحداً لا يختار أباه وأمه ليتفاخر بهما ، وإنما كل ذلك هو عطاء من الله سبحانه وتعالى .

لقد كان العرب مثلاً يجلسون أمام مكان ممتلىء بالماء يتفاخرون أيهم يغطس في الماء ، ويبقى رأسه تحت الماء مدة أطول ، أي : أيهم أطول نفساً من الآخر ، مع أن هذه مسألة خاضعة لبنية الجسم وتكوينها من الله الخالق ، وليس لأحد يد فيها ، فهناك من أعطاه الله رئتين أقوى من الآخر ، وهو الذي يستطيع أن يغطس مدة أطول ، ولكن هذه المسألة كانت من أوجه التفاخر عند العرب .
جلس طلحة والعباس يتفاخران ، فقال طلحة بن شيبة : بيدي مفتاح الكعبة ، ولو شئت أن أنام فيها لنمت .
فرد عليه العباس : وأنا معي سقاية الحاج ، ولو شئت ألا أسقي أحدا لا ستطعت . ومر الإمام علي كرم الله وجهه عليهما وهما يتفاخران ، فلما سمع كلامهما قال : ما أدري ما تقولان لقد صليت ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد فنزلت الآية :
{ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج وَعِمَارَةَ المسجد الحرام كَمَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ الله } [التوبة : 19] .
ولم يكد العباس يسمع هذه الآية حتى قال : « إنَّا قد رضينا ، إنَّ قد رضينا » ، قال ذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي حكم ، وفي هذا القول إشارة إلى أن المفاخرة التي كانت بين العباس وطلحة لم تكن في موضعها .
وكلمة { عِندَ الله } في الآية الكريمة تفيد : أن المقاييس عند الله تختلف عن المقاييس عند البشر؛ لأن المقاييس عادة تختلف حتى بين الناس ، فلك مقاييس وللناس مقاييس . وقد تجامل نفسك

في مقاييسك . وقد يجاملك الناس في مقاييسهم ، أو قد يقسون عليك . وكل مقياس يكون فيه هوى؛ لأن كل إنسان إنما يؤثر نفسه . وكل إنسان يحاول أن يأخذ كل شيء . ولكن المقاييس التي لا هوى فيها والتي ليس فيها إلا العدل المطلق هي مقاييس الله ، ولذلك نجدها تَجُبُّ كل شيء ، وليس فيها أي فرصة للطعن .

ثم يذيل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله :

{ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [التوبة : **19**] .

وهذه أوجدت الحل لمشكلات متعددة يثيرها بعض الناس حول الهداية ، وكيف أنها من الله سبحانه وتعالى وليست من العبد لقوله تعالى : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ } [القصص : **56**] .

نقول : نعم ، إن مشيئة الهدى من الله سبحانه وتعالى ، لكنه سبحانه قد أوضح لنا من لا يدخلهم في مشيئة هديه ، فقال : { والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : **264**] .

وقال سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [البقرة : **258**] .

وقال سبحانه : { والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [المائدة : **108**] .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى هذه الحقائق في الكثير من آيات القرآن الكرين . وبعض الناس يقول : إن الهدى من الله ، ولو أن الله هداني ما قتلت ، وما سرقت وما ارتشيت ، ونقول : هذا فهم خاطىء ، ولنرجع إلى القرآن الكريم ، فالحق تبارك وتعالى يقول : { والله لاَ يَهْدِي } أي نفي ما يستوجب الهداية عمن ظلم أو فسق أو كفر؛ لأن الحق سبحانه لاَ يَهْدِي من قام الكفر؛ أو قدم الظلم أو قدم الفسق؛ فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق ، هو الذي يمنع الهداية عن نفسه .

ولو قدم الإنسان الإيمان لدخل في هداية الله تعالى ، فكأن خروج الإنسان عن مشيئة هداية الله هي مسألة من عمل الإنسان وباختياره ، فقد يختار الإنسان طريق الغواية ، ويترك طريق الهداية؛ لذلك لا يهديه الله؛ لأنه سبحانه لا يهدي إلا المؤمن به . وإن اختار الإنسان طريق الهداية ، فالحق يعطيه المزيد من الهدى؛ لأنه آمن بالله؛ فاختار طريق الهداية ، واستقبل منهج الله بالرضى . وهكذا نفهم قول الحق تبارك وتعالى : { فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ } [فاطر : **8**] .

إذن فالحق يهدي من استمع إلى القرآن بروح الإيمان ، واستقر في يقينه أن له ربا ، واعتقد أن له إلهاً ، وقد فصلنا ذلك في مسألة القضاء والقدر ، وقلنا : إن الذين يقرأون القرآن لفهم قضية الهداية عليهم أن يستقرئوا كل الآيات المتعلقة بالموضوع ، فسبحانه وتعالى قد أوضح أنه لا يهدي الكافر ، إذن فهو يهدي المؤمن ، وأوضح أنه لا يهدي الظالم ، إذن فهو يهدي العادل ،

وأوضح أنه جل وعلا لا يهدي الفاسق ، إذن فهو يهدي الطائع ، فلا يقولن أحد : إن الله لم يشَأْ أن يهديني؛ لأن هذا فهم خاطىء لمعنى الهداية من الله؛ فسبحانه وتعالى قد بيَّن لنا من شاء هدايته ومن شاء إضلاله ، وهو يهدي من قدم أسباب الهداية ، وأسلم مقاليد زمامه للإيمان ، والله سبحانه وتعالى يقول : { وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً } [مريم : 76] .

ويقول أيضا : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ } [محمد : 17] .

إذن فالله أخبرنا مسبقاً بمن يستحق هدايته ومن لا يدخل فيها ، وأنت باختيارك طريقك ، إما أن تؤمن؛ فتدخل في الهداية ، وإما أن تختار طريق الكفر والظلم والعياذ بالله؛ فتمتنع عنك الهداية .

فإذا جاء أحد يجادلك؛ ويقول لك : إن الله سبحانه وتعالى قد قال : {كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ } [المدثر : 31] .

لك أن تقول له : لقد بيَّن الله عز وجل من شاء له الهداية ، ومن شاء له الضلال ، ولقد ضربنا لذلك مثلاً – ولله المثل الأعلى – فقلنا : إن الهداية قد وردت في القرآن الكريم على معنيين : المعنى الأول هو الدلالة على الطريق ، وهذه هداية للجميع ، فقد دل الله المؤمن والكافر على طريق الإيمان برسله وكتبه ، أي : بيَّن لهم ما يرضيه وما يغضبه وما يوجب رحمته وما يوجب لعنته ، فالهداية الأولى – إذن – وردت بمعنى الدلالة للجميع ، أي : أنها هداية عامة . ثم هناك هداية ثانية خاصة للمؤمنين ، وهي التي بيَّنها الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى :

{ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقُوَاهُمْ } [محمد : 17] .

أي : أعانهم على منهجه؛ فيسَّر لهم الطاعة وصعَّب عليهم المعاصي ، فإذا امتثل المؤمن لمنهج الله وأطاعه ، فالحق عز وجل يشرح صدره بذلك ، ويحبب الطاعة إليه؛ فيزداد طاعة . وإذا شرع في ارتكاب المعصية؛ بغَّضها له وجعلها ثقيلة على نفسه حتى يتركها .

وضربنا لذلك مثلا بالرجل الذي يقود سيارته ذاهبا لمكان معين . وعند مفترق الطرق وجد رجلا من رجال المرور؛ فدله على الطريق ، هذه دلالة عامة . وعندما يقدم الرجل الشكر لجندي المرور . فرجل المرور يُزيد من الإيضاح له : لا تتبع طريق؛ كذا لأن فيها متاعب ومصاعب ، واتبع طريق كذا وكذا تصل في سرعة ويسر ، وهذه زيادة في الدلالة ، أو زيادة في الهداية . لكن إن قال سائق السيارة لنفسه : إن هذا رجل مرور لا يعرف شيئاً ، وتجاهل شكره ، فرجل المرور يتركه وشأنه .

إذن فالحق سبحانه قد هدى المؤمن والكافر إلى طريق الإيمان ، فمن اتخذ طريق الإيمان أعانه الله تعالى عليه . ومن اتخذ طريق الكفر – والعياذ بالله – تركه الله يعاني ويضل . ولذلك لا بد لنا أن نتذكر دائما أن الهداية هدايتان؛ هداية دلالة لكل الناس ، وهداية معونة للمؤمنين فقط ، وفي

الدلالة العامة يقول الحق تبارك وتعالى : { وَهَدَيْنَاهُ النجدين } [البلد : 10] .
أما دلالة المعونة : فهي التي يقول فيها المولى عز وجل : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .
وما يكشف لنا أن الهداية عامة ، أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن قوم ثمود وهم الذين بعث الله إليهم أخاهم صالحاً ، قال سبحانه : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ } [فصلت : 17] .
ولو كانت الهداية هنا بمعنى أنهم أصبحوا مهتدين ، وسلكوا سبيل الإيمان ما قال الله سبحانه بعدها : { فاستحبوا العمى عَلَى الهدى } [فصلت : 17] .
إذن { فَهَدَيْنَاهُمْ } في هذه الآية الكريمة معناها دللناهم على طريق الإيمان ولكنهم اختاروا طريق العمى والكفر .
ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك : { الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . . . }

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (20)

وفي سورة الأنفال تصنيف آخر في قوله تعالى : { والذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال : 74] .
وفي هذه الآية الكريمة من سورة الأنفال كان تصنيف المؤمنين بعد الهجرة مباشرة ، وانتهت الهجرة؛ وأصبح الجميع سواء ، فجاء التصنيف الجامع في آية التوبة .
لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى أن هذه الأعمال لم تكن مقبولة من المشركين ، أما إن قام بها المؤمنون فلهم درجة عند الله . وفي هذه الآية الكريمة يصفهم الحق بأنهم { أَعْظَمُ دَرَجَةً } ، { أَعْظَمُ } صيغة أفعل التفضيل ، وهي تعطي قدراً زائداً عن الأصل المعترف به ، فيقال : فلان أعلم من فلان . وبهذا يكون الشخص الثاني عالما ، ولكن الشخص الأول أعلم منه . ويقال : فلان أكرم من فلان ، أي أن الموصوف الثاني كريم ، والموصوف الأول أكرم منه . والله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا الفوز عنده ، فقال :
{ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله وأولئك هُمُ الفائزون } [التوبة : 20] .
فهؤلاء هم الذين يحصلون على أكبر الأجر عند الله تعالى ، وهم المؤمنون المهاجرون ، والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، والفوز حكم يؤدي إلى أن تأخذ ما تحبه نفسك . فقال الحق موضحاً ما يفوزون به :
{ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله وأولئك هُمُ الفائزون } [التوبة : 20] .

وما دام هؤلاء هم الفائزون ، فالفوز إنما يكون في مضمارين اثنين . فالذين يصنعون أمورا خاصة بالدنيا قد يفوزون فيها بدرجة من النعيم ، ولكن نعيمهم على قدر إمكاناتهم؛ وهو نعيم غير دائم؛ لأنه إما أن يزول عنهم بذهاب النعمة ، وإما أن يزولوا هم عنه بالموت ، إذن فهو نعيم ناقص .

أما الذي يؤمن ويهاجر ويجاهد ويعمل لآخرته ، فسوف يفوز بنعيم لا على قدر إمكاناته ، ولكن على قدر إمكانات الله ، ولا مقارنة بين إمكانات الله وإمكانات خلقه . وفوق ذلك فهو نعيم دائم لا يتركك فيزول عنك ، ولا تتركه لأنك في الجنة خالد لا تموت .

ثم يذكر الحق بعد ذلك قوله تعالى : { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وجنات . . . }

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21)

إذن فهذا قمة الفوز للقوم الذين يبشرهم الله في هذه الآية بالرحمة منه وبالرضوان المقيم .

والبشارة –كما نعلم– هي نوع من الإعلام بشيء سوف يأتي مستقبلاً ، أي ، أنك حين تبشر إنسانا فأنت تخبره بشيء قادم يسره .

إذن ففائدة البشارة أن تغري الإنسان بسلوك السبيل الذي يحققها ، فأنا أبشرك بالنجاح إن استقمت وذاكرت واستمعت للأساتذة ، ويشجعك كلامي لتجتهد حتى تحقق هذه البشارة ، فكأن البشارة تجعلك تتخذ الوسيلة التي توصلك إليها .

ولذلك فقد قلنا : إن الأسباب والمسببات والعلة والمعلول والشرط والجواب؛ كلها يجب أن تحرر بشكل آخر ، لأننا كنا نتعلم أن الشرط سبب في الجواب؛ كقولك : « إن تذاكر تنجح » ، وعلى ذلك فالشرط هو المذاكرة ، وسبب الجواب هو النجاح ، ونقول : لا ، إن الجواب هو السبب في الشرط لأنك لا تذاكر إلا إذا تمثل لك النجاح بكل ما يحققه لك من فرحة ، إذن فالشرط سبب في وجود الجواب واقعا . والجواب سبب في وجود الشرط دافعا ، أي : أ : ن الدافع لمذاكرتك هو ما يمثله لك النجاح من قيمة مادية ومعنوية . وكل إنسان يرغب في النجاح ، لكن النجاح لا يتحقق بالدعاء فقط ، بل بالمذاكرة التي تحقق النجاح كواقع . بمعنى أنك لا تذاكر إلا وقد تمثل لك النجاح بمواهبه ومزاياه وبمكانته ويفرح أهلك بك ، وبفرحك بنفسك .

ولهذا نقول : إن السبب هو الذي يوجد أولاً في الذهن .

ومثال آخر : لنفترض أنك تريد أن تسافر إلى الطائف . فتكون الطائف هي الغاية ، وتكون أنت قد خططت للوسيلة وفي ذهنك الغاية ، إذن فالجواب يوجد دافعا ، والشرط يوجد واقعاً . وقوله تعالى : { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم } أي : يخبرهم بالنهاية السارة التي سوف يصلون إليها ليتحملوا مشقة التكاليف التي يأمرهم بها المنهج؛ لأن الجنة محفوفة بالمكاره ، ولأن التشريع الإلهي تقييد لحرية الاختيار في العبد ، والمؤمن مقيد بأوامر الله تعالى في « افعل » و « لا تفعل » . ولكن غير

المؤمن إنما يتبع هواه في كل حركاته ، ويفعل ما يشاء له من الهوى ويطيع نزواته كما يريد ، أما المؤمن فحريته فقط فيما لم يرد فيه تشريع من الله تعالى ، أما ما يخضع للمنهج فهو مقيد الحركة فيه بما قضى الله به . فكأن الإيمان جاء ليقيد ، ولكن إذا قارنا بين الجزائين ، نجد أن الذي يتبع شهواته في الدنيا إنما يحصل على لذة موقوتة ، وعمره في الدنيا محدود ، إذن فهو الخاسر ، لأن الذي قيد حركته بمنهج الله يأخذ اطمئنانا في الدنيا ونعيما مقيما لا يزول ولا ينتهي في الآخرة . والمثال الذي أضر به دائما هو الطالب الذي لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر ، ولكن يقضي وقته في اللعب واللهو ، وهو قد أعطى نفسه ما تريد ، ولكنه أخذ متعة محدودة ، ثم بعد ذلك يعيش في شقاء بقية عمره .

أما الذي قيد حركته بالمذاكرة ، فقد منع شهوات نفسه في اللعب واللهو . وتكون الثمرة أنه يحقق لنفسه مستقبلا مريحا ومرموقا بقية عمره .

إذن فكل من الطالب الذي يجتهد وذلك الذي يلهو ويلعب ، كل منهما أخذ لوناً من المتعة . ولكن أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثاني فقد قيد نفسه سنوات معدودة ليتمتع بمستقبل ناجح .

كذلك أنت في الدنيا؛ إن قيدت نفسك بالتكاليف « افعل » و « لا تفعل » ، فظاهر الأمر أنك قَيَّدْتَ حريتك ، وإن فعلت ذلك برضا ، فالله يعطيك راحة واطمئنانا ومتعة في النفس . ولذلك نجد الصلاة وهي التي يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم على الأقل؛ هذه الصلاة في ظاهرها أنها تأخذ بعضا من الوقت كل يوم ، ولكنها تعطي راحة نفسية ، كما أنها تعطي اقتناعا يفوق التصور إن خشع فيها الإنسان وأداها بحقها ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « يا بلالُ أرِحْنَا بالصلاة » .

كما قال صلى الله عليه وسلم ضمن حديث رواه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه « وجُعلَتْ قُرَّة عيني في الصلاة » .

لأن التكليف ينتقل من المتعة إلى الراحة . ويتمتع الإنسان فيها بتجليات ربه وفيوضاته فترتاح نفسه وتهدأ . وانظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم } ، تجد البشارة هنا آتية من رب خالق . والرب هو المالك؛ والمدبر الذي يرتب لك أمورك ، وهو مأمون عليك .

{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ } [التوبة : **21**] .

والرحمة والرضوان من صفات الله وهي صفات ذاتية في الله ، ومتعلقات العبد فيها أنه سبحانه يهبها لمن يشاء .

ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله :

{ وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } [التوبة : **21**] .

ونجد أن هذا ترقٍ وتدرجٌ في النعمة ، فقد بشرهم الله سبحانه أولاً بالرحمة ، وهي ذاتية فيه ، ثم بنعمة دائمة في الحياة . ولنلحظ أن هناك فارقا بين النعمة والمنعم . ونضرب لذلك مثلا – ولله المثل الأعلى – إذا دعاك إنسان في بيته وقت الطعام ثم جاء بطبق فيه تفاح ، لا بد أن يكون التفاح في الطبق يكفي كل الجالسين بحيث يأخذ كل واحد منهم تفاحة ، فإذا أمسك صاحب البيت بتفاحة وأعطاها لأحد الجالسين . فهذا مظهر من مظاهر رعاية خاصة من صاحب البيت ، وتمييز لشخص ضيفه عن بقية الضيوف ، وهذه تمثل درجة أعلى من الكرم والاهتمام؛ فهي تمثل الرحمة والرضوان . أما التفاح نفسه فهو النعمة ، ومثله مثل الجنات .

وهكذا نرى أن هناك اختلافاً في التكريم . والمؤمنون حين يرتقون في درجة الإيمان؛ يعيشون دائما مع النعمة والمنعم ، فإذا جاء الطعام قالوا : « بسم الله » ، وإذا أكلوا قالوا : « الحمد لله » ، ولكنهم إذا ارتقوا أكثر في الإيمان عاشوا مع المنعم وحده ، ولذلك يباهي الله بعباده الملائكة؛ يباهي بعبادتهم وطاعتهم التي يلتزمون بها على أي حالة يكونون عليها ، ولو نزل بهم أشد البلاء وسلبت منهم النعم ، وهؤلاء من أصحاب المنزلة العالية .

ولذلك « فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل »؛ ليرى الحق سبحانه وتعالى من يحبه لذاته وإن سلب منه نعمة ، وهذه منزلة عالية . فمن عبد الله ليدخل الجنة أعطاها له ، ومن عبده سبحانه؛ لأنه يستحق أن يعبد ، فسوف يرتقي في الجنة ليرى وجه الله في كل وقت؛ وأما الآخرون فيرونه لمحات ، ولذلك يكون الجزاء في الآخرة على قدر العمق الإيماني للعبد ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً } [الكهف : **110**] .

وقال أحد الصالحين : « إني لا أشرك بك أحدا حتى الجنة ، لأن الجنة أحد » .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ } وقد ترحم ولكنك لا تنال الرضوان ، فوضح المولى سبحانه وتعالى ذلك وأضاف « الرضوان » إلى « الرحمة » ، ولذلك يقول الحق عز وجل : { بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ } والرضوان هو ما فوق النعيم . وبعد الرضوان يقول الحق سبحانه وتعالى : { وجنات لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } .

ولقائل أن يقول : هل هناك جنة ليس فيها نعيم؟ ولماذا ذكرت النعيم؟ والجنة وجدت أصلا لينعم فيها الإنسان .

ونقول لمثل هذا القائل : انتبه والتفت جيدا إلى المعنى ، فالمتحدث هو الله سبحانه وتعالى . وقد يكون عند الإنسان نعمة واسعة ، ولكن يحيا في الكثير من المنغصات ، مما يجعله لا يستمتع بالنعمة ، كمرض يملؤه بالألم ، أو ابن عاق يكدر حياته ، أو زوجة تملأ الحياة كدرا ونكدا ، قد يحدث كل ذلك فلا يستمتع الإنسان بما يملك من نعمة الله؛ لأن المكدرات قد أحاطت به . وهنا

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفتنا إلى أن جنة الآخرة ليس فيها منغصات الدنيا ، بل هي صفاء واستمتاع ، يعطي فيها الحق سبحانه وتعالى لعبده ما تشتهيه نفسه ويبعد عنه جميع المنغصات ، وقد يخاف الإنسان ألا يدوم مثل هذا النعيم ، لذلك يطمئن الحق العبد المؤمن أنه { نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } ، قد ينظر إنسان إلى أن الإقامة مقولة تحمل التشكيك ، فقد تستغرق الإقامة زمناً طويلاً ثم تنتهي ، وشاء الله – عز وجل – أن يطمئن المؤمن بوعد حق ، فوعد المؤمنين بالخلود الأبدي في الجنة . فيقول سبحانه وتعالى : { خالدين فِيهَآ أَبَداً إِنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . . . }

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)

وهذا ما يؤكد الاطمئنان في قول الحق سبحانه وتعالى : { لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ } ، وكلمة { لَّهُمْ } أعطت شبه الملكية لهذا النعيم . ولذلك مهما تملك الإنسان في هذه الدنيا ، فهذا الامتلاك لا يتجاوز حدود أن يجلس؛ ويقوم الخدم بتنفيذ أوامره؛ لأن المتعة إما أن تكون بيدك ، وإما أن تنعم بالراحة ويقدمها لك غيرك . وعلى سبيل المثال حين تريد أن تأكل ، فإما أن تعد الطعام لنفسك ، وإما أن يعده لك غيرك . ولا يوجد إنسان مهما أوتي من ملك بإمكانه أن يحقق كل ما يريده بيده . بل لا بد من الالتجاء إلى مساعدة الآخرين . ولكن المؤمن في الجنة ينال ما يتمناه بمجرد أن يخر الشيء بباله ، وهذا يختلف عن الدنيا؛ لأنك حين ترغب في شيء في دنيانا ، لا بد أن تقوم به بنفسك ، أو تعتمد على غيرك؛ لينفذه لك ، حتى وإن كان ما تطلبه هو مجرد فنجان من القهوة ، وأنت تحدد لصانعها الهيئة والنوع إن كنت تريدها بدون سكر ، أو بقليل من السكر ، أو بكثير من السكر ، لأن كلا منا في الدنيا إنما يحيا مع أسباب الله . ولكن المؤمن في الجنة إنما يحيا مع المسبب وهو الله القادر العظيم .

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى : { يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وجنات } فنحن نلحظ مقابلة الجمع بالجمع ، وهي كما علمنا من قبل تقتضي القسمة آحاداً ، فإذا دخل الأستاذ الفصل وقال لتلاميذه : أخرجوا أقلامكم ، فكل تلميذ لا يخرج أقلاما ، بل يخرج كل قلمه .

وإذا قلنا : اركبوا سياراتكم فليس معنى هذا أن يركب كل واحد كل السيارات ، ولكن معناه أن يركب كل واحد سيارته .

وقول الحق : { جنات } ليس معناه أن يدخل كل مؤمن كل الجنات ، ولكن المعنى والمقصود أن يدخل كل منهم جنته على حسب الأعمال التي اكتسبها والمنزلة التي وصل إليها .

ومن المهم أن نعلم أن صاحب الجنة عالية المنزلة لن يتلقى حسدا من صاحب الجنة متوسطة المنزلة . وصاحب الجنة الدنيا لن يحسد من هو أعلى منه ، وكذلك لن يزهو صاحب الجنة عالية المنزلة على غيره . وكل واحد منهم يفرح بمكانة الآخر . مثلما يحدث أحيانا في الدنيا حين يتفوق إنسان في دراسته فقد نجد من هو أقل منه درجة يفرح له بصفاء نفس ، وكذلك لا يزهو متفوق

بمكانته على الأدنى منه ، وإذا كان ذلك هو ما يحدث في الدنيا ، فما بالنا بالآخرة؟ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر : 47] .

أي : أن كلا من أهل الجنة يفرح بمنزلته ، ويفرح بمنزلة الأعلى منه ، لأنه سينال من فيوضات الخير ، التي عند الأعلى منزلة . عندما يأتي لزيارته وقد قالوا في قول الحق سبحانه وتعالى :

{ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : 46] .

إن كل من علت منزلته في الجنة له جنة خاصة به ، وجنة أخرى ليتكرم بها على من هم دونه ، وكأنها مضيفة لمن يحبهم ، إذن ففي الآخرة يفرح أهل الجنة بمن هم أعلى منهم ، لأنهم سينالون منهم خيرا .

وفي الدنيا إذا أراد إنسان أن ينال نعم كل الخلق ، فلا بد أن يفرح بالنعمة عند صاحبها؛ لأنه حين يفرح بالنعمة عند صاحبها أتت إليه واستفاد منها ، وعلينا أن نوقن بأن النعمة تعشق صاحبها أكثر من عشق صاحبها لها ، لأنها تعرف أن الله قد أرسلها إليه ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا } [إبراهيم : 25] .

وأنت حين تبذر بذرة الشجرة ، تعطيك الشجرة الثمار ، وهي التي تعطيك نتاجها . ولست أنت الذي تنتزعه منها ، ولذلك نقول دائما : إن الرزق يعرف عنوانك جيدا ولكنك لا تعرف مكانه أبدا ، فأنت تبحث عن الرزق في كل مكان وقد لا تجده . ولكن ما قسمه الله لك من الرزق تجده يسعى إليك ويأتيك حتما .

وأهل الجنة لا يعرفون الحقد ولا الحسد ولا الغل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم جالسون معه ذات يوم : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » .

ودخل الرجل وعرفه الصحابة ، فأرادوا أن يعرفوا ماذا يعمله هذا الصحابي حتى يستحق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة . قالوا له : ونحن نريد أن نعرف ماذا تفعل لنكون معك . فقال الرجل : إني لأصلي كما تصلون وأصوم كما تصومون وأزكي كما تزكون . ولكني أبيت وليس في قلبي غل لأحد . فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له : لقد قال الرجل كذا وكذا . فقال صلى الله عليه وسلم : « وهل فضلت الجنة على الدنيا إلا بهذا »

فالله سبحانه وتعالى يقول فيها : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ } [الحجر : 47] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : { يأيها الذين آمَنُواْ لاَ تتخذوا آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23)

والولي هو الذي يليك وينجز ما تحبه ، وتلجأ إليه في كل أمر ، وتأخذ منه النصيحة ، كما أنه القادر أن يجيرك حين تفزع إليه ، ويكون دائما بمثابة المعين لك ، والقريب الذي يسمع منك ، إذا استغثت يغيثك وينصرك ، ويكون معك في كل أمورك . إن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هنا : إن أردتم أن يكون بناء الإسلام قويا لا خلل فيه ، فإياكم أن يكون انتماؤكم غير انتماء الإيمان ، فهو فوق انتماء النسب والحسب وغير ذلك ، وإن قارنا بين طلب المخلوق وطلب الخالق ، فما يطلبه الخالق فوق ما يطلبه المخلوق؛ لأنك إن أغضبت المخلوق في رضا الخالق تكون أنت الفائز ، ويقذف الله في قلب كل من حولك رضاهم عنك ، وسيقال عنك صاحب مبدأ وضمير ، ولا ترضى أن تغضب الله ليرضى عنك أحد . وإن أسخطت الله لإرضاء مخلوق مهما كان ، تجد أن الله يجعل هذا المخلوق يسخط عليك ويحتقرك . فإن شهدت زورا لصالح بشر . يعرف عنك هذا الذي شهدت زوراً في حقه أنك شاهد زور فلا يأمنك ، وإن جئت بالصدفة لتشهد عنده فهو لا يقبل شهادتك ويحتقر كلامك .

ولذلك قال الحكماء : شاهد الزور قد يرفع رأسك على الخصم بشهادته ، ولكنك تدوس بقدمك على كرامته لأنه سقط في نظرك .

والانتماء إذن هو انتماء لله ، فإن صادفك قريب يريد منك أن تفعل ما يغضب الله فلا تطعه ، ولكن لا تكن فظا معه . وخصوصا مع الوالدين لأن الله سبحانه وتعالى يقول عنهما : { وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً } [لقمان : **15**] .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تتخذوا آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان } [التوبة : **23**] .

إذن فالذي يربط كل شيء هو الكفر أو الإيمان . وقد أعطانا صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المثل الخالد . فقد كان سيدنا مصعب بن عمير أكثر الفتيان تدللا في مكة ، وكانت حياته في مكة قبل إسلامه غاية في الترف ، وكان يرفل في الثياب الفاخرة ، فلما هاجر إلى المدينة عاش ظروف الفقر المادي الصعب ، لدرجة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رآه في الطريق ساترا عورته بجلد شاة فلفت النبي عليه الصلاة والسلام نظر الصحابة إلى حالته هذه وكيف فعل الإينما بمصعب حيث فضل الإيمان على نعيم الدنيا كلها . لقد رأى مصعب – رضي الله عنه – أن شرفه بالانتماء إلى الإسلام أكبر من فاخر الثياب ، وترف العيش وانطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى : { الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله وأولئك هُمُ الفائزون * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً إِنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

[التوبة : 20-22] .

وأعطانا سيدنا مصعب ومن معه المثل العظيم في الانتماء الإيماني ، والمجاهدة في سبيل الله بالمال والنفس ، وكيف نجعل اختيارنا مع منهج الله ، هذا المنهج الذي يقيد الإنسان فيما له اختيار فيه . فالإنسان مقهور في أشياء ومخير في أشياء .

ونعلم أن التكليف لا يأتي في الأمور التي نحن مقهورون عليها . وإنما يأتي فيما لنا فيه اختيار . فإذا ماكان لنا اختيار ، فلنراع أن نختار بين البدائل في إطار منهج الله تعالى ، ولا نخرج بعيدا عن هذا الإطار . وكان المسلمون الأوائل يضحون بالبيت والمال والولد ، ويهاجرون في سبيل الله . واستقبلوا كل هذه التضحيات الصعبة بصدور مؤمنة ، وصبر واحتمال شديدين؛ لأنهم وثقوا في البشارة من الله سبحانه وتعالى بأن لهم الجنة والرضوان ، والنعيم المقيم؛ خالدين فيه لا يفارقهم ولا يفارقونه . وبهذا أقيم بناء الإسلام .

وبعد أن بيَّن لنا الحق أسس الانتماء للدين ، وجزاء هذا الانتماء ، حذرنا أن ننحرف عنه لنرضى أبا أو إخوة أو أقارب ، فقال : { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تتخذوا آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فأولئك هُمُ الظالمون } [التوبة : 23] .

ويريدنا الله سبحانه وتعالى أن نعرف أن الانتماء لله لا يعلو عليه شيء ، فإذا مِلْناَ عن الحق لنرضي أقارب ، أو لنحتفظ بمال أو منصب ، فذلك ظلم للنفس؛ لأن جزاء الحق ونعيمه أكبر ، فلا ينصرن أحد الباطل ، ولا يجعل أحدنا الإيمان خادما لكفار لا يؤمنون بالله . ويوضح الحق سبحانه وتعالى هذه الصورة بقوله تعالى : { إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان } ، وكلمة « استحب » أي : طلب الحب ومثلها مثل « استخرج » أي : طلب إخراج الشيء . وإذا قلنا « استجاب الله » معناها : أجاب .

إذن ف « استحب » معناها : أحب ، ولكن « استحب » فيها افتعال . و « أحب » فيها اندفاع بلا افتعال .

وقول الحق تبارك وتعالى { إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان } يدل على أن الكفر مخالف للفطرة الإيمانية للإنسان ، لأن الإنسان بفطرته مؤمن محب للإيمان ، فإن حاول أن يحب غير الإيمان ، لا بد أن يتكلف ذلك؛ وأن يفتعله لأنه غير مفطور عليه؛ وليس من طبيعته . ولذلك يقول القرآن الكريم : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله } [البقرة : 28] .

وهذا التساؤل والتعجب يوضح لنا أن الذين يحكّمون المنطق والفكر والعقل يصعب عليهم الكفر بالله ، لماذا؟؛ لأن الكون وجد أولا ، ثم وجد الإنسان ، فكان من الواجب حين نأتي إلى كون لم نصنع فيه شيئا أن نسأل : من الذي أوجده؟ وكان من الطبعي أن يبحث العقل عن الموجدة ، وخصوصا أن في الكون أشياء ، لا قدرة للبشر على إيجادها؛ كالشمس ، والأرض ، والماء ، والهواء ، والنبات ، والحيوان .

وكلها تمثل الاستقبال الجامع لمقومات حياتك .

كان من الطبعي – إذن – أن نسأل : من الذي أوجد هذا الكون؟ . خصوصاً أننا نفتش عمن اخترع لنا اختراعا بسيطا مثل : مصباح الكهرباء وندرس تاريخ حياته ، وكيفية اكتشافه ، لمجرد أنه أضاف إلى حياتنا اختراعا استفدنا منه ، فما بالنا بمن خلق هذا الكون؟ . ولقد رحمنا سبحانه وتعالى من ضلالات الحيرة ، فأرسل لنا رسولا برحمة منه؛ لينبهنا ويقول لنا : إن هذا الكون من خلق الله العظيم . لماذا إذن لا نصدق الرسول ، ونتبع المنهج الذي أنزل إلينا؟

ولقد ضربنا مثلاً – ولله المثل الأعلى – بشخص سقطت به الطائرة وسط الصحراء وبقي حيا ، لكن لا ماء ولا طعام ، ثم أخذته سِنَةٌ من النوم واستيقظ ليجد الطعام والشراب ، وكل ما يحتاج إليه حوله؛ ألا يفكر قبل أن يأكل من كل هذا : من الذي جاء به؟ . وأنت أيها الإنسان قد جئت إلى هذا الكون العظيم وقد أُعِدَّ إعداداً مثالياً لحياتك ، وهو إعداد فوق القدرة البشرية ، فكان يجب أن تفكر من الذي أوجد هذا الكون؟ .

إذن : فالإيمان ضرورة فطرية؛ وضرورة عقلية أيضا ، وإن ابتعدت عن الإيمان فهذا يحتاج إلى تكلف؛ لأنك تبتعد عن منطق الفطرة والعقل؛ لتحقق شهوات نفسك . وما دمت قد اتبعت هواك وخضعت لشهوات النفس ، فهذا لون من التكلف الذي يصيب ملكاتك بالخلل ، وعقلك بالخبل ، فحب الكفر لا يكون عاطفياً ، أو فطرياً ، كما لا يكون منسجما مع العقل السليم ، بل هو حب متكلَّف . فالذي يفعل حلالاً يحيا وملكاته كلها منسجمة ، والذي يفعل حراما يعيش وملكاته مضطربة ، والمثال : حين ينظر الرجل إلى زوجته ، فهو ينظر إلى حلاله ويشعر أن ملكاته منسجمة ، ولكن إن نظر إلى امرأة أخرى ، فهو . . يشعر باضطراب الملكات . فالسلوك المتفق مه الإيمان سلوك سوي . أما السلوك الخارج عن منهج الإيمان فهو الذي يحتاج إلى تكلف ، وهذا التكلف يعارض الطباع الإنسانية . بينما توابع الإيمان من الاستقامة لا تكلف شيئا ، فالمؤمن يكون مستقيماً فلا يرتشي ، ولا يسرق ، ولا يدخل بنفسه إلى مزالق الهوى أو الشهوة ، ويحيا حياة طيبة ، فإن فتح « دولابه » الخاص ، وأخذ منه شيئا فهو يأخذ ما يريد بهدوء واطمئنان ، لكن المنحرف من يدخل إلى غير حجرته ليأخذ شيئا من « دولاب » ما ، حتى ولو كان « دولاب » الأب النائم ، لذلك نجده يسير على أطراف أصابعه متلصصا ليفتح « دولاب » أبيه .

إذن : فالاستقامة لا تحتاج إلى تكلف ، ولكن الانحراف هو الذي يحتاج إلى تكلف ، ولذلك قال الله سبحانه : { استحبوا } ولم يقل؛ « أحبوا » ، لأن الحب أمر فطري ، فالإنسان – مثلا – يحب ابنه حبا فطرياً عاطفياً ، والحب العاطفي لا يقنن .

فأنت لا تستطيع أن تقول : سأحب فلاناً وسأكره فلاناً؛ لأن العاطفة لا تأتي بهذه الطريقة؛ لذلك أنت تحب ابنك عاطفياً ، حتى وإن كان فاشلاً في دراسته . لكنك تحب ابن عدوك عقليا إن كان متفوقاً ، إذن فالحب العقلي هو الذي يقنن له .

وكذلك أنت تكره الدواء المر بعاطفتك ، لكنك تحبه بعقلك إن كان فيه شفاؤك ، فتبحث عنه ، وتدفع المال من أجله ، وتحرص على أن تتناوله ، وكلنا نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه » .

ووقف عند هذه سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وقال : يا رسول الله : أنا أحبك عن مالي وأحبك عن ولدي ، ولكن كيف أحبك عن نفسي؟ فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث قائلا : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحب إليه من نفسه » .

وكررها عليه الصلاة والسلام ثلاثا ، فعلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن هذا تكليف .

والتكليف لا يأتي إلا بالحب العقلي الذي يمكن أن يقنن . وقد يتسامى المؤمن في الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليصير حباً عقلياً وعاطفياً . ولكن الحب العقلي هو مناط التكليف ، أما الحب العاطفي فلا يكلف به . ولم يقنن الحق سبحانه وتعالى لانفعالات العواطف ، لأنه سبحانه لا يمنع العواطف أن تنفعل انفعالاتها الطبيعية ، فأنت تحب من يسدي إليك معروفاً ، وهناك من تحبه دون أن تعرف السبب . وهناك من تبغضه دون أن يكون أن يؤدي ذلك إلى عدوان على الحق ، فقال سبحانه وتعالى : { وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ } [المائدة : 8] .

أي : لا يدفعكم كره قوم على أن تخرجوا عن طريق الحق وتظلموهم ، فإن كرهتموهم فتمسكوا بالعدل معهم .

إذن فالله سبحانه وتعالى لم ينه عن الحب أو الكره؛ ولكنه نهانا عن أن نظلم من نكره أو نجامل من نحب على حساب الحق والعدل .

ويعطينا سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – صورة حية لهذا؛ فقد قتل أبو مريم الحنفي زيد بن الخطاب شقيق سيدنا عمر في معركة اليمامة ، ثم دخل في الإسلام؛ فكان كلما مر أمام سيدنا عمر قال له : إلو وجهك بعيدا عني ، فإني لا أحبك . فقال له أبو مريم الحنفي : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي .

قال : لا . فقال الرجل : إنما يبكي على الحب النساء .

والحق سبحانه وتعالى حين قال : { إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان } إنما يريد أن يلفتنا إلى أنهم عارضوا فطرتهم وعقولهم؛ ولذلك لا نجعل انتماءنا لهم فوق انتمائنا لله ، فالولاء لله فوق كل حق؛ حتى لو كان حق الأبوة ، صحيح أن الأب سبب وجودك ، ولكنه سبحانه وتعالى خلق أباك الأول آدم من عدم ، فلا تجعل الخلق الفرعي يطغى على الخلق الأصلي .

ولذلك يذيل الحق هذه الآية الكريمة بقوله : { وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فأولئك هُمُ الظالمون } لأنهم نقلوا الحق من الله سبحانه وتعالى إلى الخلق ، ولأنهم ظلموا أنفسهم فحرموها من الجزاء في الآخرة ليحققوا نفعا عاجلا في الدنيا . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [البقرة : 57] .

لأن أحدا لا يستطيع أن يظلم الله سبحانه وتعالى ، والذي يتمرد على الإيمان بعد أن يسمع الدعوة إليه ولا يؤمن ، ومن يأمره الحق بالطاعة فيعصي ، فهذا تمرد على الإيمان ، وإن كنت من المتمردين وجاءك الله بمرض؛ فهل تقدر على دفع المرض ولا تمرض؟ . وإذا جاءك الله بالموت . أتستطيع أن تتمرد على الموت وتبعده عنك فلا تموت؟ . إذن : هناك أقدار لا تستطيع التمرد عليها ، وأنت متمرد – فقط – فيما لك فيه اختيار .

وبعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يخاطبهم خطاباً صريحاً فقال : { قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ . . . }

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)

والخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه للمؤمنين . وقد جاء سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بمراحل القرابة ، فذكر أولاً صلة النسب من آباء وأبناء وإخوة ، ثم الزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، ثم الأهل والعشيرة ، ثم الأموال التي نملكها فعلاً ، ثم الأموال التي نريد أن نكسبها ، ثم المساكن التي نرضى بها ، وبعد ذلك ذكر التجارة التي تزيد من المال . وفرّق الله سبحانه بين الأموال التي في حوزتنا وبين التجارة؛ لأن التجارة قد تأتي لنا بأموال فوق الأموال ، والإنسان لا يحصل على سكن إلا إذا كان عنده فائض من المال . ويذكرنا الحق سبحانه هنا إن كانت أي مسألة من هذه الأشياء ، وهي زينة الحياة الدنيا أحب إليكم من الله ورسوله والجهاد في سبيل الله { فَتَرَبَّصُواْ } أي انتظروا حتى يأتيكم أمر الله ، وحينئذ ستعرفون القيمة الحقيقية للدنيا وقيمة ما عند الله تعالى من رضاء ونعيم .

ولهذه الآية الكريمة أسباب نزول ، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أُمِرَ بالهجرة من مكة إلى المدينة ، أمر المسلمين بالهجرة ، فتركوا أموالهم التي اكتسبوها بمكة وتجاراتهم ومساكنهم ، وآبائهم وأبنائهم ، وإخوانهم وأزواجهم وعشائرهم ، التي تستطيع حمايتهم ، تركوا كل هذا وهاجروا لأرض جديدة .

ولكن من المسلمين من ركنوا للدنيا فبقوا بجوار أموالهم وأواجهم وأبنائهم المشركين ، وكانت الواحدة من النساء المشركات تتعلق بقدمي زوجها المسلم الذي يريد الهجرة حتى لا يتركها فكان

قلبه يرقُّ لها ، ومنهم من كان يخشى ضياع ماله وكساد تجارته ، التي بينه وبين المشركين ، فنزلت هذه الآية .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح قيمة الانتماء الإيماني ويدرب المؤمنين عليه . فقد كان المسلم لا يتم إيمانه حتى يهاجر ، ويصارم أهله وأقاربه ويقاطعهم ، فشق ذلك عليهم . وقالوا : يا رسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا في ديننا قطعنا آباءنا وأبناءنا وأزواجنا وأقاربنا ، وخفنا على أموالنا وتجارتنا من الفساد ، وخفنا على مساكننا أن تخرب ، وبذلك نضيع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وكأنها تأمرهم بأن كسب الإيمان أعلى من أي كسب آخر ، فأنزل الحق سبحانه وتعالى الآية الكريمة :

{ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقترفتموها وتجارة تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ومساكن تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } [التوبة : 24] .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة أخذها الصحابة مأخذ الجد وهاجروا؛ وقاطعوا آباءهم وأبناءهم ، حتى إن الواحد منهم كان يلقى أباه أو ابنه فلا يكلمه ، ولا يدخله بيته ، ولا ينزله في منزله إن لقيه ، ولا ينفق عليه ، إلى أن نزلت الآية الكريمة : { وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً }

[لقمان : 15] .

أي : أن المعروف معهم يقتصر فقط في المعاملة وفي الإنفاق على المحتاج . أما الطاعة لهم فيما يغضب الله فهي محرمة . وحاول بعض المستشرقين أن يطعن في القرآن ، فمنهم من قال : إن هناك تعارضاً بين آيات القرآن الكريم ، فالآيتان اللتان ذكرناهما؛ الأولى تطلب مقاطعة الآباء والأبناء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، والآية الثانية تطلب مصاحبتهم بالمعروف أو عدم القطيعة ، وآية ثالثة تقول : { لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } [المجادلة : 22] .

ولم يفطن هؤلاء إلى أن هناك فارقاً بين الود والمعروف ، فالود هو عمل القلب ، فأنت تحب بقلبك ، ولكن المعروف ليس من عمل القلب لأنك قد تصنع معروفاً في إنسان لا تعرفه ، وقد تصنع معروفاً في عدوك حين تجده في مأزق ، ولكنك لا تحبه ولا توده .

إذن : فالمنهي عنه أن يكون بينك وبين من يحادون الله ورسوله حب ومودة ، أما المعروف فليس منهيا عنه؛ لأن الله يريد للنفس الإيمانية أن تعترف بفضل الأبوة ، فإن وجدت أباك وهو غير مؤمن في مأزق فاصنع معه معروفاً وساعده ، لكن عليك ألا تطيعه فيما يغضب الله؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يربي في النفس الإيمانية أن تحترم من له فضل عليها . والأب والأم من

أسباب الوجود الفرعي في الحياة ، لذلك جاء الأمر بمصاحبتهما بالمعروف في الدنيا ، شرط ألا نقبل منهما دعوتهما للكفر إن كانا من أهل الكفر ، لأن إيمانك بالله لا بد أن يكون هو الأقوى . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

وذلك حتى لا يكون مقياس الحب هو النسب أو القربى ، وإنما يكون القرب من الله سبب الحب ، والبعد عن الله سبب الكره . فقضية الإيمان تَجُبُّ قضية العاطفة . ففي معركة بدر كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما ابنه فلم يكن قد أسلم بعد وكان مع الكفار ، فلما أسلم ابن أبي بكر وآمن؛ قال لأبيه : لقد رأيتك يوم بدر فلويت وجهي عنك حتى لا أقتلك . فرد سيدنا أبو بكر رضي الله عنه : لو أني رأيتُكَ لقتلتُكَ . وهذا منطقي مع الإيمان لأن الموازنة النفسية اقتضت أن يقارن ابن أبي بكر بين أبيه وبين صنم يعبده؛ فرجحت كفة أبيه ، ولكن أبا بكر حين رأى ابنه قارن بين ربه وابنه فرجحت كفة ربه .

وإذا كان ذلك عن القرابة ، وكيف يَجُبُّ الإيمان العاطفة ، فماذا عن المال؟ يتابع المولى سبحانه وتعالى : { وَأَمْوَالٌ اقترفتموها } أي : أخذتموها بمشقة ، وهي مأخوذة من « القرف » وهي القشر ، وأنت إن أردت إزالة القشر عن حبة نبات ما ، قد تجد شيئا من المشقة؛ لأن هناك التصاقا بين القشرة والحبة ، والحق هنا يقول : { وَأَمْوَالٌ اقترفتموها } أي : أخذتموها بجهد ومشقة ، وهو غير المال الموروث الذي لم يتعب فيه صاحبه ، وإنما ورثه عن غيره ، وفي هذه الحالة قد يكون أمره هيناً على صاحبه . أما المال الذي كسبه الإنسان بعرق جبينه وكدِّه فصاحبه أكثر حرصاً عليه من المال الموروث . ويقال : « فلان اقترف كذا » ، أي : أنه قام بجهد حتى حصل عليه ، ويقال : « اقترف الكذب » و « اقترف السرقة » ، بمعنى أنه قد بذل جهدًا ليكذب ، أو بذل جهدًا ليسرق ، أي : قام بعملية فيها مجهود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين } وسبحانه هنا يوضح لهم : انتظروا أمر الله الذي سوف يأتي ، لأنه سبحانه لا يهدي فاسقاً خرج عن الإيمان ، ولا يهدي من جعلوا حبهم للعلاقات الدنيوية فوق حب الله فخرجوا عن مشيئة هداية الله تعالى ، فسبحانه لا يهديهم كما لا يهدي الظالمين أو الكافرين؛ لأن هؤلاء هم من قدموا الظلم والكفر والفسق ، فكان ذلك سببا في أن الله لم يدخلهم في مشيئة هداية المعونة على الإيمان ، أما هداية الدلالة فقد قدمها لهم .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يبعث الطمأنينة الإيمانية في نفوس المؤمنين ، فيوضح لهم : إن كنتم تريدون بالآباء والأبناء والعشيرة والأقربين والمال قوة ، فاعلموا أن قوة المؤمن من ربه ، وإياك أن

تنظر إلى ولي آخر غير الله؛ لأن ولاية البشر عرضة للتغير والتبدل ، حيث إن الإنسان حدث يتقلب بين الأغيار ، فالغني فيها قد يصبح فقيرا ، والسليم قد يصبح مريضاً ، والقوي قد يصير ضعيفاً ، ولكن الولاية الدائمة إنما تكون من قادر قاهر لا يتغير ، فإذا كان الله وليك فهو القادر دائمًا ، والقاهر دائمًا ، والغالب دائمًا ، والموجود دائماً ، والناصر دائماً ، ولكن إذا كانت الولاية من إنسان لإنسان فالأغيار في الدنيا تجعل الصديق ينقلب عدواً ، والمعين يصبح ضعيفاً لا يملك شيئا ، والموجود يصبح لا وجود له بالموت ، إذن : فلا بد أن تجعل ولايتك مع الله سبحانه وتعالى : لأنه هو الدائم الباقي . ولهذا يعلِّم المولى – عز وجل – عبده المؤمن أن يكون دائماً يقظاً ، فطناً ، لبيباً ، فيقول سبحانه وتعالى : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ } [الفرقان : 58] .

أي : لا تتوكل على من قد تصبح غداً فتجده ميتاً ، ولكن توكل على الحي الموجود دائما ، العزيز الذي لا يقهر ، القوي الذي لا يغلب .

وينبه الحق سبحانه وتعالى المؤمنين : إن كنتم تخشون حين نعزلكم عن مجتمع الكفر لما فيه من عزوة كاذبة بالآباء والأبناء والإخوان والأقارب والمال ، فاعلموا أن الله هو الذي ينصر ، وهو الولي ، ولكن الكافرين لا مولى لهم؛ لأنهم يتخذون موالي من أغيار ، والأغيار لا ثقة فيها؛ لذلك يقال : إذا وصل الإنسان إلى القمة فهذه نهاية الكمال ، لأنه ما دام قد وصل إلى القمة وكل شيء في الدنيا يتغير ، فلا بد أن يتغير هو . ويقول القائل :

إذاَ تَمَّ شيءٌ بَدَأ نقصُه ... ترقَّبْ زوالاً إذَا قِيل تَمّ

لأن كل شيء ابن أغيار لا بد أن ينزل إلى أسفل ، ويوضح الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين أنه إذا كان قد طلب منهم أن يعزلوا أنفسهم عن مجتمع الكفر؛ فأفقدهم بذلك قوة ونصيراً ، فهم في مَنَعة أكبر؛ لأنهم حينئذ يكونون مع الله ، والله هو النصير ، وليس هذا كلاماً نظرياً ، وإنما هو كلام مؤكد بالوقائع التي شهدتموها ، وسبحانه وتعالى يقول بعد ذلك : { لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ . . . }

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25)

وقوله : { لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ } يلفتنا إلى أن النصر يكون من عند الله وحده ، والدليل على أن النصر من عند الله أنه سبحانه قد نصر رسوله والذين معه في مواطن كثيرة ، و { مَوَاطِنَ } جمع « موطن » والموطن هو ما استوطنت فيه . وكل الناس مستوطنون في الأرض ، وكل جماعة منا تُحيز مكاناً من الأرض ليكون وطناً لها ، والوطن مكان محدد نعيش فيه من الوطن

العام الذي هو الأرض؛ لأن الأرض موطن البشرية كلها ، ولكن الناس موزعون عليها ، وكل جماعة منهم تحيا في حيز تروح عليه وتغدو إليه وتقيم فيه .

والله سبحانه هنا يقول : { لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ } ، وما دام الحديث عن النصر ، يكون المعنى : إن الحق سبحانه قد نصركم في مواطن الحرب أي مواقعها ، مثل يوم بدر ، ويوم الحديبية ، ويوم بني النضير ، ويوم الأحزاب ، ويوم مكة ، وكل هذه كانت مواقع نصر من الله للمسلمين ، ولكنه في هذه الآية يخص يوماً واحداً بالذكر بعد الكلام عن المواطن الكثيرة ، فبعد أن تحدث إجمالاً عن المعارك الكثيرة يقول : { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ } إذن : فكثرة عدد المؤمنين في يوم حنين كان ظرفاً خاصًّا ، أما المواطن الأخرى ، مثل يوم بدر فقد كانوا قلة ، ويوم فتح مكة كانوا كثرة ، ولكنهم لم يعجبوا؛ وبذلك يكون يوم حنين له مزية ، فهو يوم خاص بعد الحديث العام .

{ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ } هذا الإعجاب ظرف ممدود على اليوم نفسه ، إذن فيوم حنين ليس معطوفاً على { مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ } ولكنه جملة مستقلة بنفسها؛ لأن الكثرة والإعجاب بالكثرة لم تكن في بقية المواطن ، وهذه دقة في الأداء اللغوي تتطلب بحثاً لغوياً . فكلمة { مَوَاطِنَ } هي ظرف مكان ، و { يَوْمَ حُنَيْنٍ } هي ظرف زمان ، فكيف جاز أن نعطف ظرف الزمان على ظرف المكان؟

ونقول : هذا هو ما يسميه العرب « احتباك »؛ لأن كل حدث مثل « أكل » و « شرب » و « ضرب » و « ذاكر »؛ كل حدث لا بد له من زمان ولا بد له من مكان ، فإذا قلت : أكلت ، نقول : متى؟ في الصبح ، أو في الظهر ، أو في العصر ، أو في العشاء؟ وأين؟ في البيت ، أو في الفندق ، أو في المطعم ، أو في الشارع .

إذن : فلا بد لكل حدث من ظرف زمان وظرف مكان ، فإذا راعيت ذلك أخذت الظرفية المطلقة؛ ظرفية مكان حدوث الفعل ، وظرفية زمان حدوث الفعل . فإذا قلت : أكلت الساعة الثالثة ولم أسألك أين تم الأكل؟ أو إذا قلت : أكلت في البيت ولم أسألك عن موعد الأكل ظهراً أو عصراً أو ليلاً ، يكون الحدث غير كامل الظرفية .

ومعلوم أن الزمان والمكان يشتركان في الظرفية ، ولكنهما يختلفان ، فالمكان ظرف ثابت لا يتغير . والزمان دائم التغير ، فهناك الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء . والزمان يدور ، هناك ماض وحاضر ومستقبل ، وهكذا يشترك الزمان والمكان في الظرفية ، ولكن الزمان ظرف متغير ، أما المكان فهو ظرف ثابت .

وجاءت الآية هنا بالاثنين ، ف { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ } هو زمان ومكان لحدث عظيم ، وأخذت الآية ظرف المكان في { مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ } وظرف الزمان في { وَيَوْمَ حُنَيْنٍ } فإذا قيل : لم يحضر ظرف

الزمان والمكان في كل واحدة ، نقول : لا ، لقد حضر ظرف المكان في ناحية وظرف الزمان في ناحية ثاني ، وهذا يسمونه – كما قلنا – « احتباك » . وقد حذف المعنى : لقد نصركم الله يوم مواطن كذا وكذا وكذا . فإذا عطفت عليها يوم حنين يكون المعنى « ومواطن يوم حنين » ، أي : جاء بالاثنين هنا . ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يكون هناك تكرار ، فأحضر واحدة هنا وواحدة هناك ، وهذا يظهر واضحاً في قوله تعالى : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ } [آل عمران : 13] .

فما دامت الأخرى { كَافِرَةٌ } تكون الأولى « مؤمنة » ، ولكن حذفت « مؤمنة » لأن { كَافِرَةٌ } تدل عليها ، وما دامت الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله ، فالفئة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان . وحذفت تقاتل في سبيل الشيطان؛ لأن { تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله } دلَّتْ عليها . وذلك حتى لا يحدث تكرار . ونجد أن المؤمن الذي يستمع إلى كلام الله تعالى لا بد أن يكون عنده عمق فهم ، وأن يكون كله آذاناً صاغية حتى يعرف ويتنبه إلى أنه حذف من واحدة ما يدل على الثانية . إذن : فيكون ظرف الزمان موجوداً في واحدة ، وظرف المكان موجوداً في واحدة ، وكلاهما يدل على الآخر . والمثال على ذلك أنه بعد أن انتهت هذه الغزوة ، وعاد المسلمون إلى المدينة مجهدين لم يخلعوا ملابس الحرب ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » .

فانطلق المسلمون – دون أن يستريحوا – إلى أرض بني قريظة ، وهم اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة ، وخانوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحالفوا مع الكفار ضد المسلمين ، وبينما الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة كادت الشمس تغيب ، فقال بعض الصحابة : إن الشمس ستغيب ولا بد أن نصلي العصر ، وصلوا . وفرقة ثانية من الصحابة قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منا ألا نصلي العصر إلا في بني قريظة ولم يُصَلُّوا حتى وصلوا إلى هناك .

ونقول : إن الفريقين استخدما المنطق؛ لأن الصلاة تحتاج إلى ظرف زمان وظرف مكان ، فالذي نظر إلى ظرف الزمان قال : الشمس ستغيب ، وصلى ، والذي نظر إلى ظرف المكان الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يُصَلِّ .

وأقر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفريقين ، واحترم اجتهادهما في : ظرفية الزمان ، وظرفية المكان . وفي هذا يروي نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيهم ، وقال بعضهم : بل نصلي ، لم يُرَدْ منا ذلك ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف واحداً منهم .

{ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً } والغنى هو عدم الحاجة إلى الغير ،

وحنين هو موضع في واد بين مكة والطائف ، تجمَّع فيه الكفار الذين ساءهم فتح المسلمين لمكة ، فأرادوا أن يقوموا بعملية مضادة تُضيّع قيمة هذا النصر . فاجتمعت قبائل هوزان وثقيف ، واختاروا مالك بن عوف ليكون قائدهم في هذه المعركة . واستطاع مالك بن عوف أن يجمع أربعة آلاف مقاتل ، وانضم إليهم عدد من الأعراب المحيطين بهم . ووضع مالك خطته على أساس أن يخرج الجيش ومعه ثروات المشاركين في الجيش من مال ، وبقر وإبل . وأن يخرج مع الجيش النساء والأطفال . وذلك حتى يدافع كل واحد منهم عن عرضه وماله فلا يفر من المعركة ، ويستمر في القتال بشجاعة وعنف؛ لأنه يدافع عن نسائه وأمواله وأولاده . وبذلك وضع كل العوامل التي تضمن له النصر . بينما المؤمنون عندما تبدأ المعركة سيقاتلون مدافعين عن دين الله ومنهجه .

واجتمع الكفار ونزلوا بوادٍ اسمه « وادي أوطاس » . وكان فيهم رجل كبير السن ضرير . اسمه « دريد بن الصِّمة » . وكان رئيساً لقبيلة « جشم » . فلما وصل إلى مكان المعركة سأل : بأي أرض نحن؟ فقالوا : نحن بوادي أوطاس . . فابتسم وقال : لا حزناً ضرس ولا سهلاً دهس ، أي أنها أرض مناسبة ليس فيها أحجار مدببة ، تتعب الذي يسير عليها ، وليست أرضا رخوة تغوص فيها أقدام من يسير عليها ، من « الحزن » فالحزن هو : الخشونة والغلظة ، و « ضرس » هو : التعب أثناء السير ، وأيضاً ليست أرضاً سهلة منبسطة رملية تغوص فيها الأقدام .

وعندما سمع العجوز بكاء الأطفال وثغاء الشاة ، قال : أسمع بكاء الصبيان وخوار البقر . فقالوا له : إن مالك بن عوف استصحب ذراريه واصطحب كل أمواله ، فقال : أما الأموال فلا بأس ، وأما النساء والذراري فهذا هو الأرعن – أي : لا يفهم في الحرب – أرسلوه لي ، فأحضروه له . فلما حضر قال : يا مالك ما حملك على هذا؟ قال : وماذا تريد؟ قال : ارجع بنسائك وذراريك إلى عُليًّا دارك ، فإن كان الأمر ذلك؛ لحقك من وراءك . وإن كان الأمر عليك لم تفضح أهلك وذراريك .

فقال له مالك : لقد كبرت وذهب علمك وذهب عقلك . وأصر على رأيه . ثم بدأ مالك بن عوف يرتب الجيش في الشِّعَابِ وتحت الأشجار حتى لا يراهم المسلمون عند مجيئهم . فيتقدمون غير متنبهين للخطر ، وحينئذ يتم الهجوم عليهم من كل جهة ومن كل مكان .

وعندما جاء جيش المسلمين لم يتنبهوا إلى وجود الكفار المختفين عن الأعين . وحينئذ أعطى مالك بن عوف إشارة البدء بالهجوم ، فخرج الكفار من كل مكان . وفاجأوا المسلمين بهجوم شديد ، قال المتحدث : فوالله ما لبث المسلمون أمامهم إلا زمن حلب شاة ، حتى إنه من قسوة المعركة وضراوتها وقوة المفاجأة انهزم جيش المسلمين في الساعات الأولى للمعركة ، ووصل بعض الفارين من القتال إلى مكة ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ساحة المعركة إلا تسعة بينهم العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان ممسكاً بالدابة التي يركبها رسول الله

صلى الله عليه وسلم . وسيدنا علي بن أبي طالب وكان يحمل الراية . وسيدنا الفضل ، وكان يقف على يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وسيدنا أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقف على يساره . وكان معهم أيمن بن أم أيمن وعدد من الصحابة .

وهنا نتساءل : لماذا حدثت هذه الهزيمة للمسلمين في بداية المعركة؟ لأنهم عندما خرجوا إلى الحرب قالوا : نحن كثرة لن نهزم من قلة ، وبذلك ذهبوا إلى الأسباب وتناسوا المسبب ، فأراد الله أن يعاقبهم عقاباً يخزيهم ويُعْلي من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث ، قال العباس – وكان العباس صاحب صوت عال : أذن في الناس ، فقال العباس بصوت عال : يا معشر الأنصار – يا أهل سورة البقرة ، يا أهل بيعة الشجرة . فلما سمع الناس نداء العباس ، قالوا : لبيك لبيك . وكان الذي يقول : « لبيك » يسمعه من هم وراءه ويقولون مثله ، حتى عاد عدد كبير من المؤمنين إلى القتال ، وحمى القتال واشتدت الحرب وصار لها أوار ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن حمى الوطيس ، أي اشتدت الحرب ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

ويروى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم البراء بن عازب ، فقد جاء في الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه . « أن رجلاً قال له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، إن هوزان كانوا قوماً رُمَاةً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : » أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب «

أي : أنه رسول الله ، والله لن يتخلى عنه ولن يخذله ، ولم يثبت أمام المؤمنين واحد من هوازن وثقيف ، وانتهت المعركة عن ستة آلاف أسير من النساء ، كما غنم المسلمون أموالاً لا حصر لها وعدداً كبيراً من الإبل والبقر والغنم والحمير . وأحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديل بن ورقاء وقال له : أنت أمير على هاذ المغنم . اذهب به وأنا سأتتبع الهاربين .

وانطلق جيش المسلمين إلى الطائف ليطارد الفارين . واختبأ مالك بن عوف قائد العدو . ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وقسم الغنائم ، وكاد تقسيم الغنائم أن يحدث فتنة بين المسلمين؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أعطى الغنائم للمؤلفة قلوبهم ، ولسائر العرب ولم يعط منها الأنصار ، لقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقارن بين شيئين ، بين سبايا هي أيضاً من متاع الدنيا فيعطي منها المؤلفة قلوبهم وبين حب الله ورسوله فيكون حظ الأنصار منه ، فالأنصار الذين آووه صلى الله عليه وسلم في رأيه صلى الله عليه وسلم يستغنون بحبهم لرسول

الله وقوة إيمانهم بالله عن مثل هذا المتاع الدنيوي ، إلا أنه على الرغم من ذلك شعر بعض من الأنصار بالغُصَّة ، وتأثر هذا البعض بذلك .

لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطي من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله إن هذا الحي قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيء . قال : فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا امرؤ من قومي وما أنا . قال : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة . قال : فخرج سعد فجمع الناس في تلك الحظيرة . قال : فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار قال : فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو له أهل . ثم قال : يا معشر الأنصار ما قَالَةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم . قالوا : بل الله ورسوله أمنُّ وأفضل . قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ولله ولرسوله المنُّ والفضل؟ قال : أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم ، أتيتنا مكَذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فأغنيناك

أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لهم ثلاثة أشياء من فضل الإسلام عليهم ، وهي أنه نقلهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى الأخوة والمحبة .

وعندما تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضل الأنصار على الدعوة ذكر أربع فضائل ، وهي أن أهل مكة كانوا قد حاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم فهاجر منها فآواه أهل المدينة ، وجاء الرسول والمؤمنون إلى المدينة لا يملكون شيئاً ، فأعطاهم الأنصار من أموالهم وزوجاتهم ، وكان الكفار يحاولون قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمَّنه الأنصار ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خذله قومه من قريش فنصره الأنصار .

عندما سمع الأنصار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذكر مفاخرهم . قالوا : المنة لله والرسوله ، أي : إننا معشر الأنصار لا نقول هذا الكلام الذي قلته أبداً؛ لأن حلاوة الإيمان وجزاء الإيمان أكبر من هذا بكثير ، وبهذا لا يكونون هم الذين أعطوا ، بل الإيمان هو الذي أعطاهم . فالإيمان نَفْعُه نَفْع أبدي . والحق تبارك وتعالى يقول : { قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ للإيمان } [الحجرات : 17] .

وعندما قال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم : بل المنة لله ولرسوله ، قال لهم رسول الله

عليه الصلاة والسلام :
« أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألَّفْتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم في رحالكم ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعْباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعبْ الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فلماً سمعوا هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وسلم بَكَوْا حتى اخضلَّتْ لحاهم وقالوا : رضينا بالله وبرسوله قسماً وحظاً . وانتهت المسألة .
وهكذا نرى أنه حين تأتي مقارنة بين شيئين ، لا بد أن نتفاخر بالشيء الدائم الباقي الذي حصلنا عليه ، أما الشيء الذي مآله إلى فناء فإنَّ من ليس معه يعيش كمن عاش معه ، وهو متاع الدنيا ، تعيش معه وتعيش بدونه . ولكن لا أحد يستغني عن الإيمان ، نستغني عن الدنيا نعم ، أما عن الإيمان وعن الله ورسوله فلا . وبعد أن قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم ، جاء وفد هوازن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة وقد أسلموا . فقالو : يا رسول الله إنَّ أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا منّ الله عليك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا : يا رسول الله خيَّرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا بل تردُّ علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا فقال لهم : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به فقال رسول الله صلى الله عليه سولم : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم . قال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقال عيَيْنة بن حصن بن حذيفة بن بدر : أما أنا وبنو فزارة فلا . قال عباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا ، قالت بنو سليم : لا ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عباس : يا بني سليم وهنتموني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول شيء نصيبه ، فردوا على الناس أبناءهم ونساءهم . . ذلك هو ما يشير إليه قول الحق ، تبارك وتعالى :
{ لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ } [التوبة : **25**] .

أي : أنكم بدأتم المعركة ولم يكن الله في حسبانكم ، بل كنتم معتمدين على كثرتكم فلم تنفعكم ولم تحقق لكم النصر؛ ولذلك فررتم خوفاً من الهزيمة ووجدتم الأرض ضيقة أمامكم ، أي : تبحثون هنا وهناك عن مكان تختبئون فيه فلا تجدون ، مع أن الأرض رحبة أي واسعة ، ولكنها أصبحت ضيقة في نظركم وأنتم تفرون من المعركة . إلا أن الحق سبحانه وتعالى لم يرد أن ينهي المعركة هذا الإنهاء . ولكنه أراد فقط أن ينزع من قلوب المسلمين المباهاة بكثرة العدد وظنهم أن اللجوء إلى الأسباب الدنيوية هو الذي سيحقق لهم النصر . أراد منهم سبحانه وتعالى أن يعلموا جيداً أنهم إنما ينتصرون بالله عز وجل ، وأن كثرتهم دون الاعتماد عليه سبحانه لا تحقق لهم شيئاً .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { ثُمَّ أَنَزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين . . . }

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (26)

أي : أن الله تبارك وتعالى أنزل سكينته أولاً على رسوله وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه ، ثم أنزلها على المؤمنين الذين فردوا من المعركة ثم عادوا إلى القتال مرة أخرى ، وقوله تعالى :

{ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الذين كَفَرُواْ وذلك جَزَآءُ الكافرين } [التوبة : 26] .

وقد حدَّثونا عن أن الملائكة نزلت وثبَّتت المؤمنين ، وألقت الرعب في قلوب الكافرين وأنزلت العذاب بهم . والذين آمنوا هم الذين شهدوا بذلك؛ لأنهم وصفوا كائنات على جياد بُلْق ولم يكن عندهم مثلها .

وإذا حدثنا القرآن الكريم بأن الملائكة قد نزلت وأن هناك من رآهم ، فعلى الإنسان منا أن يقف موقف المؤمن ، وأن يثق في القائل وهو صادق فليؤمن بما قال ولا يبحث عن الكيفية . وإن كان منكم من يقف أمام هذه المسألة فعليه ألا يقف وقفة الرافض لوجودها ، ولكن وقفة الجاهل لكيفيتها؛ لأن وجود الشيء مختلف تماماً عن إدراك كيفية وجوده .

وهناك أشياء كثيرة في الكون ، موجودة وتزاول مهمتها ، ونحن لا ندرك كيفية هذا الوجود . وليس معنى عدم إدراكنا لها أنه غير موجودة . وكل الاكتشافات التي قدمها لنا العلم المعاصر كانت موجودة . ولكننا لم نكن ندرك كيفية وجودها من قبل . فالجاذبية الأرضية كانت موجودة . لكننا لم ندرك وجودها ولا كيفية عملها ، وكذلك الكهرباء كانت موجودة في الكون منذ بداية الخلق ، ولكننا لم نكن ندرك وجودها حتى كشف الله تعالى لنا وجودها فاستخدمناها ، والميكروبات كانت موجودة في الكون تؤدي مهمتها ولم نعرفها ، حتى كشف الله لنا عنها فعرفنا وجودها وكيفية هذا الوجود ، فكل هذه الأشياء كانت موجودة في كون الله منذ خلق الله الكون . ولكننا لم نكن ندرك وجودها . وعدم معرفتنا لم ينقص من هذا الوجود شيئاً؛ ولذلك إذا حُدِّثْت بشيء لا يستطيع عقلك أن يفهمه فلا تنكر وجوده؛ لأن هناك أشياء لم نكن نعرف عنها شيئاً ،

ثم أعطانا الله تعالى العلم فوجدنا أنه تعيش بقوانين مادية محددة . إذن : فوجود الشيء يختلف تماماً عن إدراك هذا الوجود .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { ثُمَّ أَنَزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا } كلمة { لَّمْ تَرَوْهَا } تعطي العذر لكل من لم ير ، ويكفي أن الله قال ليكون هذا حقيقة واقعة . والحق سبحانه وتعالى يقول : { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ } [المدثر : 31] .

وحين كان يقال لنا : إنّ لله خلقاً هم الجن ، كما أن له خلقاً آخرين هم الملائكة ، والجن يروننا ونحن لا نراهم . كان البعض يقف موقف الاستنكار . وكذلك قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يَجْرِي من ابن آدم مَجْرى الدم » .

وكان بعض الناس ينكرون هذا الكلام ويتساءلون : كيف يدخل الشيطان عروق الإنسان ويجري منها مجرى الدم؟! وعندما تقدمنا في العلم التجريبي واكتشفنا الميكروبات ورأينا من دراستها أنه تخترق الجسم وتدخل إلى الدم في العروق ، هل يحس أحد بالميكروب وهو يخترق جسمه؟ هل علم أحد بالميكروب ساعة دخوله للجسم؟ طبعاً لا ، ولكن عندما يتوالد ويتكاثر ويبدأ تأثير يظهر على أجسامنا نحس به ، وهذا يدل على أن الميكروب بالغ الدقة مبلغاً لا تحس به شعيرات الإحساس الموجود تحت الجلد .

ومن فرط دقته يخترق هذه الشعيرات أو يمر بينها ونحن لا ندري عنه شيئاً ، ويدخل إلى الدم ويجري في العروق ونحن لا نحس بشيء من ذلك ، والدم يجري في عروق يحكمها قانون هو : أن مربع نصف القطر يوزع على الكل ، ومثال ذلك ما يحدث في توزيع المياه ، فنحن نأتي بماسورة رئيسية نصف قطرها ثماني بوصات وندخلها إلى قرية ، تكون كمية الصب هي 8 × 8 . . أي 64 بوصة مربعة ، حينما نأتي لنوزعها على مواسير أخرى فرعية نأخذ منها ماسورة نصف قطرها أربع بوصات ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصتان ، ومنها نأخذ ماسورة نصف قطرها بوصة أو نصف بوصة ، المهم أن مربع أنصاف أقطار المواسير الفرعية يساوي ما تصبه الماسورة الكبيرة .

وهكذا عروق الدم ، فالدم يجري في شرايين واسعة وأوردة وشعيرات دقيقة . . ولكن دقة حجم الميكروب تجعله يخترق هذه الشعيرات فلا ينزل منها دم ، وعندما تضيق هذه الشرايين تحدث الأمراض التي نسمع عنها ، من تراكم الكوليسترول أو حدوث جلطات ، فيتدخل الطب ليوسع الشرايين؛ لأنها مواسير الدم . وهناك جراحات تجري بأشعة الليزر أو غيرها من الاكتشافات الحديثة تخترق هذه الأشعة الجلد بين الشعيرات؛ لأنها أشعة دقيقة جداً فلا تقطع أي شعيرة ولا تُسيل أي دماء .

إذن : فكل ما في داخل الجسم محسوب بإرادة الله تعالى ، ولكل ميكروب فترة حضانة يقضيها

داخل الجسم دون أن نحس به ، ثم بعد ذلك يبدأ تأثيره فيظهر المرض وتأخذ عمليات توالد الميكروب في الدم ومقاومة كرات الدم البيضاء له فترة طويلة ، بينما نحن لا نحس ولا ندرك ما يحدث .

فإذا كان « الميكروب » وهو من مادتك ، أي : شيء له كثافة وله حجم محدد ولا تراه إلا بالميكروسكوب فتجد له شكلاً مخفياً ، وهو يتوالد ويتناسل وله دورة حياة ، إذا كان هذا « الميكروب » لا تحس به وهو في داخل جسمك؛ فما بالك بالشيطان الذي هو مخلوق من مادة أكثر شفافية من مادة الميكروب ، هل يمكن أن تحس به إذا دخل جسدك؟ لا ، وإذا كان الشيء المادي قد دخل جسدك ولم تحس به ، فما بالك بالمخلوق الذي خلقه الله تعالى من مادة أشف وأخف من الطين؟ ألا يستطيع أن يدخل ويجري من ابن آدم مجرى الدم؟!

فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » . فلا تتعجب ولا تُكذِّب لأنك لا تحس به . فالله أعطاك في عالم الماديات ما هو أكثر كثافة في الخلق ويدخل في جسدك ولا تحس به .

إذن : فالعلم أثبت لنا أن هناك موجودات لا نراها . ولو أننا باستخدام الميكروسكوبات الإلكترونية الحديثة فحصنا كل خلية في جسم الإنسان فإننا سنرى العجب ، سنرى في جلد الإنسان الذي نحسبه أملسَ آباراً يخرج منها العرق ، وغير ذلك من تفاصيل بالغة الدقة لا تدركها العين ، فإذا حدَّثنا الله سبحانه وتعالى لنا ما يطمئن بشريتنا فقال : { جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا } ، فإن قال واحد : إنَّه رآها ، وقال آخر : لم أرَ شيئاً ، نقول : إن قول الحق { لَّمْ تَرَوْهَا } أي : لم تروْها مجتمعين ، فهناك من لمحها ، وهناك من لم يرها .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَعذَّبَ الذين كَفَرُواْ } أي : بالقتل أو بالأسر أو بسلب أموالهم ، وقوله تعالى : { وذلك جَزَآءُ الكافرين } أي : أن ما لحق بهم من هزيمة كان جزاءً لهم على كفرهم . ولكن البعض يتساءل : لماذا لم ينزل الجزاء وتتم الهزيمة من أول لحظة ، لكان ذلك أخف على أنفسهم وأقل عذاباً ، ولكنه أعطاهم أولاً فرحة النصر حتى تأتي الهزيمة أكثر قسوة وأكثر بشاعة ، والشاعر يقول :

كَما أدركَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامةٌ ... فلمَّا رأوْهَا أقشعتْ وتجلَّت

فحين تمر سحابة على قوم يعانون من شدة العطش ، هم يحلمون أن تمطر عليهم ، لكن الحلم يتبدد تماماً كالمسجون الذي يعاني من عطش شديد . فيطلب من السجان شربة ماء فيقول له السجان : سأحضرها لك . وفعلاً يذهب السجان ويحضر له كوب ماء مثلج فيعطيه له ويمسك المسجون الكوب بيده ونفسه تمتلئ فرحاً . وإذا بالسجان يضربه بشدة على يده فيسقط الكوب على الأرض ، فيصاب المسجون بصدمة شديدة . وهذه أبشع طرق التعذيب . ولو أن السجان

رفض إحضار كوب الماء من أول الأمر لكان ذلك أقل إيلاماً للسجين . لكن بعد أن يحضر كوب الماء للمسجون ويضعه في يده ثم يحرمه منه فهذا أكثر عذاباً . وهكذا أراد الله أن يزيد من عذاب الكافرين فأعطاهم مقدمات النصر وحلاوته أولاً ، ثم جاءت من بعد ذلك مرارة الهزيمة لتسلبهم كل شيء ، وبذلك تجتمع لهم فجيعتان : فجيعة الإيجاب ، وفجيعة السلب .

ثم تأتي لمحة الرحمة التي يغمر بها الله سبحانه وتعالى كونه كله ، ويفتح الباب لكل عاص ليعود إلى طريق الإيمان فيتقبله الله ، ويقول الحق تبارك وتعالى : { ثُمَّ يَتُوبُ الله مِن بَعْدِ ذلك على مَن يَشَآءُ . . . }

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (27)

وهذه هي عظمة الخالق ، الرحمن الرحيم ، فهو يفتح الباب دائماً لعباده؛ لأنه هو خالق هذا الكون ، وكل من عصى يفتح الله أمامه باب التوبة ، وهذه مسألة منطقية؛ لأن الذي يكفر والذي يعصي لا يضر الله شيئاً ، ولكنه يؤذي نفسه ويحاول أن يفتري على نواميس الحق ، وحين يعلم العاصي أنه لا ملجأ له إلا الله ، فالله عز وجل يفتح له باب التوبة .

وبعد أن بيَّن الله سبحانه وتعالى لنا في هذه السورة أن الله ورسوله بريء من المشركين ، وكشف عن طبيعتهم بأنهم لا عهد لهم ولا ذمة ، ويصفي هذه المسائل تصفية عقدية في { بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ } ، وطلب منا أن ننهي العقود التي بيننا وبينهم . . فمن نقض العهد انتهى عهده ، ومن حافظ عليه حافظنا نحن على العهد إلى مدته ، ثم طلب من المشركين ألا يقربوا المسجد الحرام ، وصفَّى أي ضغينة أو ذنب بفتح باب التوبة . ومن بعد ذلك ينتقل سبحانه من المعاهدة التي انتهت مع ذوات الكفار إلى ذوات الكفار بأنفسهم ، فيقول تبارك وتعالى : { يأيها الذين آمنوا إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا . . . }

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (28)

أي : أنه لا يكفي أن يقطع المؤمنون كل عهودهم مع المشركين ، بل لا بد أن يبرأوا أيضاً من المشركين أنفسهم؛ لأنهم نجس ، والنجس هو الشيء المستقذر الذي تعافه النفس وتنفر منه ، وقد يكون المشرك من هؤلاء مقبولاً من ناحية الشكل والملبس ، ولكن هذا هو القالب ، والحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم إنما يتكلم عن المعاني وعن الخلق . فالله عز وجل لا ينظر إلى القوالب ، بل إلى القلوب ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »

.

فقد تكون الصورة مقبولة شكلاً ، لكن العقيدة التي توجد في قلوب تلك الأجساد قذرة ونجسة ، وسبحانه لا يأخذ بالظواهر ولا بالصور ، بل بالقيم . وأنت إذا ما نظرت إلى القيم وإلى العقائد الحقة الصادقة ، تجد كل عقيدة تنبئ عن تكوين مادتها ، وعلى سبيل المثال ، حينما تكون فرحاً ، يتضح ذلك على أساريرك ، ومن سيقابلك سيلحظ ذلك ويعرف أنك مبتهج ، وإن كنت غاضباً أو تعاني من ضيق ، فهذا يتضح على أساريرك .

إذن : فالمادة تنفعل بانفعال القيم ، وما دامت القيم فاسدة فالمادة التي يتكون منها جسده تكون متمردة على صاحبها؛ لأن المادة بطبيعتها عابدة مسبحة لله ، وكذلك الروح بطبيعتها عابدة مسبحة لله تعالى ، ولا ينشأ الفساد إلا بعد أن توضع الروح في المادة ، ثم تتكون النفس من الاثنين معاً ، المادة والروح ، فإن غلَّبت النفس النفس منهج الله صارت مطمئنة ، وإن تأرجحت النفس بين الطاعة والمعصية ، فإما أن تطيع فتكون نفساً لوامة ، وإما أن تكفر وتتخذ طريق الشر فتكون نفساً أمارة بالسوء . أما قبل أن تنفخ الروح في المادة ، فكل منها مسبح لله تعالى؛ لأن كل شيء في الوجود عابد مسبح ، والنفس في كل سلوكها مقهورة لإرادة صاحبها بتسخير من الله عز وجل ، وحين يأتي الموت ، تنتهي الإرادة البشرية وتسقط سيطرة الإنسان على جسده ، بل إن هذا الجسد يشهد على صاحبه يوم القيامة . والإنسان في الحياة الدنيا يعيش وإرادته تسيطر على مادته بأمر من الله ، فاليد قد تضرب إنساناً ، وقد تعين إنساناً آخر وقع في عسرة ، ولسان المسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، ولسان الكافر يشرك مع الله آلهة أخرى

.

إذن : فمادة الإنسان خاضعة لإرادة صاحبها في دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخرة فلا تأثير له على المادة ، وتتحرر المادة من طاعة صاحبها في المعصية ، وتتمرد عليه ، وتشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها في المعصية . والحق سبحانه وتعالى يقول : { حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }

[فصلت : 20-21] .

فكأن جوارح الإنسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتني في الدنيا وأكرهتني على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لأنني عابدة مسبحة لله ، وإن ما أمرتني به يخرج عن طاعة الله عز وجل ، وسبق أن ضربت المثل بقائد الكتيبة الذي يصدر أوامر خاطئة فيطيعه الجنود ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى شكوا له مما كان قائد الكتيبة يكرههم عليه ، كذلك أبعاض الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة . فإن كنت عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك . وإن كنت غير ذلك كانت

جوارحك ضدك ، فاللسان مثلاً عابد مسبح في ذاته ، فإذا أكرهته على أن يشرك بالله فهو مُكْرَهٌ في الدنيا ، ويصير شاهداً عليك يوم القيامة . والحق سبحانه وتعالى ينادي يومئذ قائلاً : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

وهنا يقول الحق عز وجل : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ } أي : أن عقيدتهم الفاسدة تنضح على تصرفاتهم ، وسبحانه وتعالى يربب المعاني الإيمانية في النفوس أي يزيدها ، ومثال ذلك : نحن نرجم إبليس كمنسك من مناسك الحج ، نرجم قطعة من الحجر رمزنا إليها بالشيطان ، ونحن لا نرى الشيطان ، وقد وضعنا له رمزاً وأرسينا في أعماقنا أن الشيطان عدو لنا ويجب أن نرجمه لنبتعد عن مراداته ، وبذلك أبرزنا هذه المعاني في أمر حسي؛ لنوضح للنفس البشرية أن الشيطان عدو لنا ، وكلما وسوس الشيطان لنا بأمر نرجمه بأن نبين لأنفسنا قضايا الإيمان الناصعة فيهرب منا .

وكل منا عليه أن يتذكر أن الشيطان سوف يضحك على العاصين والكافرين في يوم القيامة ، ويقول ما أورده الحق سبحانه وتعالى على لسانه : { وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي } [إبراهيم : 22] .

وفي هذا القول سخرية ممن صدقوه؛ لأن السلطان إما سلطان القهر بأن تأتي لإنسان بما هو أكبر منه وتقهره على فعل شيء بالقوة ، وإما سلطان الإقناع بأن تقنع إنساناً بأن يفعل شيئاً .

والشيطان ليس له سلطان القهر والحجة .

والحق سبحانه وتعالى عندما يقول : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } فإنه يوضح لنا أن نجسهم يحتم علينا أن نمنعهم من دخول الأماكن التي لا يدخلها إلا الإنسان الطاهر . وجعل الحق سبحانه وتعالى النجاسة المعنوية مثلها مثل النجاسة المادية ، ولذلك قال العلماء : ما دام الحق قد وصفهم بأنهم نجس فلا بد أن يكون فيهم نجس مادي ، ولذلك إذا اقتربت منهم تجد لهم رائحة غير طيبة ، لأنهم لا يتطهرون من حدث ، ولا يغتسلون من جنابة . وعندما ذهبنا إلى الجزائر بعد تحريرها من فرنسا ، لم نجد في البيوت حمامات؛ لأن الواحد من المستعمرين لا يذهب إلى الحمام إلا كل عشرين يوماً مثلاً ، لذلك جعلوا الحمامات بعيداً عن المساكن ، ولكن بعد أن تحررت الجزائر صار في البيوت حمامات؛ لأن الثقافة الإسلامية مبنية على الطهارة ، ويتوجب على المسلم أنه كلما دخل الإنسان الحمام تطهر ، وكلما كان جنباً اغتسل .

ولقد قال البعض : لو أنني سلَّمت على مشرك ويده رطبة . . فلا بد أن أغسل يدي . فإذا كانت يده جافة فيكفي أن أمسح على يدي . وفي هذا احتياط وتأكيد على اجتناب هؤلاء المشركين . وإذا كنا نجتنبهم أجساداً وقوالب ، ألا يجدر بنا أن نجتنبهم قلوباً؟

وقد أنزل الحق سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة في العام التاسع من الهجرة وهو العام الذي صدر

فيه منع المشركين من الاقتراب من المسجد الحرام والبراءة من هؤلاء المشركين ، وتساءل العلماء : هل الممنوع والمحرم هو اقتراب المشرك من المسجد الحرام ، أم من الحرم كله؟ وحدد الإمام الشافعي التحريم على المشركين بالوجود في المسجد الحرام . ومع احترامنا لاجتهاد الإمام الشافعي نقول : إن الحق سبحانه وتعالى قال : { فَلاَ يَقْرَبُواْ } ولم يقل : فلا يدخلوا . وتحريم الاقتراب يعني ألا يكونوا قريبين منه ، وأقرب شيء للمسجد الحرام هو كل الحرم ، ولو كان المراد هو المسجد فقط لمنع الحق دخولهم إليه بالنص على ذلك .

وهكذا نرى كيف يمكن أن يجتهد الإنسان ويبحث في المعاني ليستخرج المضمون الحق . ويتابع المولى سبحانه وتعالى قوله : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ الله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } . وفي هذا القول الكريم حديث عن الغيب . والغيب –كما عرفنا – هو ما يغيب عنك وعن غيرك ، أما الشيء الذي يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً ، فإذا سرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف من الذي سرق ، والسارق في هذه الحالة غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك؛ فالسارق يعرف نفسه؛ والذي دبر له الجريمة يعرفه ، ومن رآه وستر عليه يعرفه . وأنت – أيضاً – لا تعرف مكان المسروقات ، ولكن السارق يعرف المكان الذي خبأها فيه .

إذن : فهي غيب عنك وليست غيباً عن غيرك . وهذه لعبة الأفاقين والنصابين الذين يُسخّرون الجن ، فما دام الشيء معروفاً ومعلوماً لغيرك من الناس؛ فالكشف عنه مسألة سهلة ، ولكنّ هناك غيباً عنك وعن غيرك ، وهذا هو ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى في قوله سبحانه : { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . } [الجن : **26–27**] .

ولكنْ هناك غيبٌ عن الناس جميعاً ، ولكنه لن يظل غيباً إلى آخر الزمان ، فمثلاً الكهرباء كانت غيباً واكتشفناها ، وتفتيت الذرة كان غيباً وعرفناه ، وقوانين الجاذبية كانت غيباً ثم دخلت في علم الإنسان فأصبحت معلومة له وليس هذا هو الغيب الذي يقصده الله سبحانه وتعالى في قوله : { عَالِمِ الغيب } ، فهذا غيب يختص نفسه به ، لا تقل : إن فلاناً يعلم الغيب ، ولكن قل : إنه مُعلَّم غيب ، والمسائل الغيبية : إما أن يحجبها الزمان أو يحجبها المكان ، فالآثار المطمورة مثلاً ، تعبِّر عن شيء ماض واندثر ، وفيه أخبار الأمم السابقة ، ولا يعرفها أحد ، وستره حجاب الزمن الماضي ، إلى أن يتم الكشف عنها ويهيّئ الله لها من يفكُّ ألغازها .

أما إبلاغ الله رسوله من أنباء الأمم السابقة مما جاء في القرآن الكريم فهو اختراق لحجاب الزمن الماضي ، نحو قوله تعالى : { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } [آل عمران : **44**] .

ويقول سبحانه وتعالى : { وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ

الشاهدين * وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ . . } [القصص : 44-45] .
وقوله سبحانه : { وَمَا كُنتَ } في آيات أخرى دليل على أن الله سبحانه وتعالى أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بما كان مستوراً في الزمن الماضي . أما الشيء الذي سوف يحدث في المستقبل ، فهو محجوب عنك بحجاب الزمن المستقبل ، وقد اخترق القرآن الكريم حجاب المستقبل في آيات كثيرة كلها تبدأ بحرف السين ، وحرف السين دليل على أن الشيء لم يحدث بعد ، وقوله تعالى : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ } [فصلت : 53] .
دليل على أنه من الزمن المستقبل يكشف الله لنا عن آياته الموجودة في الأرض ، وقوله تعالى : { الم * غُلِبَتِ الروم * فِي أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } [الروم : 1-3] .
وهذا اختراق لحجاب المستقبل؛ لأن النصر حدث بعد نزول هذه الآية بتسع سنوات . إذن : فالذي يحدث في المستقبل محجوب عنك بالزمن المستقبل ، ولكن هناك شيئاً يحدث في الحاضر ولا نعرفه وهو محجوب عنك بحجاب المكان ، فما يحدث في مكان لست موجوداً فيه لا تعرفه ، فأنت إن كنت جالساً في مكة مثلاً ، فأنت لا تعرف ما يحدث في المدينة المنورة لأنه محجوب عنك بحجاب المكان ، وهناك أيضاً حجاب النفس ، أي : أن ما يدور في نفسك لا يعرفه أحد غيرك؛ لأنه محجوب بحجاب النفس .
وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } فسبحانه وتعالى يخاطب قوماً يريد منهم أن ينفذوا هذا الأمر ، ولكنه سبحانه يعلم السرائر التي تستقبل النص . مثلما يأتي إنسان ويخبرك أن المخبز القريب من منزلك سوف يغلق فأول ما يتبادر إلى ذهنك السؤال : ومن أين سنأتي بالخبز؟ أو أن يقال لك : « إن الباخرة التي تحمل اللحم والخضروات ضلت الطريق » فأول ما يخطر على بالك لحظتها : ومن أين نأكل؟
وكان المشركون يأتون إلى الحج ومعهم أموالهم ويتاجرون وينفقون ، هذه الفترة تمثل بالنسبة لمن يعيشون حول بين الله الحرام فترة الرواج المادي الذي يعيشون عليه طوال العام .
فإذا كان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : { إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا } فأي شيء يختلج في نفوس المسلمين؟ لا بد أن يدور في أعماقهم السؤال : ومن الذي سيشتري بضائعنا؟ لكن هل ترك الله عز وجل مثل هذا القول دون أن يرد عليه؟ لا ، فقد رد على التساؤل بقوله تعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ } .

وهكذا كشف الله حجاب النفس ، وردَّ على ما سيدور في نفوس المؤمنين في نفس الآية التي حرم فيها على المشركين أن يقتربوا من المسجد الحرام ، ولم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يعلن المؤمنون ما في أنفسهم ، بل رد على ما يجول بخواطرهم قبل أن يعلنوه .

وحين يكشف الله عز وجل حجاب النفس بهذا الشكل ، فالمؤمن الذكي يقول : هذا ما جاء في بالي . ولأطمئن لأنه عرف ما بنفسي فسوف يرزقني . ولو لم يأت ذلك في بالهم لَكَذَّبوا النص . ولو كذبوا النص لما بقوا على الإيمان ، وما داموا قد بَقَوْا على الإيمان فقد جاء النص معبراً عما يجول بأنفسهم تماماً .

والله سبحانه وتعالى كشف حجاب النفس في آيات كثيرة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى عن المنافقين والكفار : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ } [المجادلة : 8] .

وقول النفس لا يسمعه أحد ، ولو أن هؤلاء لم يقولوا هذا في أنفسهم لقالوا : والله ما خطر ذلك في نفوسنا . ولأنهم قالوه في أنفسهم فقد بُهِتُوا لكشف القرآن الكريم لما يدور داخل أنفسهم . ولقد رد الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة على ما سيدور في خواطر المؤمنين عندما يستمعون إليها ، فلم ينتظر الحق سبحانه وتعالى حتى يشكو المؤمنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم خوفهم الفقر وقلة الرزق ، بل أجاب سبحانه وتعالى على ذلك قبل أن يخطر على بالهم . فكأن الحق سبحانه وتعالى يُشرِّع حتى للخواطر قبل أن تخطر على البال ، ولا يترك الأمور حتى تقع ثم يُشرِّع لها .

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } والعيلة هي الفقر ، ويتابع الحق جل وعلا : { فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ } ، ولم يقل الحق « سيغنيكم » بل قال : { فَسَوْفَ } وهي تقتضي زمناً سيمر ولكنه زمن قريب؛ لأن الخير الذي سيأتي له أسباب كثيرة كفيلة بتحقيقه كأن يعوضهم الله عما كان يأتي به الكفار بأن تمطر السماء مطراً فينبت النبات ، وهذه تحتاج إلى زمن ، وأن يأخذوا بالأسباب بأن يروج لهم تجارة على غير المشركين ، أو يكشف لهم من كنوز الأرض ما يغنيهم . ولذلك قال : { فَسَوْفَ } . والأسباب تحتاج إلى وقت ، فنزلت الأمطار قرب جدة التي أسلمت ونبت الزرع في وادي خليط ، وتبالي باليمن وجرش وصنعاء ، وجاءت أحمال البعير بالخير لأهل مكة وحدثت الفتوحات الإسلامية ، فجاء الخير من الجزية والخراج . وهكذا نرى أن { فَسَوْفَ } امتدت لمراحل كثيرة ، وما زالت موجودة ممتدة حتى الآن .

إذن : فقد أخذت الأمد الطويل . على أننا لا بد نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً } هي حيثية بأن المؤمن عليه ألا يتهاون في أمر دينه رغبة في تحقيق أمر من أمور الدنيا ، فكل من يرتكب معصية خوفاً من أن تضيع منه فائدة مادية أو دنيوية ، كأن يخشى قول الحق خوفاً من أن يضيع منع منصبه ، أو يغضب عليه صاحب العمل فيطرده من وظيفته ، نقول له : لا عذر لك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ } .

وحيث إن الرزق من عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو كلام الله عز وجل ، فلا عذر لأحد أن يرتكب معصية بحجة المحافظة على رزقه ، أو بحجة أنه يدفع الفقر عن نفسه وبيته وأولاده .

على أن قوله تعالى : { إِن شَآءَ } قد تجعل الإنسان يظن أن الزمن سوف يباعد بينه وبين الرزق؛ لأنه سبحانه قد يشاء أو لا يشاء ، فكيف يكون هذا الأمر وهو سبحانه أراد بالآية طمأنة المسلمين .

وإذا كان الله قد قال : { وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ }

فإننا نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الصلة الدائمة بعبده وألا يفسد على العبد الرجاء الدائم في الله تعالى . وقوله عز وجل : { إِن شَآءَ } هو إبقاء لهذا الرجاء؛ لأن العبد سيظل في رجاء إلى الله عز وجل فيظل الله تعالى في باله؛ ولأنه سيطلب دائماً رضا الله فإن هذا يجعله يبتعد عن المعصية ويتمسك بالطاعة .

وفوق ذلك كله ، فإن الحق تبارك وتعالى له طلاقة القدرة في كونه ، فقدر الله وقضاؤه ليسا حجة على الله سبحانه وتعالى تقيد مشيئته سبحانه ، فمشيئة الله مطلقة لا يقيدها حتى قدر الله . فهو إن شاء حدث القدر . وإن شاء لم يحدث . وهكذا تظل طلاقة قدرة الله في كونه .

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحة من لمحات الغيب ، فيخبر الواحد منهم الناس ، فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه؛ حتى يظل الله وحده عالم الغيب؛ فما دام ذلك اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه . فسبحانه يُغيِّر أحداث الغيب ولا يعطي لذلك الشخص خبراً عن أي غيب آخر .

إذن فكلمة : { إِن شَآءَ } هي إثبات لطلاقة قدرة الله في كونه ، فإن شاء أعطاكم ، وإن شاء لم يُعْطِكم ، فالإعطاء له حكمة ، والمنع له حكمة ، فقد يفتري البعض بالنعمة فيحجبها الحق عنهم ، وهذا ما حدث في كثير من البلاد التي طغت وكفرت بنعمة الله عليها؛ لأنه سبحانه لو ترك النعمة هكذا بدون ضوابط لاستشرى في تلك البلاد الفساد والمعاصي ، إذن : فالمشيئة تقتضي إعطاءً ، أو منعاً ، والإعطاء له حكمة ، والمنع له حكمة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يعامل خلقه على أنهم من الأغيار القُلَّب؛ منهم من يأتيه النعمة فتطغيه ، ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

{ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ } [الفجر : **15–16**] .

أي : أن الإنسان إذا أنعم الله تعالى عليه ، عدّ هذا كرماً من الله عز وجل ، وإذا ما ضيق الله عليه الرزق اعتبر ذلك إهانة وعدم رضا من الله .

ويرد الله تبارك وتعالى ليصحح المفهوم فيقول :

{ كَلاَّ } أي لا المال دليل على الإكرام ، ولا قلة المال دليل على الإهانة . { كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ

اليتيم * وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً } [الفجر : 17-20] .

إذن : فالمال إذا جاء ليطغيك يكون نقمة عليك وليس نعمة لك ، وإذا كانت قلة المال تمنع طغيانك فهي نعمة وليست نقمة . ولذلك قال تبارك وتعالى : {كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7] .

قد يمنع عنك المال الذي إن وصل إليك غرَّك فتحسب أنك في غنى عن الله تعالى وتطغى ، وهذا المنع نعمة وليس نقمة ، إذن فقوله تبارك وتعالى : { فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ } هو إبقاء لطلاقة القدرة في الكون حتى يكون الإغناء لا بالمادة وحدها ولا بالمال وحده ، ولكن بالقيم أيضاً ، فلا يذهب المال قيم السماء ولا يبعد عن منهج الله .

وقوله سبحانه وتعالى : { إِن شَآءَ } يعني : أنه سبحانه إن شاء أعطى ، وإن شاء منع ، فلا مانع لنا أعطى ، ولا معطي لما منع ، وهي طلاقة المشيئة ، في حدود حكمة الله عز وجل ، فلا تقل حين يمنع : إنه لم يحقق قوله : { فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ } لأن الإغناء كما يكون بالمادة ، يكون أيضاً إغناء بالقيم . ويؤكد هذا قَوْله سبحانه وتعالى : { إِنَّ الله عَلِيمٌ حَكِيمٌ } أي : عليم بالأمر الذي يصلح لكم ، حكيم في وضع العطاء في موضعه والمنع في موضعه .

ثم يقول الحق بعد ذلك : { قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق . . . }

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)

وهنا يعود الحق سبحانه وتعالى إلى التحدث عن القتال ، ونعلم أن الذين تحدث عنهم المولى سبحانه في هذه السورة ، هم المشركون وأحوالهم ، والأمر بإلغاء المعاهدة معهم ، وإبعاد ذواتهم عن المسجد الحرام ، وتقتيل من يحاول البقاء منهم ليحض على الشرك؛ حتى لا يجتمع في جزيرة العرب دينان .

وعرفنا من قبل السبب ، وأما الذين يتحدث عنهم الله في هذه الآية فهم غيرهم . . . فرغم أن الحق سبحانه وتعالى أرسل لمشركي العرب محمداً صلى الله عليه وسلم وهو رسول من أنفسهم ، فهم يعرفونه حق المعرفة ، كما أن المعجزة التي جاء بها صلى الله عليه وسلم من جنس فصاحتهم ، فإذا كذبوه فهم مخطئون ، ورغم هذا كذبوه ولم يؤمنوا به ، أما خارج الجزيرة فالرسول ليس منهم ، والقرآن لم ينزل بلغتهم ، وكان عليهم أن يأخذوا من المنهج التطبيق المناسب . وهكذا نرى أن مصادمة الإيمان لم تكن من مشركي مكة فقط ، بل كانت أيضاً من بعض يهود المدينة وبعض من نصارى نجران ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد حدد في هذه السورة موقف الإيمان

من المشركين به ، فقد أراد أيضاً أن يحدد موقف الإيمان من أهل الكتاب .
ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين أهل الشرك وأهل الكتاب ، فالمشركون لم يكونوا يؤمنون بالله إلهاً واحداً بل معه شركاء ، ولكن أهل الكتاب يؤمنون بالإله ويؤمنون برسول وكتاب سماوي ، وهم بذلك أقرب إلى الإيمان . ولذلك نجد القرآن الكريم يعرض لنا مثل هذه القضية كطبيعة فطرية ، فنجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حزن هو وصحابته حين غُلِبتْ الروم في أدنى الأرض .
لماذا حزن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يعلم أن الروم سيقفون أيضاً ضده؟ لقد حزن صلى الله عليه وسلم لأنهم يؤمنون أن للكون خالقاً واحداً وأن له رسلاً يوحي إليهم وأن له كتباً منزلة ، لكن الأمر يختلف بالنسبة للمشركين ، فهم يكفرون بالله وهذا قمة الكفر . صحيح أن بعضاً من أهل الكتاب وقفوا مع المشركين في موقف العداء لرسول الله ، لكن قلبه صلى الله عليه وسلم معهم لأنهم أهل إيمان بالقمة . ويُسَرِّي الحق عن رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول : { الم * غُلِبَتِ الروم * فِي أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } [الروم : 1 – 3] .
وهنا يبرز سؤال يقول : متى سيغلبون؟ تأتي الإجابة من الحق تبارك وتعالى : { فِي بِضْعِ سِنِينَ } [الروم : 4] .
والبضع بالنسبة للزمن هو فترة تتراوح من ثلاث لتسع سنوات ، ولم يحدد الحق سبحانه وتعالى البضع هنا؛ لأن المعارك لها أوليات ونهايات ، لهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى مراعياً لما تستغرقه هذه المراحل كلها ، وجاء القول بأن نصر الروم على الفرس سوف يأتي بعد بضع سنين .

وبالله قولوا لي : كيف يتحكم نبي أمي في جزيرة تسكنها أمة أمية ، ولا علم لهذا الرسول بأخبار الأمم وكيف لهذا النبي أن يأتي بأخبار نصر أمة على أخرى؟ ويظل هذا الخبر في الكتاب الذي يحمل منهج رسالته قرآناً يُتْلَى ويتعبد به إلى قيام الساعة؟ لقد قالها بثقة في حدوث ما جاء في القرآن في المستقبل القريب؛ لأنها جاءته عن ربه ، وهو واثق أن قائل هذا الخبر قادر على إنفاذ ما يقول .
وإلا ، فماذا كان يحدث لو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك ثم مر بضع سنين ولم يأت نصر الروم؟ وماذا يكون موقف الذين آمنوا به كرسول من عند الله؟
إذن : هو صلى الله عليه وسلم لم يكن ليجازف وينطقها إلا بثقة في أن القائل هو الحق سبحانه الذي شاء أن ينزل بالخبر في آية قرآنية تُتلى ، وتُكتب ، وتُحفظ ، ويُصَلَّى بها في كل وقت إلى أن تقوم الساعة . وينزلها سبحانه على محمد صلى الله عليه وسلم وقت أن كان ضعيفاً لا يعرف ميزان القوي ، ولا يعلم هل ستستعد الروم لتنتصر أو لا؟
ثم ألم يكن من الممكن أن يتصالح الروم والفرس؟ كل ذلك لم يكن في حسبان محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الخبر جاء من الله وسبحانه القادر على إنفاذ ما يقول .

ألم يكن هناك إخبار عن أمور خالفت النواميس؟ نعم كانت هناك أمور خارجة عن النواميس وجاء بها الخبر من الله سبحانه وتعالى . . ألم يقل زكريا عليه السلام حين بُشِّر بالولد : { قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً * قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 8-9] .

أي : ما دام الله سبحانه وتعالى قد قال فقد تأكد الحدوث .

وكان المؤمنون أقرب إلى الروم لأنهم أهل كتاب؛ ولأن لهم صلة بالسماء ، ومن له صلة بالسماء يمتلئ بالحنين إلى أخبار السماء ، ويتسمع أخبار المؤمنين في القمة العقدية . ومن العجيب أن هذه الآية تصدق في الروم وفارس ، فينتصر الروم على الفرس ، وتصدق في محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فينتصر رسول الله وأصحابه في بدر . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . } [الروم : 4-5] .

وفي الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

{ قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } [التوبة : 29] .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم هنا بأنهم لا يؤمنون بالله مع أنهم أهل إيمان . والمعنى أنهم لا يؤمنون بالله الإيمان الذي يعطي الله جلال الصفات وكمالها؛ لأن بعضهم قال : إن الله له ابن اسمه عزير ، وقال البعض الآخر : المسيح ابن الله ، إذن فهم لم يؤمنوا بالله حق الإيمان تسبيحاً وتنزيهاً لذاته الكريمة عَمَّا لا يليق بها ، وكذلك يختلف إيمانهم باليوم الآخر عن الإيمان الحق به ، إنه إيمان لا يتفق مع مرادات الله تعالى؛ فهم يقولون مثلاً : إن النعيم في الآخرة ليس مادياً ولكنه نعيم روحي .

ونقول : عندما يحدثنا الله عن نعيم الآخرة فلا بد أن نعرف هذا النعيم حتى نفهم المعنى ، ونتساءل : ما هو النعيم الروحي؟ هل النعيم الروحي هو خواطر في النفس فقط لا علاقة لها بالحقيقة؟ أيكون هذا هو نعيم الآخرة؟

لقد أوضح المولى سبحانه وتعالى بما لا يدع مجالاً للظن أو الشك أنه قد أعد جنة للمؤمنين وأعد ناراً للكافرين ، وحكى لنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحياة بما فيها من ثواب ومن عقاب؛ بما يقنعنا أن فيها نعيمًا مثل الذي نعرفه ، فإذا كان هذا النعيم روحياً ونحن لا نعرف النعيم الروحي ولا نعلم شيئاً عنه ، فكيف يغرينا الله عز وجل بشيء لا نعلمه؟ إذن : فإيمان هؤلاء الناس باليوم الآخر ليس إيماناً كما يريده الله .

فسبحانه حين يحدثنا عن الجنة إنما يحدثنا عن أشياء من جنس ما نعرف وليس من جنس ما لا نعرف . وصحيح أن الله سبحانه وتعالى قد بيَّن لنا بعض صور النعيم في الجنة ، وقال : إنما مثل

كذا وكذا . قال الحق جل جلاله : { مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عقبى الذين اتقوا وَّعُقْبَى الكافرين النار } [الرعد : 35] .

إذن : فالله عز وجل يعطي مثلاً فقط . ومعلوم أن اللفظ في اللغة لا بد أن يوضع لمعنى معروف . ولذلك فعندما يحدثنا الله عن نعيم الجنة لا بد أن يحدثنا بكلام نعرف معانيه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن الجنة : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

إذن : فلا توجد في اللغة ألفاظ تعبر عن نعيم الجنة؛ لأن المعنى غير معروف لنا ، ولكن الله أراد أن يحببنا فيها فأعطانا صورة نفهمها عن النعيم ، فيقول عز وجل : { مَّثَلُ الجنة } وهو يريدنا أن نعرف أن فيها نعيماً خالياً من كل المنغصات التي تكون في المثل . فمثلاً الخمر في الدنيا فيها خصلتان؛ الأولى أنها تغتال العقول والثانية : أنها لا تشرب بقصد اللذة ، والذي يشرب الخمر لا يشربها مثلما يشرب كوب عصير المانجو أو عصير الليمون الذي يستطعمه ويشربه على مهل ، ولكنه يسكب الكأس في فمه دفعة واحدة؛ لأن طعمها غير مستساغ وليقلل زمن مرور الخمر على الحس الذائق ، ومعنى هذا أن طعمها غير مستطاب ، ثم إنها تذهب بوعي الشارب لها فيفقد السيطرة على سلوكه ، ويعتذر في الصباح عما فعل أثناء احتسائه للخمر ويقول خجلاً : « لم أدر موقع رأسي من موقع قدمي » هذه خمر الدنيا ، ولكن الخمر في الجنة لا غَوْل فيها .

. أي : لا تغتال العقول ، حلوة المذاق ، ولذلك يصفها الله سبحانه وتعالى بقوله : { لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ } [محمد : 15] .

أي : أنها مختلفة تماماً عن تلك الخمر التي حرمها الله في الدنيا . وتتجلى الحكمة في معنى الاستطعام في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُلْقَى في النار » .

ومن رحمة الله تعالى بخلقه أنه لم يجعل الطعام وقوداً للطاقة فقط ، بل يغري الناس على وقود الطاقة لاستبقاء الحياة بأن يستلذ الإنسان الطعام ، ويطيل أمد اللذة ساعة تناوله ، لا أن ينتظر النفع بعد أن يهضم الطعام . فكأن الإيمان لا يستمر إلا لمن يحب في الله ويكره في الله؛ فذلك يعطيه الطاقة التي تستبقي إيمانه ، كما تستبقي طاقة الطعام حياة الإنسان . وشاء الله سبحانه وتعالى أن يعطينا في تصوير الجنة المثل لما في الجنة ، لا بتشخيص وتحديد لما في الجنة فعلاً ، ويقول سبحانه وتعالى : { فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [السجدة : 17] .

وإذا كانت النفس لا تعلم شيئاً ، فهي لا تملك ألفاظاً تضع فيها ما لا تعلمه ، فإذا خاطبها الله

تعالى بواقع الجنة فهي لن تفهم ، لذلك شاء الحق تبارك وتعالى أن يخاطبها بواقع المثل ، فيقول عز وجل : { وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أَنَّ لَهُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة : 25] .

إذن : فهو رزق يشبه الرزق الموجود في الدنيا ولكن ليس هو ، أما أن يقال : إن نعيم الجنة هو النعيم الروحي أو نعيم الخواطر أو ما نسميه آمال النفس ، كأن يتخيل إنسان جائع أنه أكل كمية كبيرة من اللحم أو السمك؛ فتسعد روحه بذلك من غير واقع يحدث ، فكل هذا غير حقيقي ، ولكنهم يقولون هذا الكلام؛ لأنهم إذا ما تصوروا نعيم الجنة كالخواطر ، فسوف يكون عذاب النار مقابلاً أيضاً لنعيم الجنة ، أي سيكون عذاب الخواطر ، وفي هذا تصور لعذاب سهل؛ لأنهم يخافون عذاب النار فيريدونه عذاباً روحياً .

ولكن الإحساس بالنعيم والعذاب لا بد أن يكون له واقع يشبهه في الدنيا ، وإلا ما وُجِد في أنفسنا ما يجعلنا نرغب في نعيم الجنة ونخاف من عذاب النار .

لذلك فإن نعيم الجنة حق ، وعذاب النار حق . وشاء الله سبحانه أن يصفي النعيم من كل الشوائب ، فقال عز وجل عن أنهار الجنة : { وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى } [محمد : 15] .

أي : ليس فيه كل الشوائب الموجودة في عسل الدنيا . وكذلك قال عن لبن الجنة : { وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ } [محمد : 15] .

وكلمة { لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ } لها عند العرب أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى؛ لأن العربي كان يحلب الجمال ويضع ألبانها في الأواني ، وكان اللبن يتغير طعمه ويصير حامضاً ، لكنه كان مضطراً أن يشربه؛ لذلك فحين يسمع { وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ } فهو يعطيه المثل من حياته ، بعد أن ينقيه من كل الشوائِبِ التي تفسد طعم اللبن في الحياة الدنيا .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { قاتلوا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله } أي الإيمان الواجب بعظمة الله وتنزيهه . واليهود يؤمنون إيماناً إجمالياً بالله ، ولكنهم يُجسِّمونه ويقولون : إنه جلس على صخرة ومد قدميه في قصعة من الزمرد ثم استنكف الله أن يمده لبني إسرائيل ، وهذا تصوير لا يليق بكمال الله ولا بذاته المقدسة ، وهذا خطأ في التصوير . وكذلك كان خطؤهم في تصور نعيم الجنة وعذاب النار ، وبذلك لم يؤمنوا إيماناً حقاً باليوم الآخر ، ولهذا جاء قول الحق : { وَلاَ باليوم الآخر } وهم لم يقفوا فقط ضد الإسلام كمنهج ، بل وقفوا أيضاً من أديانهم مثل هذا الموقف ، ويقول المولى سبحانه وتعالى :

{ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ }

وهم كأهل كتاب حرفوا وبدلوا في دينهم فأحلوا ما حرم الله . ولذلك يقول سبحانه : { وَلاَ

يَدِينُونَ دِينَ الحق }

والحق – كما نعلم – هو الشيء الثابت الذي لا يتغير . وإذا نظرنا إلى كل رسول في عصره؛ نجده قد جاء بالحق ، وإذا جاء رسول من بعده فهو لا ينسخ العقائد ، ولكنه ينسخ في الأحكام ، وهكذا نعلم أن كل رسول جاء بالعقائد الثابتة وبالأحكام التي تناسب الزمان إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فكان النبي الخاتم إلى أن تقوم الساعة ، ولا بد أن يكون الحق الذي جاء به هو الحق الثابت الذي لا يتغير؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا رسول بعده ، إذن فقوله : { وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب } أي : أنهم لا يؤمنون حتى بما جاء في كتبهم من بشارة به صلى الله عليه وسلم ، وهذا حكم خاص بهم؛ لأن المشكلة معهم أنهم لم يصدقوا بلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله وأنه مرسل إليهم ، وسَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في معاملتهم ما شرعه الله تعالى ، وذلك أن يعاملوا معاملة مختلفة عن المشركين ، فمعاملة المشركين كانت براءة من العهد ، وإبعاداً عن المسجد الحرام وقتالاً إن وجدناهم ، أو أن يسلموا .

أما معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب فكانت : إما أن يسلموا ، وإما أن يعطوا الجزية مع استبقاء الحياة ، ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

{ حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ }

أي : حتى يؤدوا ما فُرِض عليهم دفعة من أموال مقابل حصولهم على الأمان والحماية ، وفي هذا صون لدمائهم ، ولذلك نجد أن المسلمين قد فتحوا بلاداً غير إسلامية وصاروا قادرين على رقابهم ولم يقتلوهم ، بل أبقوا عليهم ، وإبقاء الحياة نعمة من نعم الإسلام عليهم ، وهناك نعمة ثانية وهي أنه لم يفرض عليهم ديناً ، وإنما حمى اختيارهم الدين الذي يرونه ، وفي ذلك رد على من يقول : إن الإسلام انتشر بالسيف ، ونقول : إن البلاد التي فتحت بالمسلمين أقرت أهل الأديان على أديانهم ، وحمت فقط حرية الاختيار ، بل وقف المسلمون بالسيف أمام القوم الذين يقفون أمام اختيار الناس ، وتركوا الناس أحراراً . لكننا نجد المغالطات تملأ كتابات الغرب حول مسألة السيف . ونرد دائماً أن الإسلام لو انتشر بالسيف لما وجدنا في البلاد التي فتحها أناساً باقين على دياناتهم ، بل كان الإسلام يأخذ الجزية ممن بَقَوْا على دياناتهم من أهل الكتاب .

وأَخْذُ الجزية دليل على أنهم ظلوا على دينهم وظلوا أحياء ، وهاتان نعمتان من نعم الإسلام ، وكان يجب أن يؤدوا جزاء على ذلك ، وكان الجزاء هو الجزية . وهي مادة « جزى » و « يجزي » . فكأن الجزية فعلة من « جزى » « يجزي »؛ لأن الإسلام قدم لهم عملاً طيباً بأن أبقى على حياتهم وأبقاهم على دينهم من غير إكراه ، فوجب أن يُعطوا جزاء على هذه النعمة التي أنعم الله تعالى بها عليهم بالإسلام .

وأيضاً ، فإنهم سيعيشون في مجتمع إيماني؛ الولاية فيه للإسلام ، ويتكفل المسلمون بحمايتهم وضمان سلامتهم في أنفسهم وأهلهم وفي أموالهم وفي كل شيء ، فإذا كان المسلم يدفع لبيت المال زكاة تقوم بمصالح الفقراء والمسلمين ، فأهل الكتاب الموجودون في المجتمع الإسلامي ينتفعون – أيضاً – بالخدمات التي يؤديها الإسلام لهم ، ويجب عليهم أن يؤدوا شيئاً من مالهم نظير تلك الخدمات ، والإسلام مثلاً لا يكلف أهل الكتاب أن يدخلوا جنداً في حرب ضد أي عدو للمسلمين إلا إذا تطوعوا هم بذلك ، إذن : فالجزية ليست فرض قهر ، وإنما هي مقابل منفعة أداها الإسلام لهم؛ إبقاءً على حياتهم وإبقاء على دينهم الذي اختاروه ، وقرر الحق أن يعطوا الجزية { عَن يَدٍ } واليد هي الجارحة التي تُؤدَّي بها الأعمال ، وأغلب الأعمال إنما تُزَاوَلُ باليَد ، ونجد القرآن الكريم يقول : { وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ } [يس : 35] . واللسان أيضاً آلة الكلام ، والحق تبارك وتعالى يجازي على القول الطيب أو السيىء ، ولكن الأصل في العمل هو « اليد » ، وتطلق اليد ويراد بها القدرة التي تعمل ، أو يراد بها النعمة ، مثل قولنا : فلان له يد على فلان ، وفلان له أياد بيضاء على الناس .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ } .

فهل المقصود ب { عَن يَدٍ } أي من يُعْطُونَ الجزية ، أم أيدي الآخرين الآخذين للجزية؟

إن هذا القول : { عَن يَدٍ } مثلما يقال : فلان نفض يده من هذا الأمر ، أي خرج عن الأمر ولم يعد يعاون عليه . إذن يكون معنى { عَن يَدٍ } أي غير رد للنعمة . وعن يد منهم أي من المعطين للجزية ، أو { عَن يَدٍ } أي : يداً بيده فلا يجلس الواحد من أهل الكتاب في الأمة الإسلامية المحكومة بالإسلام في مكانه ويرسل رسولاً من عنده ليسلم الجزية ، لا ، بل عليه أن يدفعها ويحضرها بيده . أو نقول : { عَن يَدٍ } من معنى القدرة ، فمن عنده قدرة ، فتأخذ الجزية من القادر ولا نأخذها من العاجز .

إذن : يشترط في اليد إن كانت منهم ثلاثة ملاحظ؛ الملحظ الأول : أن يكونوا موالين لا نافضين لأيديهم منا ومن حكمنا ، والملحظ الثاني : أن يأتي بها بنفسه لا أن يرسل بها رسولاً من عنده ، وإن جاء بها لا بد أن يأتي بها وهو ماش وأن يعطيها وهو واقف ومن يأخذ الجزية قاعد ، وهذا هو معنى { وَهُمْ صَاغِرُونَ } . ولماذا يعطونها عن صَغار؟ لأن الحق عز وجل أراد للإسلام أن يكون جهة العلو ، وقد صنع فيهم الإسلام أكثر من جميل ، فلم يقتلهم ولم يرغمهم على الدخول إلى الإسلام؛ لذلك فعليهم أن يتعاملوا مع المسلمين بلا كبرياء ولا غطرسة ، وأن يخضعوا لأحكام الإسلام ، وأن يكونوا موالين للمسلمين ، لا ناقضين الأيدي ، وأن يؤدوا الجزية يداً بيد ، وأما العاجز وغير القادر فيعفى من دفع الجزية .

{ حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } والصَّغَار من مادة الصاد والغين والراء ، وتدل على

معنيين؛ إن أردتها عن السن يقال « صَغُر » « يَصْغُرُ » مثل قولنا : فلان كبر يكبر . وإن أردتها في الحجم والمقام نقول « صَغِر » « يصغَر » ، أي : صغر مقاماً أو حجماً ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } [الكهف : 5] .

وهنا في قوله : { حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } تعني أن يؤدوها عن انكسار لا عن علو ، حتى إنَّ من يُعطي لا يظن أنه يعطي عن علو ، ونقول له : لا ، إن اليد الآخذة هنا هي اليد العليا .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا حيثيات قتال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فقال بعد ذلك : { وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله . . . }

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30)

هذا الادعاء فيه مساس بجلال الله تعالى ، فالإنسان يتخذ ولداً لعدة أسباب؛ إمَّا لأنه يريد أن يبقى ذِكْره في الدنيا بعد أن يرحل ، والله سبحانه دائم الوجود؛ وإمَّا لكي يعينه ابنه عندما يكبر ويضعف ، والله سبحانه وتعالى دائم القوة؛ وإما ليرث ماله وما يملك ، والله تبارك وتعالى يرث الأرض ومن عليها . وإما ليكون عزوةً له ، والله جل جلاله عزيز دائماً . وهكذا تنتفي كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى هذا الادعاء . ولا يعقل أن يرسل الله سبحانه رسولاً ليبين للناس منهج الحق فإذا به يقول للناس : إنَّه ابن الله . إذن فهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل بالله .

ويسوق الحق تبارك وتعالى قول كل من اليهود والنصارى : { وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله } .

وهكذا نجد أنهم لم ينزهوا الله وأخلُّوا بالإيمان الحق . ولا بد أن نعلم أن من قالوا : إن عُزَيْراً ابن الله ليسوا هم كل اليهود ، بل جماعة منهم فقط هي التي جعلت عُزَيْراً ابناً لله لما رأى أفرادها على يديه نعمة أفاءها الله تعالى عليه ، فقالوا : هذه نعمة عظيمة جداً لا يمكن أن يعطيها ربنا لشخص عادي ، بل أعطاها لابنه . ذلك أن اليهود بعد سيدنا موسى عليه السلام قتلوا الأنبياء ، وعاقبهم الله بأن رفع التوراة من صدور الحافظين لها ، ولكن طفلاً لم يعجبه مشهد قتل الأنبياء فخرج شارداً في الصحراء مهاجراً وهارباً ، فقابله شخص في الطريق فسأله : لماذا أنت شارد؟ فقال : خرجْت أطلب العلم . وكان هذا الشخص هو جبريل عليه السلام ، فعلَّمه أن لله توراة ، فحفظها فصار واحداً من أربعة ، هم فقط من حفظوا التوراة : موسى ، وعيسى ، وعزير ، واليسع ، ولأن الكتب قديماً لم تكن تكتب على ورق رقيق مثل زماننا ، بل كانت تكتب على الأحجار وسعف النخيل ، لذلك كان وزن التوراة يقدر بسبعين جِمْل بعير ، وحين رجع عزير حافظاً للتوراة ، اندهش قومه وقالوا : لا بد أنه ابن الله؛ لأن الله أعطاه التوراة وآثره على القوم

جميعاً . ونشأت جماعة من اليهود تؤمن بذلك ، وكان منهم سلاَّم بن مشكم ، وشاس بن قيس ، ومالك ابن الصيف ، ونعمان بن أوفى . وحينما أنزل الله قوله : { وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله } لم ينكر اليهود المعاصرون لهذا النزول تلك المسألة ولم يكذبوها ، فكأن هناك من اليهود الذين كانوا بالمدينة من كان يؤمن بذلك ، وإلا لاعترضوا على هذا القول ، وهذا دليل على أن ما جاء بالآية يصدق على بعضهم أو هم عالمون بأن قوماً منهم قد قالوا ذلك . وكذلك قالت النصارى عن عيسى عليه السلام ، فجاء قول الحق تبارك وتعالى : { وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله } ويتابع الحق : { ذلك قَوْلُهُم } فيوضح لنا سبحانه أن النبوة لله جاءت فيها مشبهة ، كان يجب أن يلتفتوا إليها وينزهوا الله عن ذلك؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يصف عباده بأنهم عباد الله ، وأن الخلق كلهم خلق الله تعالى .

فالمولى سبحانه وتعالى وهو الخالق والقادر على كل شيء خلق كل الخلق من عدم ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً . ولكن الشبهة عند بعض من أتباع المسيح جاءت من أنه أوجِدَ من دون أب ، ونقول لهم : لو أن هذا الأمر جاء لكم من هذا الطريق ، فكان من الأوْلى أن تجيء ذات الشبهة في خلق آدم؛ لأن قصارى ما في المسيح أنه جاء من غير أب ، ولكن آدم جاء من غير أب ومن غير أم ، فأيهما كان أوْلى أن يكون ابن إله؟

ولذلك يقول القرآن الكريم : { إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ } . والحق سبحانه وتعالى يخلق الشيء – أي شيء – بأسباب ، وكل الأَسباب مخلوقة له ، والولد منا – في جمهرة الناس – ينشأ من اجتماع الأب والأم ، والشيء المردود بين شيئين له صور منطقية أربعة : إما أن يوجد بوجود شيئين ذكر وأنثى ، وإما أن يوجد بانعدام الشيئين مثل آدم ، وإما أن يوجد بوجود واحد من الشيئين وهو الذكر مثل حواء ، فقد خلقها الله من آدم مصداقاً لقوله : { وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } ، وإما بوجود واحد من الشيئين وهي الأنثى وخلق عيسى عليه السلام منها بدون وجود الذكر . وليعلمنا الله سبحانه وتعالى جميعاً أن الأسباب لا دخل لها في التكوين ، وأن المسبِّب هو القادر على أن يوجِد من غير أب وأم كما أوجد آدم ، وأن يوجد من أب وأم كما أوجد جمهرة الناس ، وأن يوجد من أم دون أب كما أوجد عيسى ، وأن يوجد من دون أم كما أوجد حواء .

إذن : فالقسمة دائرة بقدرة الله وإرادته ، ولا دخل لأحد إلا إرادة الحق سبحانه وتعالى ، فالأسباب ليست هي الفاعلة في ذاتها ، بل إرادة الخالق سبحانه هي الفاعلة ، ولذلك يقول المولى سبحانه وتعالى : { لِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ } [الشورى : 49–50] .

أي : قد يوجد الذكر والأنثى ولا يعطي لهما الحق عز وجل أولاداً ، وهذه طلاقة قدرة من الله

تعالى ، فإياك أن تقول إنها بأسباب ، بل سبحانه وتعالى يَهَبُ لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء ذكوراً ، ويجمع لمن يشاء بين الذكور والإناث ، ويجعل من يشاء عقيماً ، وكان استقبال الناس للمواليد يختلف؛ فالعرب كانوا يحبون إنجاب الذكر؛ لأنه قوي ويحقق العزوة ويركب الخيل ، ويحارب الأعداء . ولم يكونوا يحبون إنجاب الفتاة لأنها قد تأتي منها الفضائح ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ . . }

[النحل : 58-59] .

وجاء الإسلام ليوضح : أنه ما دام لا دخل لك في الإنجاب والإنسال ، فَدع الأمر لمن يهب الأبناء . وقد سمى الحق تبارك وتعالى الأبناء « هبة » ليذكرك أن الإنجاب شيء أعطاه سبحانه لك بلا مقابل منك ، فالذكور هبة ، والإناث أيضا هبة . فلا تفضل تلك الهبة عن هذه الهبة .

ودائماً أقول للذي ينجب بنات ، ويذهب هو وزوجته إلى الأطباء : لو استقبلتم هبة الله في الإناث كما تستقبلونها في الذكور ، فإن الحق سبحانه وتعالى يجزيكم جزاء لا يخطر لكم على البال ، فيحسن الله كل ابنة لكم في عين رجل صالح ويتزوجها ، فإن كُن عشر بنات فهُنَّ يأتين بعشرة رجال أزواج يعاملون الأب والأم لكل زوجة معاملة الأب والأم ، وهكذا يرزق الله من يرضى بقسمة الله في الإنجاب ، ويصبح أزواج البنات أطوع من الأبناء الذكور ، فالذي يرضى بالهبة في الإناث يوضح له الله : رضيتَ بهبتي فيك ولم تكن على سنة العرب من كراهة الإناث؛ لذلك أهبك من أزواج البنات أبناء لم تتعب في تربيتهم ويكونون أكثر حناناً وولاءً من أي أبناء تنجبهم أنت . ولذلك إذا ما وجدت إنساناً قد وُفِّقَ في زيجات بناته ، من رجال يصونون أعراضهم ويحسنون معاملة أهل الزوجة ، فاعلم أن الأب قد استقبل ميلاد الأنثى بالرضا؛ لأنها هبة الله .

ويقول المولى سبحانه وتعالى : { وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً } [الشورى : 50] .

إذن : فالعقم أيضاً هبة إلهية؛ لأن الإنسان إذا ما استقبل العقم برضا الله؛ لَوَجَد في كل رجل يراه ابناً له؛ لأنه استقبل الهبة في المنع برضا ، مثله مثل من استقبل الإناث كاستقبال الذكور . إذن : ما دامت المسألة هبة من الله فيجب أن تستقبل عطاء الله ومنعه بالرضا .

وعيسى عليه السلام جاء بنسبة طلاقة القدرة من الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن القسمة العقدية والعقلية لا تتم إلا به ، ولن تتكرر؛ لأن آدم وُجِدَ أولاً ، ومن وجدوا بعد آدم جاء كل منهم من أبوين ، وكذلك حواء وُجِدَت من قبلهم ، فهذه ثلاث صور قد وجدت في الكون وبقيت صورة ناقصة ، هي أن يوجد إنسان من أم دون أب ، فأتمها الله عز وجل بعيسى عليه السلام :

{ وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ }

وقول الحق { ذلك } إشارة إلى القول بأن المسيح ابن الله أو عزير ابن الله ، ويضيف الحق عز وجل توضيحاً { ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ } . ونسأل : وهل يوجد قول بغير أفواه؟ إن كل قول إنما يكون بالأفواه؛ حتى قول المؤمنين بأن الله واحد وأن محمداً رسول الله هو قول بالأفواه . ونقول : هناك قول بالفم فقط دون أن يكون له معنى من المعاني ، وهناك قول بالفم أيضاً وله معنى ، إلا أنه غير حقيقي ، وكاذب .

ولنعرف أولاً : ما هو القول؟ إنه كلام يعبر به كل قوم عن أغراضهم؛ كأن تقول للطفل : اجلس ، ولا بد أن يكون الطفل فاهماً لمعنى الجلوس ، وإن قلتها بالعربية لطفل إنجليزي فلن يفهم معناها .

إذن : فاللغة ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، والغرض هو معنى متفق عليه بين المتكلم والسامع ، ولا بد أن يعرف الاثنان ما يشير إليه اللفظ من موضوعات . فإن لم يعرف السامع اللفظ الذي يتكلم به المتكلم فهو لا يفهم شيئاً .

وهكذا نعلم أن الفهم بين المتكلم والمخاطب يشترط فيه أن يكونا عليمين باللفظ ، فإذا تكلم متكلم بشيء لا علم للسامع به؛ فهو لا يفهم . وكانوا يضربون لنا المثل قديماً بعلقمة النحوي وكان مشهوراً في النحو والألفاظ واللغة ، ويتقعر في استخدام الكلمات ، ولا يتكلم إلا باللغة الفصيحة الشاذة التي لا يعرفها الناس ، وكان عند علقمة خادم ، فمرض علقمة النحوي مرة وذهب إلى طبيب اسمه « أعجز » ليشكو له علة عنده ، وقال علقمة للطبيب : قد أكلت من لحوم هذه الجوازىء فقصأت منها قصأة أصابني منها وجع من الوابية إلى دأبة العنق ، ولم يزل يمني حتى خالط الخلب وأملت منه السراسيب . ولم يكن الطبيب متخصصاً في اللغة ولا معاجم عنده ، فوقف مستغرباً من كلمات علقمة وقال له : أعدْ عليَّ ما قلته فإني لم أفهم ، فأعاد علقمة عليه ما قاله بغضب ولوم لأنه لم يفهم لغته ، وعرف الطبيب تقعر علقمة فقال له : هات القلم والورقة لأكتب لك الدواء ، وكتب له : خذ حرقة وسلقة ورهرقة واغسله بماروس واشربه بماء ماء . فقال علقمة : أعِدْ عليَّ فوالله ما فهمت شيئاً ، فقال الطبيب : لعن الله أقلَّنا إفهاماً لصاحبه . وعرف علقمة أنه متقعر في اللغة ويأتي بألفاظ ليست من الألفاظ الدائرة على ألسن الناس . وقال أساتذتنا لنا : لم يؤدبه عن هذا إلا غلامه أي خادمه ، فقد استيقظ علقمة ذات ليلة وقال : يا غلام أصعقت العتاريف ، ولأن الغلام لم يفهم فقد رد قائلاً : زقفيلا ، وقال علقمة للغلام : وما زقفيل؟ قال : وأنت ما أصعقت العتاريف؟ فقال له : يا بني لقد أردت أصاحت الديكة؟ فقال : وأنا أردت لم تَصِحْ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : { ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ } إذن : القول هو اللفظ الملفوظ من الفم ، وهذا القول إما أن يكون له معنى ، وإما ليس له معنى . مثل كلمة « زقفيل » التي قالها

خادم علقمة ، هذه الكلمة ليس لها وجود في اللغة فهي قول باللسان ليس له معنى . وقد يكون القول له معنى؛ إلا أنه كلام باللسان لا يؤيده واقع ، فهو كذب .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ } يحتمل الأمرين . إما أنهم يقولون كلاماً لا يقصدونه ولا يعرفون معنى ما يقولون ، والمثال : أن نقول : « كتب » ، وهي كلمة مكونة من الكاف والتاء والباء ، ويمكن أن نستخدم ذات الحروف فنقول : « كبت » وهي نفس الحروف أيضاً ولها معنى .

أو نقول : « تكب » وهو لفظ غير مستعمل ، وهو كلام بالفم ولا معنى له في اللغة ، بل هو لفظ مهمل . فإذا قال إنسان كلاماً له معنى فهمناه مثل قول : « زيد كان بالأمس بالمكان الفلاني » وهنا زيد معلوم ، والمكان معلوم ، وأمس معلوم . لكن زيداً لم يذهب إلى ذلك المكان ، وبذلك يكون القول في حقيقته كذباً لم يحدث . ويكون كلاماً بالفم ، ولا واقع له في الحياة .

إذن : فالقول بالفم إما أن يكون لا معنى له أبداً ، فيستعمل كلفظ مهمل لا وجود له في اللغة ، وإما أن يكون له معنى في ذاته إلا أنه ليس له واقع يؤيده .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . . } [الأحزاب : 4] .

والله سبحانه يقول : { وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذلكم قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ . . } [الأحزاب : 4] .

هذا إذن كلام لا وجود له في الواقع ، فالزوجة لا تصير أمّا لزوجها والولد المتبني لا يكون ابناً للرجل أو المرأة ، لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله } [الأحزاب : 5] .

والحق سبحانه وتعالى يقول : { الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً } [الكهف : 1-4] .

أي : أن هذا القول منهم كلام له معنى في اعتقادهم ، ولكن ليس له واقع ، ولذلك قال المولى سبحانه وتعالى : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ } أي : لا واقع لهذا القول يسنده فهو كذب .

{ ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ } وهل هذا القول بالأفواه أهم ابتكروه أم ابتدعوه؟ إن الحق سبحانه يوضح لنا : { يضاهئون قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ } أي : أنهم لم يأتوا بهذا التصور من عندهم ، بل من شيء له واقع ، فقد قال المشركون ما أورده الحق على ألسنتهم : { وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً } [الزخرف : 19] .

فقد توهم المشركون أن لله تعالى بنات والعياذ بالله – وسبحانه منزه عن ذلك ، في ذلك يخاطبهم المولى { أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى } – إذن : فهذا كلام قديم؛ لذلك قال الحق عنهم : { يضاهئون

} أي : يشابهون ويماثلون الذين من قبلهم حينما قالوا مثل ذلك ، كما أن البوذية في الصين واليابان قالت ببنوة الإله والحلول وقد حفظ بعضهم من هؤلاء ، ولم يطرأ جديد من ألسنتهم ، وهم كما وصفهم القرآن الكريم { يضاهئون } أي : يشابهون ويماثلون به قول الذين كفروا من قبل ، و « المضاهاة » هي المماثلة والمشابهة ، وقالوا : إن مادتها مأخوذة من امرأة « ضَهْيَاء » وهي التي ضاهت وشابهت الرجل ، في عدم الحيض أو الحمل أو الولادة ، وهي بذلك تكون شبيهة بالرجل .